

مقاتل من المريخ

إدجار رايس بوروز

- ♦ المؤلف: إدجار رايس بوروز
- ♦ العنوان : مقاتل من المريخ
- ♦ ترجمة: شهرت العالم
- ♦ الطبعة الأولى 2020
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن يشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠١٩ / ١٩٧٥٨

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977 - 765 - 138 - 7

جميع الحقوق محفوظة؛ لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال؛ دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - موبایل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

إدجار رايس بوروز

مقاتل من المريخ

رواية

ترجمة

شهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

بوروز، إدجار رايس.

إدجار رايس بوروز : مقاتل من المريخ

ترجمة: شهرت العالم

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2020

344 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 19758 / 2019

الترقيم الدولي 7 - 138 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - بوروز، إدجار رايس

تقديم

يعود الفضل إلى جيسون جريدلي من طرزانا، مكتشف موجة جريدلي^(١)، في إقامة اتصال لاسلكي بين بليوسيدار^(٢) والعالم الخارجي.

كان من حسن حظي أن أمضي وقتًا كبيرًا في مختبرة وهو يجري تجاربه، وأن أكون أيضًا محل ثقته، بحيث أدركت تمامًا أنه بينما يأمل في إقامة اتصال مع بليوسيدار، يحاول التوسع أيضًا لتحقيق إنجاز أكثر روعة- كان يتلمس طريقه عبر الفضاء للاتصال بكوكب آخر؛ ولم يحاول إنكار أن الهدف الحالي لطموحه هو الاتصال اللاسلكي مع المريخ.

(١) موجة جريدلي: وسيلة اتصال اكتشفها مخترع من كوكب الأرض هو جيسون جريدلي، وهي تتيح الاتصال في اتجاهين: بين كوكب الأرض والبليوسيدار (عالم باطن كوكب الأرض)، وقد استُخدمت لنقل قصص بليوسيدار إلى كوكب الأرض، كما استُخدمت لنقل قصص من المريخ إلى كوكب الأرض - https://barsoom.fandom.com/wiki/Gridley_wave - المترجمة.

(٢) بليوسيدار: عالم نابض بالحياة تحت سطح كوكب الأرض، ويضم مخلوقات عاشت على الكوكب سابقًا وانقرضت منذ زمن طويل. لا يوجد ليل هناك لأن باطن الأرض عبارة عن شمس مشرقة تقع في المركز وتوفر الضوء دائمًا - <https://barsoom.fandom.com/wiki/Pellucidar> - المترجمة.

لقد نجح جريدلي في تصميم جهاز أوتوماتيكي بسيط لبث الإشارات بشكل متقطع، وتسجيل ما يمكن استقباله أثناء غيابه.

حملت موجة جريدلي عبر الأثير، ولمدة خمس دقائق، إشارة رمزية بسيطة تتكون من حرفين «ج.ج.» [اختصار اسمه: جيسون جريدلي]؛ تلاها فترة توقف لمدة عشر دقائق. يمر الوقت، ساعة بعد ساعة، يومًا بعد يوم، أسبوعًا بعد أسبوع، وهذه الرُّسل الصامتة غير المرئية تنطلق إلى أقصى مسافة ممكنة في الفضاء اللانهائي. وبعد أن غادر جيسون جريدلي طرزانًا للشروع في رحلته إلى بليوسيدار، وجدت نفسي منجذبًا إلى مختبره بإغراء إمكانيات حلمه الهائلة، فضلًا عن وعدي له بأن أراجع بين حين وآخر ما إذا كان الجهاز يعمل بشكل صحيح، وأفحص أدوات التسجيل لتتبع أي دليل على استقبال الإشارات والإجابة عليها. منحنتني علاقتي الوطيدة بجريدلي معرفة عملية جيدة بأجهزته، ومعرفة كافية بشفرة مورش تمكّني من الاستقبال بقدر معتدل من الدقة والسرعة.

مرت الشهور؛ وتراكم التراب غزيرًا فوق كل شيء باستثناء الأجزاء العاملة في جهاز جريدلي، كما احتفظ بنقائه شريط التكرز الأبيض - الذي يحمل مؤشر استقبال إشارة الرد؛ ثم ذهبت في رحلة قصيرة إلى ولاية أريزونا.

تغيب حوالي عشرة أيام، وكان فحص مختبر جريدلي والأدوات التي تركها تحت رعايتي من أول الأشياء التي شغلت اهتمامي عند عودتي. دخلت الغرفة المألوفة وأضأت الأنوار، متوقعًا مواجهة نفس

عدم الاستجابة التي أصبحت الآن معتادًا عليها تمامًا.

وفي واقع الأمر، لم يكن أُملي في النجاح مرتفعًا بأي حال، كما لم يكن جريدلي مفرط التفاؤل - فهي مجرد تجربة. كان يراها تجربة جديرة بالمحاولة، وكنت أعتبرها أيضًا تستحق أن أساعده فيها بأي قدر أستطيعه، ولو ضئيل.

ولذلك تملكنتني مشاعر الدهشة، المقترنة بصدمة متميزة، عندما رأيت على شريط التيكروز علامات مألوفة لنقاط وشرطات تخص سفرة. أدركت بالطبع أن باحثًا آخر ربما توصل أيضًا إلى اكتشاف جيسون لموجه جريدلي، وأن هذه الرسالة ربما مصدرها كوكب الأرض، أو ربما هي رسالة من جيسون نفسه أرسلها من بليوسيدار؛ لكنني عندما انتهيت من فك شفرتها، تلاشت على الفور تلك الشكوك جميعًا. الرسالة من أوليسيس باكستون،^(٣) وهو كابتن سابق في سلاح المشاة بالجيش الأمريكي، انتقل بأعجوبة من ساحة معركة في فرنسا إلى حضن الكوكب الأحمر العظيم، وأصبح الساعد الأيمن للعالم رأس ثافاس^(٤) - العقل المدبر للمريخ - ثم تزوج من فالاديا، ابنة كور سان،

(٣) أوليسيس باكستون: ويُسمَّى على المريخ فاد فارو - بطل قصة «العقل المدبر في المريخ». وهو هندي أمريكي انتقل في ظروف غامضة إلى المريخ خلال الحرب العالمية الأولى - https://bar-soom.fandom.com/wiki/Ulysses_Paxton - المترجمة.

(٤) راس ثافاس: عالم مريخي، معروف بأنه العقل المدبر في المريخ، وهو أحد أبطال القصة المعروفة بالاسم نفسه في سلسلة المريخ. يكرس اهتمامه بالعلوم دون النظر إلى العواقب الاجتماعية لاختراعاته أو اكتشافاته، وكان فاد فارو مساعده لفترة - https://barsoom.fandom.com/wiki/Ras_Thavas - المترجمة.

جيداك^(٥) دوهور^(٦).

أوضحت الرسالة بإيجاز أن إشارات غامضة ظلت تصل إلى هيليوم^(٧) لعدة أشهر، وعلى الرغم من عدم قدرتهم على تفسيرها، فقد ذهبوا إلى أنها تصل من جاسوم، وهو اسم كوكب الأرض في المريخ. ونظرًا لأن جون كارتر^(٨) كان غائبًا عن هيليوم، فقد أرسلت طائرة سريعة إلى دوهور بطلب عاجل إلى باكستون؛ ليأتي على الفور إلى مدينتي هيليوم التوأم في محاولة للتحقق من مدى صحة وصول هذه الإشارات بالفعل من كوكب الأرض الذي ينتمي إليه باكستون.

تعرف باكستون على الفور، بمجرد وصوله إلى هيليوم، على إشارات مورس. وتلاشى كل شك في أذهان علماء المريخ بأن شيئًا ملموسًا قد تحقق أخيرًا في اتجاه حل الاتصال بين جاسوم وبرسوم^(٩). فشلت محاولات متكررة لنقل الرد على الإشارات إلى كوكب

(٥) جيداك: ما يعادل الإمبراطور

(٦) دوهور: مملكة على المريخ تضم مريخين ذوي بشرة حمراء، وتقع في نصف الكرة الشمالي للمريخ - <http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=Jeddak> - المترجمة.

(٧) هيليوم: إحدى الممالك الكبرى في برسوم/ المريخ، وهي تضم مدينتين توأماً رئيسيتين: هيليوم الكبرى وهيليوم الصغرى، وهما معًا بمثابة عاصمة المملكة - <https://barsoom.fandom.com/wiki/Duhor> - المترجمة.

(٨) جون كارتر: من فرجينيا، وهو أول رجل من كوكب الأرض يصل إلى المريخ، وأصبح أحد أعظم أمراء الحرب في تاريخ المريخ - <http://barsoom.wikia.com/wiki/Helium> - المترجمة.

(٩) برسوم: كوكب يُسميه أهل كوكب الأرض بالمريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/John_Carter - المترجمة.

(٩) برسوم: كوكب يُسميه أهل كوكب الأرض بالمريخ - <http://barsoom.wikia.com/wiki/Barsoom> - المترجمة.

الأرض، ثم شرعت أفضل عقول هيليوم في مهمة تحليل موجة جريدلي وإعادة إنتاجها.

شعروا أنهم تمكنوا أخيراً من تحقيق النجاح. وبعث باكستون برسالته، وظلوا ينتظرون الرد بفارغ الصبر.

ومنذ منذ ذلك الحين وأنا على اتصال مستمر تقريباً بالمريخ. لكن الولاء لجيسون جريدلي، الذي يعود إليه كل الفضل والشرف، جعلني أمتنع عن أي إعلان رسمي من جانبي، فضلاً عن عدم تقديم أي معلومات مهمة، تاركاً له الأمر برمته لحين عودته إلى العالم الخارجي. مع ذلك، لا أعتقد أنني أخون الثقة إذا رويت لكم قصة هاردون الهاستوري^(١٠) المشوقة، التي رواها لي باكستون منذ فترة ليست طويلة.

وآمل أن تستمتعوا بها بقدر استمتاعي.

على أنني قبل أن أدخل في القصة، أعتقد من الممتع للعديد من القراء أن أقدم وصفاً موجزاً للأعراق الرئيسة في المريخ، وتنظيمهم السياسي والعسكري، فضلاً عن بعض عاداتهم. إن العرق المهيمن الذي يملك ناصية التقدم والحضارة -نعم، حياة المريخ نفسها- لا يختلف عنا إلا قليلاً من حيث المظهر. ويكمن الاختلافان الأساسيان بينهم وبين المعايير الأنجلو-ساكسونية في لون بشرتهم النحاسي المائل إلى الحمرة الخفيفة، وفي أنهم يتكاثرون عن طريق وضع البيض الذي يكسر الصغار قشرته ليخرجوا إلى العالم. كلا، هناك شيء آخر

(١٠) هاستور: إحدى المدن الصغيرة في مملكة هيليوم - <https://barsoom.fandom.com/wiki/>

Hastor - المترجمة.

مختلف - إنه طول العُمر؛ إذ يُعتبر ألف عام فترة حياة طبيعية للمريخي، على الرغم من أن ولعهم بالحرب وانتشار الاغتيال فيما بينهم لا يتيح سوى لعدد قليل منهم أن يعيش هذه الفترة العمرية.

أما عن تنظيمهم السياسي العام، فلم يتغير إلا قليلاً على مدار عدد لا يُحصى من العصور؛ فلا تزال القبيلة هي الوحدة الرئيسة، وعلى رأسها قائد أو جد^(١١)، ما يُناظر الملك في العصر الحديث. والأمير هو جد وإن كان في مرتبة أدنى، بينما يحمل قائد القادة أو رئيس القبائل الموحدة لقب جيداك، أو إمبراطور، وزوجته تحمل لقب جيدارة.

يعيش غالبية المريخيين الحُمر في مدن ذات أسوار، على الرغم من وجود العديد الذين يسكنون في بيوت معزولة، ذات جدران قوية ودفاعاتها جيدة، في المزارع التي تمتد على طول شريط الأراضي الغنية المروية التي نعرفها نحن سكان كوكب الأرض باسم «قنوات المريخ». في أقصى الجنوب، أي في المنطقة القطبية الجنوبية، يسكن عرق من الرجال سود البشرة ويتمتعون بالوسامة والذكاء الشديد. كما يسكن هناك أيضًا ما تبقى من العرق أبيض البشرة؛ في حين يهيمن عرق الرجال ذوي البشرة الصفراء على المناطق القطبية الشمالية.

وتتأثر بين القطبين الأراضي القفر لقيعان البحر الميت، وتضم في أغلبها المدن التي تدمرت خلال العصور السابقة، وتسكنها جحافل المريخيين حُضر البشرة المُخيفين.

(١١) جد: الجد هو لقب قائد مدينة أو جماعة - <http://barsoom.wikia.com/wiki/Jed> - المترجمة.

ويتوارث هؤلاء المحاربون الخضِر الرهيون في رسوم العداء لجميع الأعراق الأخرى على هذا الكوكب المولع بالقتال. وهم يتميزون بأحجامهم الضخمة؛ وبالإضافة إلى الساقين والذراعين، يمتلك كل فرد أيضًا زوجًا وسيطًا من الأطراف التي يمكنه استخدامها حسب رغبته إما كذراعين أو ساقين. تقع أعينهم عند أقصى جانبي رؤوسهم، فوق الوسط قليلًا، وتبرز على نحو يتيح توجيهها إلى الأمام أو إلى الخلف، وأيضًا بشكل مستقل عن بعضهما، مما يسمح لهذه المخلوقات الرائعة النظر في أي اتجاه أو في اتجاهين في وقت واحد دون الحاجة إلى تحويل رؤوسهم.

أما آذانهم، التي تقع مقتربتين أعلى العينين بقليل، فهي عبارة عن هوائيات صغيرة مُقعرة الشكل، وتبرز لعدة بوصات من الرأس؛ بينما أنوفهم ليست سوى شقوق طويلة في وسط وجوههم، عند منتصف المسافة بين الأنف والأذان.

أجسادهم خالية من الشعر، وذات لون أخضر مصفر فاتح في فترة الطفولة، ويتحول إلى اللون الأخضر الزيتوني في فترة النضج، بحيث عند البلوغ يصبح لون بشرة الذكور أكثر قتامة من لون بشرة الإناث.

لون قزحية أعينهم هو الأحمر الدموي، مثل الألبينو، بينما يتخذ إنسان العين اللون الأسود. ومقلة العين نفسها شديدة البياض، مثلها مثل الأسنان. وتضيف الأسنان مظهرًا أكثر شراسة لملامح وجه مخيف ورهيب، حيث تنحني الأنياب السفلية إلى أعلى وتنتهي بنهاية حادة في الموقع الذي توجد فوقه أعين البشر في كوكب الأرض. ولا يماثل

بياض الأسنان بياض العاج، وإنما يشبه بياض الثلوج ولمعان آنية الخزف الصيني. وعلى خلفية بشرتهم الزيتونية الداكنة، تبرز أنيابهم بطريقة لافتة للنظر، حيث تبدو هذه الأسلحة بمظهر متفرد مدهش.

إنهم عرق قاسٍ وقليل الكلام، وخالٍ تمامًا من الحب والتعاطف أو الشفقة.

كما أنهم عرق يمتطي الحيوانات دائماً، ولا يمشون أبداً إلا للتحرك حول مخيماتهم.

والحيوان الذي يمتطوه يُسمَّى الثوات، وهو وحش همجي ضخّم يتناسب حجمه مع أحجام أسياده العمالقة. وللثوات ثمانية أرجل، وذيل عريض مسطح وحجمه عند الطرف أكبر منه عند المنبت، ويمتد خلفه مباشرة عندما يجري. وفمه كبير، يقسم رأسه من أنفه إلى عنقه الطويل الضخم. وحيوانات الثوات، مثلهم مثل أسيادهم، خالية تماماً من الشعر؛ وبشرتهم داكنة اللون وملساء وشديدة اللمعان، باستثناء البطن بيضاء اللون؛ ويتدرج لون سيقانهم بظلال من لون الكتفين فالوركين وصولاً إلى اللون الأصفر الزاهي عند أقدامهم. والأقدام نفسها مبطنة وشديدة الامتلاء وبلا أظافر.

تخضع جحافل الخُضر، مثلهم مثل الرجال الحُمر، لحُكم الجِد والجيداك؛ لكن تنظيمهم العسكري ليس بنفس تفاصيل كمال نظيره عند الرجال الحُمر.

تتمتع قوات الرجال الحُمر العسكرية بتنظيم عالٍ، ويتمثل ذراعها الرئيس في القوات البحرية التي تضم قوة جوية هائلة من السفن الحربية

الفضائية مختلفة الأنواع، فضلاً عن مجموعة متنوعة لا حصر لها من السفن والطائرات الصغيرة الفضائية، وصولاً إلى طائرات الاستطلاع ذات الراكب الواحد. ويأتي ذلك من حيث الحجم والأهمية، فرع المشاة؛ بينما سلاح الفرسان، الذي يمتطي رجاله سلالة من حيوانات الثوات الصغيرة المماثلة لتلك التي يستخدمها عمالقة المريخ الخضر، فيمكن عمله أساساً في دوريات طرق المدن والمناطق الريفية التي تقع على حدود نُظُم الري.

أما الوحدة الأساسية الرئيسة، وإن لم تكن أصغر وحدات التنظيم العسكري، فهي الأوتان؛ وتضم مائة رجل، ويرأسها دوار^(١٢) ومعه عدد من البادوار^(١٣) أي من رتبة الملازم الأصغر منه. وهناك الأودوار^(١٤) وتحت إمرته الأوماك، وهو سرية تضم عشرة آلاف رجل؛ بينما أعلاه يوجد الجدوار^(١٥) وهي الرتبة الأدنى مباشرة للجد أو الملك.

ونجد بعض أقسام العلم والأدب والفن والعمارة في المريخ أكثر تطوراً من نظيرتها على كوكب الأرض، وهذه مسألة جديرة بالملاحظة إذا أخذنا في الحسبان تلك المعركة المستمرة من أجل البقاء، والتي

(١٢) دوار: رتبة مريخية تعادل رتبة كابتن (نقيب) - <http://barsoom.wikia.com/wiki/Dwar> - المترجمة.

(١٣) بادوار: رتبة مريخية تُعادل رتبة مُلازم - <http://barsoom.wikia.com/wiki/Padwar> - المترجمة.

(١٤) أودوار: قائد أو جنرال -

<http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=odwar> - المترجمة.

(١٥) جدوار: أعلى رتبة عسكرية في برسوم، ولا يخضع حاملها إلا إلى جد أو جيداك. وتعادل هذه الرتبة القائد الأعلى لجميع القوات البرية والبحرية - <https://barsoom.fandom.com/wiki/> - *Martian_Military* - المترجمة.

تشكل أكثر سمات الحياة بروزًا على كوكب المريخ.

فالأمر لا يقتصر على شن معركة مستمرة ضد الطبيعة، التي تؤدي ببطءٍ إلى تقلص غلافهم الجوي الضئيل أصلاً، بل يواجهون دومًا -من المهد إلى اللحد- تلك الضرورة الصارمة للدفاع عن أنفسهم ضد الأمم العدوّة من عرقهم نفسه، علاوة على الجحافل الكبيرة من المحاربين الخُضر المتجولين القادمين من قاع البحر الميت؛ بينما يوجد داخل أسوار مدنها عدد لا يُحصى من القتلة المحترفين، الذين ينظمون عملهم بشكل جيد إلى حد انتظامهم في روابط في بعض المناطق.

وعلى الرغم من جميع الحقائق المروعة التي عليهم مكافحتها، فإن المريخيّين الحُمَر شعب سعيد واجتماعي. لديهم مباريات، ورقصات، وأغانٍ؛ وتتسم الحياة الاجتماعية للعاصمة الكبرى في برسوم بالمرح والروعة، مثلها مثل أي حياة في العواصم الغنية على كوكب الأرض.

وهم شعب شجاع ونبل وسخي، ويدل على ذلك عدم رغبة جون كارتر أو أوليسيس باكستون في العودة إلى كوكب الأرض.

نعود الآن إلى الحكاية التي وصلتني من باكستون من مسافة ٤٣ مليون ميل عبر الفضاء.



الفصل (١)

سانوما تورا

هذه هي قصة هادرون الهاستوري، المقاتل المريخي، كما رواها بنفسه لأوليسيس باكستون:

أنا تان هادرون من هاستور، ووالدي هو هاد أورتور، أودوار الأوماك الأول في قوات هاستور، وقائد أكبر سفينة فضائية حربية شاركت بها هاستور في قوات هيليوم البحرية. تستوعب سفينته العشرة آلاف رجل الذين يضمهم الأوماك الأول، إلى جانب خمسمائة سفينة قتالية أصغر، وجميع معدات الحرب. ووالدتي هي أميرة جاثول^(١٦).

نحن أسرة ليست غنية إلا بشرفها، ونُقدّر قيمته أعلى من جميع الممتلكات العادية. وقد اخترت مهنة والدي وليس أي مهنة أخرى أكثر ربحًا. وتعزيزًا لطموحي، أتيت إلى عاصمة إمبراطورية هيليوم والتحقّت بالخدمة في قوات تاردوس مورش، جيداك هيليوم، كي أكون أكثر قربًا من جون كارتر، أمير الحرب في المريخ.

(١٦) جاثول: من أقدم مدن المريخ وتضم مريخين حُمراء، ولا تتبع أي مملكة - <https://barsoom.fandom.com/wiki/Gathol> - المترجمة.

كانت حياتي في هيليوم وحياتي المهنية في الجيش تماثل حياة
المئات من الشباب الآخرين. مرت أيام تدريبي دون إنجاز ملحوظ، دون
أن أتقدم أو أتخلف عن زملائي. وقد حصلت، في الوقت المناسب،
على رتبة بادوار في الأوماك^(١٧) الحادي والتسعين، بعد تعييني في
الأوتان الخامس من الدار^(١٨) الحادي عشر.

ونظرًا لأنني من نسل نبيل لوالدي وأرث الدم الملكي من والدتي،
كانت قصور مدينتي هيليوم التوأم مفتوحة أمامي دائمًا، واستمتعت
كثيرًا بحياة المرح في العاصمة. وهكذا قابلت سانوما تورا، ابنة تور
هاتان، أودوار الأوماك الحادي والتسعين.

ينتمي تور هاتان إلى طبقة نبلاء أدنى مرتبة، لكنه هائل الثراء من
نهب المدن العديدة والاستثمار في الأراضي الزراعية والمناجم. ونظرًا
لأن نفوذ الأغنياء هنا، في عاصمة هيليوم، أكبر من نظيره في هاستور،
فقد أصبح تور هاتان رجلًا قويًا يصل نفوذه حتى إلى عرش الجيداك.

لن أنسى ما حييت تلك المناسبة، عندما وقعت عيناى للمرة الأولى
على سانوما تورا. كانت وليمة كبيرة في القصر الرخامي للأمير الحرب،
حيث تجتمعت تحت سقف واحد أجمل نساء برسوم. وعلى الرغم من

(١٧) أوماك: سرية في الجيش تضم عشرة آلاف جندي (١٠ وحدات دار)، ويقودها أودوار - https://barsoom.fandom.com/wiki/Martian_Military - المترجمة.

(١٨) دار: وحدة عسكرية تضم ١٠ أوتان، بما يصل مجموع أفراد الدار إلى ١٠٠٠ جندي - https://barsoom.fandom.com/wiki/Martian_Military - المترجمة.

روعة وتألّق جمال ديجاه ثوريس^(١٩) وتارا^(٢٠) الهيليومية وثوفيا^(٢١) البتارية، فقد اقتنص جمال سانوما تورا الخلاب الانتباه. لا أقول إن جمالها يزيد على رقة وسحر ملكات برسوم، لأنني أعرف أن عشقي لسانوما تورا قد يؤثر بسهولة على تقديري؛ لكن جمالها الرائع لفت انتباه الآخرين، لأنه من نوع يختلف عن جمال ديجاه ثوريس بمثل ما يختلف جمال المناظر الطبيعية القطبية الطاهر عن جمال المناطق المدارية، وبمثل ما يختلف جمال قصر أبيض في ضوء القمر عن جمال حديقته في منتصف النهار.

عندما قُدمت إليها، بناء على طلبي، نظرت بداية إلى الشارة فوق درعي وأدركت أنني مجرد بادوار، تعطفت عليّ بكلمة لطيفة، ثم حولت انتباهها ثانية إلى الدوار الذي كانت تتحدث معه.

يجب أن أعترف أنني ارتبكت، وأن وقاحة تعاملها معي هي ما أكد عزمي على الفوز بها؛ فدائمًا ما كان الهدف الأصعب في التحقق هو ما يبدو لي الأكثر رغبة.

وهكذا وقعت في حب سانوما تورا، ابنه قائد الأوماك الذي التحقت به.

وجدت صعوبة لفترة طويلة في تعزيز طلبي ولو بدرجة طفيفة؛ وفي

(١٩) ديجاه ثوريس: أميرة مملكة هيليوم، وهي زوجة جون كارتر (القادم من كوكب الأرض) - http://barsoom.wikia.com/wiki/Dejah_Thoris - المترجمة.

(٢٠) تارا: هي ابنة جون كارتر وديجاه ثوريس، والأخت الصغرى لكارثوريس - <https://barsoom.fandom.com/wiki/Tara> - المترجمة.

(٢١) ثوفيا: الأميرة ثوفيا ابنة ثوفان ديهن، جيداك مملكة بتارث. وقد تزوجت من كارثوريس، ابن جون كارتر وديجاه ثوريس - <https://barsoom.fandom.com/wiki/Thuvia> - المترجمة.

واقع الأمر لم أقابل حتى سانوما تورا لعدة أشهر بعد لقائنا الأول، إذ كان من المستحيل أن أحصل على دعوة منها لزيارة منزلها بعد أن وجدتني فقيرًا، فضلًا عن رتبتي العسكرية المنخفضة، كما لم يصدف لفترة طويلة أن أقابلها في أي مكان آخر. ولكن، كلما زادت صعوبة الوصول إليها، زاد حبي لها، إلى حد أنني كرسيت كل لحظة في وقتي -لا أتولى خلالها أداء مهامى العسكرية- في وضع خطط جديدة ومغامرة لامتلاكها. تملكني حتى جنون التفكير في اختطافها، وأعتقد أنني كنت لأمضي في نهاية المطاف في هذا الطريق إن لم أجد وسيلة أخرى لرؤيتها؛ لكن ما حدث في ذلك الوقت أن أحد الضباط الزملاء في سريتي رقم ٩١ -وهو دوار الأوتان الذي التحقت به- أخذته الشفقة عليّ، وتمكن من أن يحصل لي على دعوة إلى وليمة في قصر تور هاتان.

لم يكن مضيفي، وهو أيضًا قائدي في وحدتي العسكرية، يعرفني قبل هذا المساء؛ وفُوجئت بمودته ودفء تحيته.

قال: «يجب أن نراك كثيرًا هنا، هادرون الهاستوري. لقد كنت أراقبك، وأتنبأ لك بمستقبل واعد في قوات الجيдаك العسكرية».

عرفت أنه كان يكذب عندما قال إنه يراقبني؛ ذلك أن تور هاتان معروف بتراخيه في أداء واجباته كضابط في القيادة، التي كان يؤديها أكبر تيدوار^(٢٢) في الأوماك. وعلى الرغم من عدم استطاعتي أن أفهم

(٢٢) تيدوار: رتبة عسكرية أعلى من دوار؛ وهي تعادل رتبة رائد أو كابتن بحري على كوكب الأرض. ويتولى التيدوار قيادة دار (وهي الوحدة التي تضم ١٠ آلاف مقاتل)، أو سفينة فضائية حربية بمرفقاتها - https://barsoom.fandom.com/wiki/Martian_Military - المترجمة.

سبب اهتمامه المفاجئ بي، فقد أسعدني للغاية لأنني ربما أتمكن من خلاله أن أخطو تجاه محاولتي نيل قلب ويد سانوما تورا.

حتى سانوما تورا نفسها كانت أكثر ودًا بقليل عن تصرفها معي في أول لقاء لنا، رغم أنها أولت اهتمامًا أكبر تجاه سيل فاجيس.

وفي الحقيقة، إذا كان في هيليوم الآن أي رجل أكرهه أكثر من أي شخص آخر، فهو سيل فاجيس؛ إنه متكبر صغير يحمل رتبة تيدوار، مع أنني على يقين أنه لا يقود أي قوات، لكنه مجرد ضمن فريق تور هاتان، وأساسًا، حسبما افترض، بسبب ثروة والده الهائلة.

علينا أن نتحمل مثل هذه المخلوقات في أوقات السلم، أما عند اندلاع الحرب يتولى أمير الحرب العظيم زمام القيادة، وعندئذ يحتل المقاتلون مكانة عليا، ولا يُوضع الأغنياء في الحسبان.

على أي حال، أفسد سيل فاجيس هذا المساء بالنسبة لي، كما سوف يفسد العديد من الأمسيات الأخرى في المستقبل. ومع ذلك غادرت قصر تور هاتان تلك الليلة وبدخلي شعور يقترب من الغبطة؛ إذ حصلت على موافقة سانوما تورا بأن أزورها ثانية في بيت والدها عندما تسمح واجباتي أن أتقدم لها باحترامي.

عدت إلى مسكني بصحبة صديقي، الدوار، الذي ضحك عند تعليقي على دفء استقبال تور هاتان لي.

سألته: « لماذا تجد الأمر مدعاة للتسلية؟ ».

أجاب: «تعرف أن تور هاتان شديد الثراء والقوة، ومع ذلك يندر - كما تلاحظ - أن يتلقى دعوة إلى مكان من الأربعة أماكن في هيليوم التي يتوق أي رجل طموح إلى أن يُشاهد فيها».

سألته: «تعني قصور كل من أمير الحرب، والجيداك، والجِد، وكارثوريس؟».

أجاب: «بالطبع. وهل يوجد في هيليوم أي أربعة أماكن أخرى ذات أهمية؟»، ثم واصل حديثه قائلاً: «من المفترض أن تور هاتان ينتمي إلى طبقة نبلاء أدنى مرتبة، لكن التساؤل المُثار في ذهني يتعلق بما إذا كانت هناك قطره دم نبيلة واحدة تجري في عروقه. وتكمن إحدى الحقائق التي يستند إليها حدسي في تبجيله المتذلل والمتملق لأي شيء يتعلق بالملوك - فهو قد يمنح روحه الحمقاء نظير أن يعتبره أحد هؤلاء الأربعة شخصًا حميمًا».

سألته: «وما علاقة ذلك بي؟».

فأجاب: «له علاقة كبيرة، ولهذا أنت دُعيت إلى قصره الليلة».

قلت: «أنا لا أفهم».

أوضح قائلاً: «كنت أتحدث بالمصادفة مع تور هاتان في صباح اليوم الذي تلقيت أنت فيه دعوتك، وقد أشرت إليك أثناء حديثي معه. لم يكن قد سمع عنك من قبل. لم يثر وضعك كبادوار في الأوتار الخامس اهتمامه قيد أنمله، لكنني عندما أخبرته أن والدتك كانت أميرة جاثول، أنصت باهتمام، وعندما علم أنك تُستقبل كصديق على قدم

المساواة في تلك القصور الأربعة في هيليوم، زاد تحمسه لك»؛ ثم اختتم حديثه ضاحكًا: «هل فهمت الآن؟».

أجبت: «تمامًا، وشكرًا لك. كل ما أردته هو الفرصة، ولأنني كنت على استعداد لتحقيقها ولو بارتكاب جريمة إن لزم الأمر، فلا يمكنني الاعتراض على أي وسيلة أنت استخدمتها لتمنحني هذه الفرصة، مهما كانت غير محببة إلى نفسي».

ترددت لعدة أشهر على قصر تور هاتان. ولأنني كنت محادثًا جيدًا وعلى دراية بالرقصات الفخمة في برسوم وألعابها المرحية، لم أكن بأي حال زائرًا غير مرغوب فيه. كما أنني كثيرًا ما كنت أصطحب سانوما تورا إلى أحد تلك القصور الأربعة الكبيرة في هيليوم، حيث كنت دائمًا موضع ترحيب بسبب علاقة الدم القائمة بين والدتي وجاهان الجاثولي، الذي تزوج تارا الهيليومية.

شعرت بطبيعة الحال أنني أتقدم جيدًا نحو مسعاي، لكن التقدم المُحرَز لم يكن سريعًا بما يكفي لمواكبة سرعة رغبات شغفي. لم أعرف الحب من قبل، وأحسست أنني سأموت إن لم أفز قريبًا بسانوما تورا. ولذلك، قمت في إحدى الليالي بزيارة قصر والدها وأنا عاقد العزم على وضع قلبي وسيفي عند قدميها قبل أن أغادر. وعلى الرغم من أن التعقيدات الطبيعية للمُحب أقنعتني بأنني شخص لا يليق بها، وأن رفضها لي له ما يبرره كلية، فقد كنت عازمًا على إعلان موقفِي صراحة كمتقدمٍ لخطبتها؛ وهو ما سيمنحني، قبل أي شيء، حرية أكبر حتى وإن لم أكن الخاطب المُفضل.

كانت واحدة من تلك الليالي الجميلة التي تتحول خلالها برسوم القديمة إلى عالم سحري. يتسابق القمران ثوريا^(٢٣) وكلوروس^(٢٤) عبر السماء ويلقيان ضوءهما اللطيف على حديقة تور هاتان، مُضْفِيًا لونًا أرجوانيًّا على المرج القرمزي النابض بالحياة، ودرجات لونية غريبة على أزهار أشجار البيماليا^(٢٥) والسورابوس^(٢٦) الرائعة؛ بينما يُطلق الممشى المتعرج، المرصوف بالجواهر والأحجار الثمينة، آلاف الأشعة اللامعة المكسوة بألوان متغيرة، ترقص تحت أقدام التماثيل الرخامية التي تضيف لمحة فنية ساحرة على المشهد بأكمله.

في إحدى القاعات الفسيحة التي تطل على حديقة القصر، جلس شاب وفئة على مقعد ضخم من خشب السورابوس الغني؛ مقعد قد يماثل تلك المقاعد التي تُزين قاعات الجيداك العظيم نفسه، مقعد يتسم ببراء تصميم تلافيفه الأنيقة، وكمال النحت الذي صنعه حرفي ماهر.

تظهر على العتاد الجلدي الذي يرتديه الشاب شارة رتبته العسكرية: بادوار في الأوماك الحادي والتسعين. كنت أنا هذا الشاب، هادرون الهاستوري، ومعني سانوما تورا، ابنة تور هاتان. لقد أتيت مملوءًا

(٢٣) ثوريا: القمر الأقرب للمريخ من قمرين يدوران حوله؛ ومعروف في كوكب الأرض باسم فوبوس <http://barsoom.wikia.com/wiki/Thuria> - المترجمة.

(٢٤) كلوروس: أحد أبعد قمري المريخ عن الكوكب الأم، ومعروف لدى سكان كوكب الأرض باسم القمر ديموس - <http://barsoom.wikia.com/wiki/Cluros> - المترجمة.

(٢٥) شجرة بيماليا: شجرة مزهرة كبيرة في حدائق المريخ <https://barsoom.fandom.com/wiki/Pimalia> - المترجمة.

(٢٦) سورابوس: نوع من الشجر معروف في برسوم بشاره النظرة المحفوظة داخل ما يشبه قشرة الجوز <http://barsoom.wikia.com/wiki/Sorapus> - المترجمة.

بتصميم وجرة لعرض قضيتي والدفاع عنها، لكنني أدركت فجأة عدم جدارتي. ماذا أملك لأقدمه إلى هذه الابنة الجميلة لتور هاتان الغني؟ لست سوى بادوار، كما أنني فقير. صحيح أن دماء جاثول الملكية تجري في عروقي، وأعرف أن لهذا وزنه مع تور هاتان، لكنني لست من المتفافرين، ولا أستطيع تذكير سانوما تورا بالمزايا التي يحققها ذلك، حتى مع معرفتي أن تأثير مثل هذا القول سيكون إيجابيًا عليها. لا أملك إذن ما أقدمه سوى حبي الكبير؛ وربما هو أعظم هدية يمكن أن يقدمها رجل أو امرأة إلى الآخر، وتصورت مؤخرًا أن سانوما تورا قد تبادلني الحب. لقد أرسلت لي في عدة مناسبات، وعلى الرغم من أنها كانت تقترح في كل مرة أن نذهب إلى قصر تارا الهليومية، فقد كان يحدوني الأمل ألا يكون هذا هو السبب الوحيد لرغبتها في صحبتي.

«أنت ممل الليلة، هادرون الهاستوري»، قالت بعد صمت طويل، كنت أسعى خلاله إلى صياغة عرضي بعبارات أنيقة تبعث على الإقناع. أجبت: «ربما؛ ذلك أنني أحاول إيجاد الكلمات المناسبة لتغليف ما يشير اهتمامي أكثر من أي شيء».

«وما هو؟»، سألت برقة، وإن لم تُظهر اهتمامًا كبيرًا.

اندفعت قائلاً بارتباك: «أنا أحبك، سانوما تورا».

ضحكت، ضحكة تماثل رنين الفضة على الكريستال - ضحكة جميلة، لكنها باردة. وقالت: «كان ذلك واضحًا منذ فترة طويلة، ولكن لماذا تتحدث عن ذلك؟».

سألتها: «ولم لا؟».

أجابت ببرود: «لأنني لست لك، هادرون الهاستوري، حتى لو بادلتنك الحب».

سألتها: «إذن لا يمكنك أن تبادليني حبي، سانوما تورا؟».

فأجابت: «أنا لم أقل ذلك».

«يمكنك أن تحبيني؟».

قالت: «يمكنني أن أحبك إذا سمحت لنفسني أن تضعف، ولكن ما هو الحب؟».

قلت لها: «الحب هو كل شيء».

ضحكت سانوما تورا، وقالت بغطرسة: «إذا كنت تعتقد أنني قد أربط نفسي مدى الحياة بمجرد بادوار حتى لو كنت أحبه، فأنت مخطئ. أنا ابنة تور هاتان، الذي لا تقل ثروته وسلطته إلا قليلاً عن ثروة ونفوذ العائلات الملكية في هيليوم. لقد تقدم لي خاطبون يمتلكون ثروات هائلة، وبمقدورهم أن يشتروك أكثر من ألف مرة. وخلال هذا العام كان مبعوث الجيداك تول أكستار، من جاهار، ينتظر والدي. وعندما شاهدني قال إنه سيعود. وأنت، لمجرد الحب، تطلب من الفتاة التي قد تصبح في يوم ما جدارة جاهار أن تكون زوجة بادوار فقير».

نهضت قائلاً: «ربما تكونين على حق. أنت جميلة جداً إلى حد يبدو معه من غير الممكن أن تكوني على خطأ. بيد أنني، ومن أعماق قلبي، لا يسعني إلا أن أشعر بأن السعادة هي أعظم كنز يمكن لأحد أن

يمتلكه، وبأن الحب هو أعظم قوة. ومن دونهما، سانوما تورا، تصبح حتى الجيدارة فقيرة».

قالت: «سوف أقتنص فرصتي».

أخشى أنني قلت بطريقة حادة نوعًا ما: «آمل ألا يكون جيداك جاهار كتلة من الشحوم كمبعوثه».

قالت سانوما تورا: «قد يكون قدرًا متحرِّكًا من الشحوم، ما يهمني أنه سيجعلني جيدارة».

سألته: «ليس لديّ أي أمل إذن؟».

أجابت: «ليس لديك أمل، ما دام ما تعرضه قليلًا جدًّا يا بادوار».

وعندئذ أعلن عبد عن وصول سيل فاجيس، فغادرت. لم يسبق لي أن اختبرت هذا الشعور العميق بالكآبة التي اجتاحتني وأنا أشق طريقي التيس عائداً إلى مسكني. وعلى الرغم من أن الأمل بدا مستحيلًا، فلم أتخلَّ عن تصميمي على الفوز بها. إذا كانت الثروة والسلطة هي ثمن الفوز بها، ربما يمكنني تحقيقهما. على أن كيفية تحقيقهما لم تكن واضحة تمامًا؛ لكنني شاب، وكل شيء ممكن بالنسبة إلى الشباب.

ألقيت نفسي فوق حريز وفراء النوم لبعض الوقت وبقيت مستيقظًا، وفجأة اقتحم ضابط من الحرس مسكني.

وصاح: «هادرين! هل أنت هنا؟».

أجبت: «نعم».

قال بصوت عالٍ: «حمدًا لرماد أجدادي! خشيت ألا أجذك».

سألته: «لماذا لا تجدني؟ ما كل هذا؟».

صاح: «تور هاتان، حقيبة الكنز القديم السمينة، لقد جُن».

«هاتان جُن؟ ماذا تعني؟ وما علاقتي بذلك؟».

«إنه يُقسم أنك اختطفْتَ ابنته».

نهضت في لحظة واقفاً على قدميَّ صائحاً: «اختطفْتَ سانوما توراً!
هل حدث لها شيء؟ أخبرني، بسرعة».

قال: «نعم، حسناً، لقد اختفت، والموضوع يحيط به غموض
شديد».

لم أنتظر لسماع المزيد. ارتديت عتادي على عجلة، وقمت بضبطه
وأنا أركض إلى أعلى المدرج الحلزوني في اتجاه الحظائر على سطح
الثكنات. ليس لديَّ سلطة أو تصريح لإخراج طائرة، ولكن ما أهمية
ذلك إذا كانت سانوما توراً في خطر؟

حاول حراس حظيرة احتجازي واستجوابي. لا أذكر ماذا قلت لهم؛
أعرف أنني كذبت بالتأكيد، لأنهم سمحوا لي باستخدام طائرة سريعة
لفرد واحد، وبعد لحظة كنت أسرع خلال الليل نحو قصر تور هاتان.

يبعد القصر عن الثكنات بمسافة تزيد قليلاً على ٢ هاد^(٢٧)،
ووصلت إليه في لحظات. وعندما هبطت في الحديقة، التي وجدتها
مضاعة ببراعة، رأيت عدداً من الأشخاص المحتشدين، من بينهم تور

(٢٧) الهاد: هو الميل في بر سوم - http://barsoom.wikia.com/wiki/Linear_Measurement
- المترجمة.

هاتان وسيل فاجيس.

وما إن قفزت من سطح الطائرة، حتى توجه نحوي تور هاتان غاضبًا، وصاح: «ماذا لديك لتقوله؟ أين ابنتي؟».

أجبت: «هذا ما جئت أسأل عنه، تور هاتان».

صاح: «أنت المسؤول، أنت اختطفتها. لقد أخبرت سيل فاجيس أنك طلبت يدها الليلة، وأنها رفضتك».

قلت: «طلبت يدها فعلاً، ورفضتني. هذا الجزء صحيح. ولكن، إذا كانت مخطوفة، فباسم جدك الأول لا تضع الوقت في محاولة ربطتي بهذه المؤامرة الشيطانية. لا علاقة لي بالأمر. كيف حدث ذلك؟ ومن كان معها؟».

أجاب تور هاتان: «سيل فاجيس كان معها. كانا يسيران في الحديقة».

وجهت سؤالي إلى سيل فاجيس: «رأيتها تُختطف، وأنت هنا معافى وعلى قيد الحياة؟».

بدأ سيل فاجيس يقول بتأتأة: «كانوا كثيرين، وتغلبوا عليّ».

«هل رأيتهم؟»، سأله.

«نعم».

سأله: «وهل كنت أنا من بينهم؟».

«كان الظلام حالكاً. لم أتمكن من التعرف على أي منهم، وربما كانوا متنكرين».

سألته: «هل تغلبوا عليك؟».

قال: «نعم».

قلت صائحًا: «أنت تكذب! لو وضعوا أيديهم عليك لكانوا قتلوك. لكنك هربت واختبأت، ولم ترفع سلاحًا أبدًا للدفاع عن الفتاة». صرخ سيل فاجيس: «هذا كذب. لقد قاتلتهم، إلا أنهم تغلبوا عليّ».

استدرت نحو تور هاتان وقلت له: «إننا نضيع الوقت. هل يوجد أي شخص يمكن أن يعطينا فكرة عن هوية هؤلاء الرجال، والاتجاه الذي اتخذوه؟ وكيف ومن أين جاءوا؟ وكيف وإلى أين غادروا؟».

قال سيل فاجيس: «إنه يحاول إبعادك عن المسار، تور هاتان. من يمكن أن يفعلها سوى خاطب مستاء؟ ماذا تقول إذا أخبرتك أن معدن الرجال الذين سرقوا سانوما توراً هو معدن محاربي هاستور؟».

أجبت: «أقول إنك كاذب. فإذا كان الظلام قد حال دون تعرفك على الوجوه، كيف يمكنك تحديد الشارات على عتادهم؟».

وفي هذه اللحظة انضم إلينا ضابط آخر من الأوماك الحادي والتسعين. قال: «لقد وجدنا شخصًا ربما يُلقب بعض الضوء على هذا الموضوع، إذا ظل حيًا لفترة تكفي لأن يتحدث».

كان الرجال يبحثون في أراضي تور هاتان، وفي ذلك الجزء من المدينة المجاور لقصره. واقترب الآن عدة رجال يحملون رجلًا، ووضعوه على العشب أمام أقدامنا. كان جسده المكسور والمشوه عاريًا

تمامًا، وهو يرقد لاهثًا بضعف في مشهد يُرثى له.

عاد عبد، كان مُرسلاً إلى القصر، ومعه عقاقير مُنشطة. وعند إجبار الرجل على وضع بعضها بين شفتيه، انتعش قليلاً. وسأله تور هاتور: «مَن أنت؟».

أجاب الرجل بضعف: «أنا محارب من حرس المدينة».

اقترب ضابط متهللاً من تور هاتان، وقال: «عثر رجالي الآن على ست جثث أخرى بالقرب من الموقع الذي اكتشفنا فيه هذا الرجل. جميعهم عرايا ومصابون بكسور وتشوهات مماثلة».

قال تور هاتان: «ربما لا يزال علينا أن نصل إلى أساس هذا الموضوع»، ثم تحول ثانية نحو الشيء المسكين المكسور المُلقى فوق المرج القرمزي، وأمره أن يواصل روايته.

«كنا في دورية ليلية في المدينة عندما شاهدنا طائرة تحلق دون أضواء. اقتربنا منها، ووجهنا الكشافات نحوها، وتمكنت من اقتناص لمحة قصيرة واحدة. لم تكن تحمل أي ألوان أو شارة تدل على هويتها، ويختلف تصميمها عن تصميم أي سفينة فضائية أخرى شاهدتها من قبل. فهي تحتوي على مقصورة طويلة مغلقة ومنخفضة، ويوجد على جانبيها مدفعان غريان. هذا كل ما أتاح لي الوقت ملاحظته، إلا أنني رأيت رجلًا يتولى توجيه أحد المدفعين نحونا. وعلى الفور، أصدر البادوار قائد سفينتنا أوامره بإطلاق النار على هذه الطائرة الغريبة، وفي الوقت نفسه قدم له التحية. وفي تلك اللحظة ذابت سفينتنا في الهواء؛

حتى عتادي سقط مني. أتذكر السقوط، هذا كل شيء»، وبهذه الكلمات لهث الرجل مرة واحدة ثم مات.

استدعى تور هاتان الناس حوله، وقال: «من المؤكد أن شخصًا ما كان بالقرب من القصر أو الحديقة ورأى شيئًا من هذا. وأوامري هي أن أي شخص، مهما كان، لديه أي قدر من المعرفة عن هذه المسألة، أن يتكلم». تقدم عبد، ومع اقترابه نظر إليه تور هاتان بغطرسة متعجرفة. سأله الأودوار: «حسنًا، ماذا لديك؟ تكلم!».

أجاب العبد وهو يلقي نظرة سريعة نحو سيل فاجيس: «لم أكن لأتحدث تور هاتان، لكنك أصدرت أوامرك، لأنني عندما أقول ما رأيته سأتكبد عداوة نبيل قوي».

قلت بسرعة: «وإذا قلت الحقيقة يا رجل، ستكون فزت بصدقة بادوار سيفه ليس وضيعًا، بل سيحميك حتى من نبيل قوي» - وكنت أنظر أيضًا ناحية سيل فاجيس؛ لأنني تصورت أن ما سيقوله العبد قد لا يُسعد الغندور المتأنق الذي يتنكر تحت لقب محارب.

قال تور هاتور أمرًا بصبر نافذ: «تكلم! دون أن تكذب».

أجاب الرجل: «أنا أخدم في قصرِك بكل إخلاص منذ أربعة عشر عامًا، تور هاتان. وطوال وجودي هنا منذ أن أحضروني إلى هيليوم كأسير حرب بعد سقوط ونهب كوبول^(٢٨)، حيث كنت الحارس الشخصي

(٢٨) كوبول: مدينة تقع في نصف الكرة الجنوبي من المريخ - <https://barsoom.fandom.com/> - wiki/Kobol - المترجمة.

لجد كوبول، لم يكن لديك أي سبب للتشكك في مصداقيتي. سانوما تورا تثق بي، ولو كان معي سيف الليلة لكنت لا تزال معنا».

صاح تور هاتان: «هيا! هيا! قل ما لديك مباشرة. ماذا رأيت؟».

أسرع سيل فاجيس قائلاً: «الزميل لم يشهد أي شيء، لماذا نضيع وقتنا معه؟ إنه يسعى فحسب إلى المجد من خلال قصة موجزة شائنة».

قلت صائحاً: «دعوه يتكلم».

تحدث العبد موضعاً: «ما إن صعدت السلم الحلزوني الأول إلى المستوى الثاني من القصر، في طريقي إلى مكان نوم تور هاتان لترتيب الحرير والفراء لنومه ليلاً كما هي عادتي، حتى توقفت للحظة ونظرت إلى الحديقة، حيث رأيت سانوما تورا وسيل فاجيس يسيران تحت ضوء القمر. وإدراكاً مني بأنني لا ينبغي أن أراقبهما، كنت على وشك مواصلة طريقي لأداء واجباتي عندما رأيت طائرة تهبط بصمت في الليل في اتجاه الحديقة. لم يصدر عن محركاتها أي صوت، ولم يظهر منها أي ضوء. بدت سفينة شبحية ذات تصميم غريب، حتى أنها كانت لتلفت انتباهي إن لم يكن هناك أي سبب آخر، بينما كانت هناك أسباب أخرى. لا تتحرك السفن غير المضئية خلال الليل لأي أغراض جيدة، ولذا توقفت لمشاهدتها».

«هبطت بصمت وسرعة خلف سانوما تورا وسيل فاجيس، اللذين لم يعرفا بوجودها إلى أن جذبت انتباههم قعقة طفيفة من تجهيزات أحد المحاربين العديدين الذين انطلقوا من مقصورتها المنخفضة بعد أن هبطت. وعندئذ استدار سيل فاجيس، وتسمر في مكانه. قفز

المحاربون الغرباء نحوه، فولى هاربًا ليختفي بين شجيرات الحديقة».

صاح سيل فاجيس: «هذا كذب».

قلت بلهجة آمرة: «صمتًا، أيها الجبان!».

قال تور هاتان: «واصل كلامك يا عبد!».

«لم تعرف سانوما تورًا بوجود محاربين غرباء إلى أمسكها أحدهم بخشونة من الخلف. حدث كل شيء بسرعة، حتى أنني بالكاد ما كان لديّ الوقت لإدراك غرض الزيارة المشؤومة قبل أن يضعوا أيديهم عليها. وبمجرد أن استوعبت أن سيدتي هي هدف هذا الهجوم الليلي، هرعت مسرعًا أسفل السلم الحلزوني، إلا أنهم سحبوها إلى متن الطائرة قبل أن أصل إلى الحديقة. ولو كان معي سيف حينذاك، لكنت لقيت حتفي على الأقل في خدمة سانوما تورًا؛ فقد وصلت إلى السفينة الغامضة عندما كان آخر محاربيها يصعد على متنها. وقد تمكنت من الإمساك به من عتاده وحاولت سحبه على الأرض، وصرخت في الوقت نفسه بصوت عالٍ للفت انتباه حرس القصر، لكن أحد المحاربين من زملائه على سطح السفينة وجه ضربة شرسة نحو رأسي بسيفه الطويل. أصابني نصل سيفه وكانت ضربة كافية لصعقي للحظة، إلى حد تخفيف قبضتي على المحارب الغريب، ووقعت على المرج. وعندما استعدت الوعي، كانت السفينة قد ذهبت، وكان حرس القصر يتدفقون متأخرين من غرفهم. لقد تحدثت وتكلمت بصدق».

توجهت نظرة تور هاتان الباردة نحو عيني سيل فاجيس المنخفضة، وسأله: «ماذا تقول عن هذا الكلام؟».

هتف سيل فاجيس: «هذا الزميل يعمل لدى هادرون الهاستوري. وما قاله ليس سوى كذب. أنا هاجمتهم عندما أتوا، لكن عددهم كان كبيراً وتغلبوا عليّ. وهذا الزميل لم يكن موجوداً».

قلت للعبد: «دعني أرى رأسك»، وعندما اقترب وركع أمامي رأيت علامة حمراء كبيرة على طول أحد جانبي رأسه فوق الأذن، تماثل تمامًا أثر الضربة التي يحدثها الجانب المسطح من سيف طويل. «هنا»، قلت لهاتان تور وأنا أشير إلى أثر الضربة الكبيرة، «إثبات ولاء العبد وشجاعته. دعونا نفحص الجروح التي أصيب بها نبيل هيليوم، الذين قال في شهادته إنه اشتبك بمفرده في قتال ضد عدد كبير من الأعداء. ففي مثل هذا الاشتباك، لا بد وأنه أصيب بخدش على الأقل».

قال دوار حرس القصر، بسخرية مغلفة: «إلا لو كان مبارزاً رائعاً مثل جون كارتر العظيم نفسه».

صاح سيل فاجيس: «هذه مؤامرة. هل تثق في كلمة عبد، يا تور هاتان، ضد كلمة نبيل من هيليوم؟».

أجاب الأدوار: «أنا أستند إلى شهادة عينيّ وحواسي»، ثم أدار ظهره إلى سيل فاجيس ليوجه كلامه إلى العبد مرة أخرى. وسأله: «هل تعرفت على أي من الرجال الذين اختطفوا سانوما تورا، أو لاحظت عتادهم أو معادنهم؟».

«لم أتمكن من رؤية وجه أي منهم بشكل جيد، لكنني رأيت عتاد ومعادن المحارب الذي حاولت جره من الطائرة».

سأل تور هاتان: «هل كانت معادن هاستور؟».

أجاب العبد بشكل قاطع: «باسم سلفي الأولى، لم تكن. كما لم تكن من معادن أي مدينة أخرى في إمبراطورية هيليوم. التصميم والشارات ليست معروفة بالنسبة لي، على أنها تتسم بألفة معينة تثير حيرتي. أشعر أنني رأيتهم من قبل، لكنني لا أتذكر متى وأين. عندما كنت في خدمة جد مدينتي، حاربت غزاة من أراضٍ كثيرة، وربما رأيت معادن مماثلة منذ سنوات عديدة خلال تلك المعارك».

توجهت بسؤال إلى تور هاتان: «هل ترضيك شهادته، تور هاتان، كي تعتبر أن تشهير سيل فاجيس ضدي كان بلا أساس؟».

أجاب الأودوار: «نعم، هادرون الهاستوري».

فقلت «عندئذٍ، وبعد إذنك، سوف أرحل».

سألني: «إلى أين؟».

أجبت: «للبحث عن سانوما تورا».

فقال: «وإذا وجدتها وأعدتها لي سالمة، ستكون لك».

لم أعرب عن امتناني لعرضه السخي إلا بالانحناء؛ إذ كان في ذهني أن سانوما تورا قد يكون لديها ما تقوله في هذا الشأن؛ وحتى بعض النظر عن ذلك، لم أتمنَّ زواجًا يتحقق بهذه الطريقة.

قفزت إلى سطح السفينة التي جلبتني، ثم ارتفعت خلال الليل مسرعًا في اتجاه القصر الرخامي لأمير الحرب في برسوم؛ فحتى مع تأخر الوقت ليلاً، كنت مصممًا على رؤيته دون ضياع أي لحظة دون جدوى.

الفصل (٢)

سقوط الطائرة

اقتربت من قصر أمير الحرب، ورأيت مظاهر نشاط غير عادي في مثل هذه الساعة من الليل. طائرات تصل وأخرى ترحل؛ وعندما استقرت طائرتي فوق ذلك الجزء من السطح المخصص للسفن الحربية، رأيت طائرات عدد من كبار ضباط أركان الحرب.

ونظرًا لزياراتي المتكررة إلى القصر، وكوني معروفًا لدى جميع ضباط حرس أمير الحرب الشخصيين، لم أجد صعوبة في دخول القصر، وأنا الآن أجلس منتظرًا في القاعة، وأمامي مباشرة المقصورة الصغيرة التي اعتاد أمير الحرب أن يُجري فيها مقابلات قصيرة خاصة. أعلن عبد عن وجودي لسيدته.

لا أعرف كم من الوقت انتظرت. ورغم أنها لم تكن فترة طويلة، فقد بدت دهرًا؛ لأن الفكرة التي كان تستحوذ على ذهني هي أن المرأة التي أحببتها ربما في خطر شديد. تملكني اقتناع، ربما مثير للسخرية وإن كان حقيقيًا، أنني وحدي يمكنني إنقاذها، وأن كل لحظة تأخير تُقلص من فرص النجاح قبل فوات الأوان.

وأخيرًا دُعيت إلى الدخول. وعندما وقفت في حضرة أمير الحرب العظيم، وجدته مُحاطًا برجال من عِلية القوم في مجالس هيلوم.

دخل جون كارتر في الموضوع مباشرة: «أعتقد أن ما جاء بك هنا هذه الليلة، هادرون الهاستوري، يتعلق بمسألة اختطاف ابنه تور هاتان. هل لك أي معرفة أو أي نظرية قد تُلقي الضوء على هذا الموضوع؟».

أجبت: «كلا. لقد جئت فقط لأستأذنك في المغادرة على الفور، في محاولة لتتبع درب خاطفي سانوما تورا».

سألني: «أين تنوي البحث؟».

أجبت: «لا أعرف بعد، سيدي، لكنني سوف أجدها».

ابتسم قائلاً: «إن هذا التأكيد يشكل أساسًا على الأقل؛ ولمعرفتي دوافعه، فإني أمتحك الإذن الذي تريده. ففي حين يُمثل اختطاف ابنة هيلوم في حد ذاته خطرًا كافيًا لتبرير استخدام جميع الموارد للقبض على مختطفها وإعادتها إلى بيتها، ينطوي هذا الحدث أيضًا على عنصر قد يُنذر بخطر كبير على الإمبراطورية. وكما تعلم، دون شك، أن السفينة الغامضة التي اختطفتها كانت تحمل على متنها مدفعًا انطلقت منه قوة أدت إلى تفكيك كامل لجميع الأجزاء المعدنية لطائرة الدورية التي سعت إلى اعتراضها واستجوابها. ونتج عنها حتى تبدد الأسلحة والأجزاء المعدنية لعتاد أفراد الطاقم إلى لا شيء؛ وهو ما لُوْظ بسهولة عند فحص حطام طائرة الدورية وجثث طاقمها. كل شيء ينتمي إلى المملكة الحيوانية أو النباتية كان على متن الطائرة - الخشب، والجلود، واللحم - وجدناه متناثرًا على الأرض في موقع سقوطها، دون أن نعرثر على أي أثر لبقايا مادة معدنية».

«أقول لك ذلك لأنه يطرح في ذهني فكرة محتملة عن الموقع العام لمدينة هؤلاء الأعداء الجدد لهيليوم. وأنا مقتنع أن هذه ليست سوى الضربة الأولى، لأن أي بحرية مسلحة بهذه المدافع يمكنها بسهولة أن تضع هيليوم تحت رحمتها، وقليلة هي في الواقع مدن برسوم خارج الإمبراطورية التي لن تغتنم فرصة امتلاك أي أداة قد تتيح لها سلب مدينتي هيليوم التوأم».

«منذ فترة ويساورنا قلق بالغ من تزايد عدد السفن أسطولنا البحري المفقودة. كانت تلك السفن، في جميع الحالات تقريباً، تتولى رسم خريطة تيارات الهواء وتسجيل الضغط الجوي في أجزاء برسوم المختلفة البعيدة عن الإمبراطورية، واتضح مؤخراً أن الغالبية العظمى من هذه السفن التي لم ترجع أبداً كانت تلك التي أبحرت في الجزء الجنوبي من نصف الكرة الغربي، وهو جزء غير مضياف من كوكبنا، ولا نعرف عنه للأسف إلا القليل؛ نظراً لأننا لم نُنمَّ التجارة مع السكان غير الودودين الذين يعيشون في هذه المنطقة الشاسعة».

«هذا ليس سوى اقتراح، هادرون الهاستوري؛ مجرد قرائن شديدة الغموض، لكنني أقدمها لك لقيمتها. وسوف نرسل ما بين الآن وحتى ظهر الغد ألف طائرة استطلاع تسع كل منها راكباً واحداً، بحثاً عن مختطفي سانوما تورا؛ كما لن يقتصر الأمر على ذلك. سوف تجوب السفن الحربية الهواء أيضاً، إذ يجب أن نعرف هيليوم ما المدينة أو الأمة التي تمكنت من تطوير سلاح تدميري مثل ذلك الذي استُخدم الليلة فوق هيليوم».

«واعتقادي أن هذا السلاح هو اختراع حديث جداً؛ وأياً ما كانت السلطة التي تمتلكه، فلا بد أنها بذلت أقصى جهد ممكن لإتقانه وإنتاجه بكميات تجعلهم أسياد العالم. لقد تحدثت. اذهب، وليكن الحظ حليفك».

يمكنك أن تتيقن أنني لم أضع أي وقت على الإطلاق للشروع في مهمتي الآن، بعد أن منحني جون كارتر التصريح. توجهت إلى مسكني وأسعرت في تجهيزات المغادرة التي ضمت أساساً اختيار الأسلحة بدقة، واختيار عتاد بسيط التصميم وجلود أثقل وأكثر تحملاً بدلاً من العتاد المزخرف الذي كنت أرثديه. عتادي القتالي هو دائماً أفضل وأبسط ما يمكن إبتباعه، ويصنعه لي صانع عتاد شهير من هيلوم الصغرى. أما مجموعة أسلحتي، فكانت قياسية؛ تتكون من سيف طويل، وسيف قصير، وخنجر، ومسدس. كما سلحت نفسي بذخيرة إضافية، وتزودت بالحصص الغذائية المركزة التي يستخدمها مقاتلو المريخ جميعاً.

وبعد أن انتهيت من تجميع هذه الضروريات البسيطة، التي تُشكل مع فراء واحد للنوم ومُعداتي، بدأ ذهني يعمل في التفسيرات المختلفة لاختفاء سانوما تورا. بحثت في ذهني عن أدنى ذاكرة قد تشير إلى تفسير، أو نقطة في اتجاه الهوية المحتملة لخاطفيها. وعندئذ تذكرت إشارتها إلى الجيداك تول أكستار من جاهار، لكن ذاكرتي لم تضم أي واقعة أخرى قد تشير إلى مفتاح اللغز. تذكرت بوضوح مبعوث تول أكستار الذي زار بلاط هيلوم منذ فترة ليست طويلة. وقد سمعته يفخر

بشروات وسلطة جيداك بلده وجمال نسائه. ربما، إذن، يجدر البحث أيضًا في اتجاه جاهار مثلها مثل أي مكان آخر. لكنني عقدت العزم، قبل مغادرتي، على زيارة قصر تور هاتان ثانية وسؤال العبد الذي كان آخر من رأى سانوما تورا.

وعندما أوشكت على الانطلاق، تبادرت إلى ذهني فكرة أخرى. كنت أعرف أنني قد أجد في معبد المعرفة رسومًا توضيحية أو نماذج طبق الأصل لمعادن وعتاد كل أمة في برسوم، والتي لم تكن معروفة بأي حال في هيليوم. ولذلك توجهت على الفور إلى المعبد، وتمكنت بمساعدة أحد العاملين فيه من العثور على رسم لعتاد ومعادن محارب من جاهار. وحصلت، من خلال عملية استنساخ ضوئي بارعة، على نسخة من هذا الرسم التوضيحي في بضع ثوانٍ. أخذته وأسهرت إلى قصر تور هاتان.

لم أجد الأودوار، فقد ذهب إلى قصر أمير الحرب. لكن كبير الخدم بالقصر استدعى العبد كال تافان، الذي شهد اختطاف سانوما تورا واشتبك مع أحد مختطفها.

نظرت إلى الرجل مليًا وهو يقترب. كان يتمتع ببنية قوية، وملامح واضحة، ومظهره ينم بالتأكيد عن مقاتل.

سألته: «قلت إنك من كوبول، أليس كذلك؟».

أجاب: «لقد وُلدت في تجانات. وكانت لي زوجة وابنة هناك. سقطت زوجتي على يد قاتل، واختفت ابنتي عندما كانت صغيرة جدًا. لا أعرف ماذا حدث لها. تذكرني المشاهد المألوفة في تجانات بأسعد

الأيام، وبالتالي كانت تزيد حزني، ولذا لم أستطع البقاء. تحولت إلى بانثان^(٢٩) وسعيت إلى العمل في مدن أخرى، وهكذا خدمت في كوبول». سألته: «وهناك، هل تعرفت على عتاد ومعادن العديد من المدن والأمم؟».

أجاب: «نعم».

سألته: «وهل تعرف هذا العتاد وتلك المعادن؟»، وأعطيته نسخة من الرسم التوضيحي الذي أحضرته من معبد المعرفة. فحصها لفترة وجيزة، وأضاءت عيناه عندما تعرف عليها. قال: «إنها هي نفسها. إنها متطابقة». سألته: «متطابقة مع ماذا؟».

أجاب: «مع العتاد الذي كان يرتديه المحارب الذي اشتبكت معه عند اختطاف سانوما تورا».

قلت: «تحددت إذن هوية خاطفي سانوما تورا»، ثم التفت إلى كبير الخدم قائلاً: ابعث برسول على الفور إلى أمير الحرب ليبلغه بأن ابنة تور هاتان سرقها رجال من جاهار، وأنني أعتقد أن تول أكستار، جيداك جاهار، هو من أرسلهم. استدرت دون أن أقل كلمة أخرى، وغادرت القصر متجهًا مباشرة إلى طائرتي.

ارتفعت فوق أبراج وقباب هيليوم الكبرى ومنصات هبوطها

(٢٩) بانثان: هو جندي مريخي مرتزق، ينتقل من مكان لآخر ويقاقل لصالح من يرغب في شراء خدماته
- المترجمة - <http://barsoom.wikia.com/wiki/Panthan>

الشامخة، وأدّرت مقدمة طائرتي نحو الغرب مع زيادة سرعتها، وانطلقت عبر الهواء الرقيق الذي يحيط بكوكب المريخ الآخذ في الاحتضار، في اتجاه ذلك الامتداد الهائل المجهول في الجنوب الغربي البعيد لنصف كرة الكوكب، في مكان ما داخل المناطق الشاسعة حيث تقع جاهاار؛ حيث أصبحت مقتنعة الآن أنهم حملوا سانوما تورا إليها، لا لتصبح جدارة لتول أكستار، وإنما عبدة له؛ لأن الجيداك في برسوم لا يتخذ المرأة جدارة بالقوة.

واعتقد أنني فهمت تفسير اختطاف سانوما تورا، وهو التفسير الذي كان يمكن أن يسبب لها غضباً شديداً لأنه أبعد ما يكون عن أي إطراء لها. واعتقد أن مبعوث تول أكستار أبلغ سيده سحر ابنة تور هاتان وجمالها، إلا أنها لا تنحدر من أسرة نبيلة تجعلها جديرة بأن تصبح جدارة، ولذا استخدم الوسيلة الوحيدة التي تتيح له امتلاكها. شعرت بالدماء تغلي في عروقي بناء على هذا التفسير، رغم أن تقديري للأمور كان يشير دون شك إلى صحته.

خلال السنوات القليلة الماضية -يجدر بي القول خلال السنوات العشر أو العشرين الأخيرة- اتخذ النهوض بالملاحة الجوية خطوات أكبر مما تحقق خلال الخمسمائة سنة السابقة.

وترى العديد من السلطات أن إتقان بوصلة التحكم في الاتجاه، الذي أدخله كارثوريس^(٣٠) الهيليومي، يُعد إيداناً ببداية عهد جديد

(٣٠) كارثوريس: هو ابن جون كارتر وديجاه ثوريس، الشقيق الأكبر لتارا. وهو أمير هيليوم. واسمه مزيج من كارتر وثوريس - <https://barsoom.fandom.com/wiki/Carthoris> - المترجمة.

من الاختراعات. لقد استمر ركودنا لقرون في بركة هادئة من الاكتفاء الذاتي، كما لو أننا بلغنا ذروة الكمال التي لم يُعد مُجددًا بعدها السعي لإدخال تحسينات على ما اعتبرناه أعلى إنجازات علمية ممكنة.

لقد أيقظنا كارثوريس الهيليومي، الذي ورث عن أبيه القادم من كوكب الأرض عقلاً لا يهدأ ولا يكف عن التساؤل. وهنا قبلت أفضل العقول لدينا التحدي، وأسفرت النتيجة عن تحسُّن سريع في تصميم وبناء جميع أنواع السفن الجوية، مما أدى إلى ثورة في بنية المُحركات.

كنا نعتقد أن محركات الراديوم القوية الخفيفة المُدمجة الموجودة لدينا لا يمكن تحسينها أبداً، وأن الإنسان لا يمكنه أبداً السفر، سواء بأمان أو بصورة اقتصادية، بسرعة أكبر مما تحققه لنا طائراتنا الاستطلاعية التي تسع كل منها رجل واحد -أي حوالي ألف ومائة هاد كل زود^(٣١)- بينما أعلن بادوار غير معروف في سلاح بحرية هيليوم أنه تمكن من إتقان محرك يصل وزنه إلى نصف وزن محركاتنا الحالية ويزيد السرعة بمقدار الضعف.

وهذا هو نوع المُحرك في طائرتي الاستطلاعية -محرك يبدو بلا وقود، حيث يستمد طاقته غير المرئية والتي يصعب تقديرها بدقة من المجال المغناطيسي اللامتناهي وغير القابل للنضوب لكوننا.

يتمتع المحرك الجديد ببعض السمات الأساسية التي لا يعرفها

(٣١) حوالي ١٦٦ ميلاً في الساعة بمقاييس كوكب الأرض. [وقد ورد في قصة «آلهة المريخ» أن يوم المريخ يزيد بمقدار ضئيل على ٢٤ ساعة و٣٧ دقيقة (بتوقيت كوكب الأرض). ويقسمه المريخيون إلى عشرة أجزاء متساوية تُسمَّى زود (أي أن دورة المريخ حول محوره تساوي ١٠ زود) - المترجمة].

بالكامل سوى المخترع وحكومة هيليوم، ويحرصون على سريتها
أشد الحرص. يتكون عمود المروحة، الذي يمتد داخل هيكل الطائرة،
من عدة قطاعات جانبية معزولة عن بعضها البعض. وتوجد حول هذا
العمود، وتدعمه خلال مركز مروره، سلسلة من المحامل تشبه مولدات
الكهرباء الصغيرة.

وترتبط هذه المحامل في سلسلة بجهاز يُسمَّى المُراكم، يجري
من خلاله توجيه طاقة المريح المغناطيسية نحو مولدات خاصة تحيط
بعمود المروحة.

ويجري التحكم في السرعة عن طريق زيادة أو تقليل عدد محامل
المولدات في سلسلة مع المُراكم - ويتحقق ذلك كله ببساطة بواسطة
رافعة يحركها الطيار من موقعه على سطح السفينة، حيث يرقد عادة
على بطنه، مع ربط حزام الأمان بالحلقات الثقيلة على سطح السفينة.

ويؤكد المخترع أن حد السرعة لا يعتمد إلا على نسبة القوة إلى
الوزن في بنية هيكل السفينة. تصل سرعة طائرتي الاستطلاع بسهولة
إلى ألفين هاد كل زود^(٣٢)، ولا يمكنها الصمود أمام الضغط الهائل
من مُحرك أكثر قوة، على الرغم من أنه كان يسهل زيادة كل من القوة
والسرعة بوسيلة بسيطة تتمثل في وجود عمود مروحة أطول يحمل
عددًا إضافيًا من محامل المولدات.

عند تجربة المحرك الجديد في هاستور في العام الماضي، جرت

(٣٢) حوالي ثلاثة آلاف ميل في الساعة.

محاولة لقيادة طائرة استطلاعية بسرعة استثنائية تبلغ ٣٣٠٠ هاد في الزود^(٣٣)، ولكن قبل أن تبلغ السفينة سرعة ٣٠٠٠ هاد في الزود، تمزقت إلى أشلاء بفعل محركها. ونحن نحاول الآن الوصول إلى قوة أكبر مع الحد الأدنى للوزن. ومع نجاح مهندسينا سنرى زيادة في السرعة، أنا متأكد أنها ستبلغ بسهولة ٧٠٠٠ هاد في الزود؛^(٣٤) إذ يبدو أنه لا توجد حدود لقوة هذه المحركات الرائعة.

هناك ابتكار آخر أقل إثارة للإعجاب بقليل وهو بوصلة التحكم في الاتجاه التي ابتكرها كارثوريس الهيليومي. ضع المؤشر على أي بقعة في أي من نصفي الكرة. افتح صمام الوقود، ثم استلق ويمكنك النوم إن أردت. وسوف تنقلك سفيتتك إلى وجهتك، وتهبط إلى مسافة تبعد عن الأرض مائة ياردة أو نحو ذلك ثم تتوقف، بينما توقظك أداة تنبيه. إن هذا الابتكار هو جهاز بسيط للغاية بالفعل، لكنني أعتقد أن جون كارتر قد وصفه بالكامل في إحدى مخطوطاته العديدة.

على أن بوصلة التحكم لم تفدني كثيرًا في المغامرة التي شرعت فيها، ذلك أنني لم أكن أعرف موقع جاهر الدقيق. مع ذلك، وضعت المؤشر تقريبًا عند نقطة تقع ثلاثين درجة جنوب خط العرض، وخمسة وثلاثين درجة شرق خط الطول؛ لاعتقادي أن جاهر تقع في مكان ما جنوب غرب تلك النقطة.

(٣٣) حوالي ٥٠٠ ميل في الساعة؛ حيث يعادل الهاد حوالي ١٩٤٩,٠٥٩٢ قدم بمقاييس كوكب الأرض، ويعادل الزود حوالي ٤٦٢,٢ ساعة بزمّن كوكب الأرض.
(٣٤) ما يزيد على الألف ميل في الساعة.

طرت بسرعة عالية بحيث تركت خلفي المناطق المزروعة بالقرب من هيليوم منذ فترة طويلة، وحلقت فوق أراض قفر مهجورة من الطحالب الصفراء التي تكسو قيعان البحر الميت، حيث كان يتدفق عليها ذات يوم محيط قوي يحتضن النقل البحري لشعب سعيد ومزدهر، لكنه الآن ليس سوى ذاكرة نصف منسية في أساطير برسوم.

عند حواف الهضاب التي كانت تُميز في يوم ما الخط الساحلي لقارة نبيلة، طرت فوق الآثار الوحيدة الباقية من ذلك الازدهار القديم، المدن الحزينة المهجورة في برسوم القديمة. حتى في أنقاضها هناك عظمة وروعة لا تزال قادرة على ترويع الإنسان الحديث. وهناك، في أسفل، في اتجاه أدنى قيعان البحر، توجد أنقاض تشير إلى المسار المأساوي الذي اتبعته تلك الحضارة القديمة في سعيها وراء انحسار مياه المحيط، حيث استسلمت في النهاية آخر مدينة، محرومة من التجارة، ومجردة من القوة، لتسقط ضحية سهلة أمام جحافل قبائل الخُضر الشرسة المُغيرة، الذين أحفادهم الآن هم الحكام الوحيدون لكثير من قيعان هذه البحار المهجورة. إنهم يكرهون ومكروهون، ولا يعرفون الحب أو الضحك أو السعادة، ويعيشون حياتهم الطويلة الشرسة في شجار في ما بينهم وبين جيرانهم، ويفترسون أي مُغامرين يعبرون مصادفة حدود منطقتهم المريرة المقفرة.

وهم بمثل شراسة وفظاعة جميع الرجال الخُضر، على أن عددًا قليلًا منهم، مثل جحافل التوركواسيين^(٣٥) الخُضر، أدت طبيعتهم

(٣٥) توركواس: كانت قديمًا إحدى المدن القوية على المريخ، وأصبحت الآن مجرد إحدى المدن الميتة - <http://barsoom.wikia.com/wiki/Torquas> - المترجمة.

القاسية ومآثرهم الدموية إلى ترويع عقول الرجال الحُمر.

كانت مدينة توركواس، التي يستمدون اسمهم منها، إحدى أكثر مدن برسوم القديمة روعة وقوة. وعلى الرغم من أن الجميع هجرها لعصور، ما عدا قبائل الخُضر المتجولة، فهي لا تزال قائمة على أي خريطة. ونظرًا لأنها تقع مباشرة على مسار بحثي عن جواهر، ولم أرها من قبل، فقد تعمدت تحديد مساري بحيث أطيّر فوقها. وعندما رأيت أمامي على بُعد أبراجها الشاهقة وأسوارها، شعرت بالتشويق والإثارة وإغراء المغامرة الذي تمارسه الأمثال المتعلقة بهذه المدن الميتة من برسوم علينا نحن الرجال الحُمر.

مع اقترابي من المدينة، قلصت سرعتي وانخفضت على نحو يتيح لي الحصول على رؤية أفضل للمدينة. لا بد أنها كانت مدينة جميلة في زمنها! وحتى اليوم، بعد كل العصور التي مرت منذ كانت طرقها الواسعة تتدفق بحياة جمهور سعيد ومزدهر، لا تزال القصور العظيمة تقف بكل روعة مجدها؛ صحيح أن الزمن وعناصر الطبيعة قد أثرت فيها، لكنها لم تدمرها بعد.

وعند دوراني مُحلّقًا بانخفاض فوق المدينة، رأيت أميالًا من الطرق التي لم تسر عليها قدم إنسان لعدد لا يُعد ولا يُحصى من العصور. اكتست أحجار الرصيف الواهنة بالطحلب الأصفر، مع تناثر شجرة ضعيفة أو شجيرة بشعة من تلك الأصناف التي تجد قوتها بشكل ما في الأراضي القفر القاحلة. نظرت إلى ساحات صامتة مهجورة، كانت حدائق رائعة في يوم ما آخر أكثر سعادة. سقط سقف مبنى هنا وهناك،

وإن بقي الجزء الأكبر منه سليماً، يحلم دون شك بالثروة والجمال اللتين عرفهما في أيام ماضية. واستطاع خيالي أن يرى حرير وفراء النوم ينتشر رائحاً في ضوء الشمس، في حين تتكاسل النساء تحت أقمشة المظلات الحريرية، وتتألق جواهرهن مع كل حركة لأجسادهن. ورأيت في خيالي رايات صغيرة تلوح بها آلاف عديدة من العاملين على السفن الكبيرة الراسية في الميناء، وهي تعلو وتهبط مع حركة موجات البحر المضطرب. وهناك البحارة الذين يسرون على الطرقات، والمقاتلون الأشداء يقفون أمام أبواب كل قصر. آه، يا لها من صورة خيالية استحضرها الصمت المميت الذي يلف هذه المدينة المهجورة. ودفعني دورة طويلة متأرجحة إلى أعلى فناء قصر رائع يواجه الميدان المركزي الكبير في المدينة، حيث لمحت ما حطم حلمي الجميل بالماضي. رأيت أسفلي مباشرة عشرات من حيوانات الثوات الكبيرة، مقيدة فيما كان ذات يوم الحديقة الملكية لجيداك.

كان وجود هذه الحيوانات الضخمة لا يعني سوى شيء واحد: أنه يمكن العثور على أسيادهم الخضر في مكان قريب.

وعند مروري فوق الساحة، نظر أحد الوحوش الشريرة المضطربة إلى أعلى وشاهدني؛ وبدأ يئن بغضب. وعلى الفور أثار أئينه مزاج حيوانات الثوات الأخرى سريع القلب، وتوجه انتباههم إلى أعلى، واكتشفوا وجودي. وهنا شرعوا في هرج من مهمات وأئين أدى إلى النتيجة التي توقعتها فوراً. قفز محارب أخضر من داخل القصر إلى الفناء ونظر إلى أعلى، ليراني قبل أن أعبر مسار الرؤية فوق سطح المبنى.

أدركت فوراً أن هذا ليس مكاناً للتلكؤ، ففتحت أداة السرعة وانطلقت في الوقت نفسه نحو ارتفاع أكبر. وخلال مروري فوق المبنى وخروجي إلى الطريق أمامه، رأيت ما يقرب من عشرين محارباً أخضر يخرجون من المبنى وهم يبحثون في السماء بأعينهم المحدقة إلى أعلى؛ فقد أبلغهم المحارب المسؤول عن الحراسة بوجودي.

لعت نفسي لحماقتي التي جعلتني أقتنص فرصة دون داعٍ إلا لإرضاء فضولي الفارغ. اتخذت على الفور مساراً تصاعدياً متعرجاً، وارتفعت بأقصى سرعة ممكنة، بينما تناهت إلى سمعي بوضوح من أسفل صرخة الحرب الوحشية. رأيت بنادق طويلة شريرة موجهة نحوي، وسمعت هسهسة تدافع القذائف. وعلى الرغم من مرور أول قذيفة بالقرب مني، لم تُصَب السفينة بأي رصاصة. سوف أكون بعد لحظة خارج نطاقهم وفي أمان، وصليت داعياً ألفاً من أسلافي لحمايتي خلال الدقائق القليلة الضرورية لتبعدني تماماً عن مسار الأذى. تصورت أنني نجحت، وكنت على وشك تهنئة نفسي على حظي السعيد عندما سمعت جلجلة رصاصة تخترق معدن سفينتي، وصوت انفجار قذيفة في الوقت نفسه تقريباً، ثم أصبحت خارج نطاق مرماهم.

تناهت إلى سمعي خافطة صرخات الغضب من خيبة الأمل، وأنا أنطلق مسرعاً في اتجاه الجنوب الغربي. أحسست بالراحة؛ لأن حسن حظي أتاح لي الفرار دون أي ضرر.

لقد قطعت بالفعل مسافة سبعين كاراد^(٣٦) تقريباً من هيليوم، لكنني

(٣٦) الكاراد يعادل درجة على خط الطول.

كنت أعرف أن جواهر لا تزال على بُعد يتراوح بين خمسين وخمسة وسبعين كاراد. قررت عدم اقتناص أي فرص أخرى مثل تلك التي تمكنت لحسن حظي من الفرار منها.

أتحرك الآن بسرعة كبيرة مرة أخرى. وما إن انتهيت من تهتئة نفسي على حسن حظي، حتى أتضح لي فجأة أنني أواجه صعوبة في الحفاظ على ارتفاعي. كانت طائرتي تفقد قابليتها للطفو. وخمنت على الفور ما تحققت منه لاحقًا، وهو أن إحدى رصاصات المحاربين الحُضر المتفجرة قد ثقت خزانات الطفو في سفيتتي.

كان لومي لنفسي على إهمالي يبدو مضیعة عديمة الجدوى للطاقة العقلية، على الرغم من تأكدي أنني كنت أدرك خطئي تمامًا وأثره المحتمل على مصير سانوما تورا، إذ قد يؤدي إلى عدم تمكني من المتابعة النشطة لإنقاذها. لم يزعجني تأثير النتائج عليّ بقدر ما أزعني التفكير في الخطر المؤكد الذي يحيق بسانوما تورا، وبسببه لم يترك تصميمي على إنقاذها أي مجال للتفكير في أدنى فشل.

كان هذا الحادث ضربة قاسية لآمالي، إلا أنه لم يحطمها تمامًا؛ إذ أعرف أنني من حيث تكويني لا أتخلي أبدًا عن الأمل في النجاح في أي قضية ما دامت حيًا.

يصعب تحديد إلى متى ستظل سفيتتي طافية. ونظرًا لعدم توفر أي وسيلة لإجراء الإصلاحات الضرورية للحفاظ على محتويات خزان الطفو المثقوب المتبقية، فقد كان أفضل ما أستطيع القيام به هو زيادة السرعة حتى أتمكن من قطع أكبر قدر ممكن من المسافة قبل

الاضطرار إلى الهبوط. كانت بنية سفينتي تجعلها تميل عند سرعة عالية إلى المحافظة على نفسها في الهواء مع وجود حد أدنى من الأشعة الثامنة^(٣٧) في خزانات الطفو؛ على أنني كنت أعلم أن الوقت سيحين قريباً للهبوط على هذه الأرض القفر الكثيرة المهجورة.

لقد قطعت حوالي ألفي هاد منذ أن تعرضت لنيران التوركواس، وعبرت ما كان خليجاً كبيراً عندما كانت مياه المحيط تتدفق على السهول الشاسعة القاحلة الحالية المغطاة بالطحلب التي تقع في أسفل. يمكنني أن أرى على بُعد أمامي الآن الخطوط العريضة للتلال المنخفضة التي كانت تحدد بالتأكيد خط الشاطئ الجنوبي الغربي للخليج. امتد قاع البحر الميت نحو الشمال الغربي بقدر ما يمكن أن تصل العين، لكنه ليس الاتجاه الذي أود اتخاذه. ولذا أسرع في اتجاه التلال على أمل أن أحافظ على ارتفاع كافٍ لعبورهم. لكن هذا الأمل مات في صدري عندما لاحت التلال بسرعة، وأدركت أن نهاية رحلتي ليس أمامها سوى بضع لحظات. وفي الوقت نفسه، ظهرت أنقاض مدينة مهجورة تقع عند سفح التلال. لم يزعجني هذا المشهد، حيث يمكن غالباً العثور على المياه في آبار هذه المدن القديمة، التي حافظ عليها قبائل الخضر الرُّحَل في الأراضي القفر.

أتحرك ببطء الآن على مسافة عدد قليل من الآد^(٣٨) فوق سطح

(٣٧) الأشعة الثامنة: تُعرف أيضاً باسم أشعة الدفع، وهي خاصية للضوء بغض النظر عن مصدر انبعائه. وتُستخدم بشكل رئيس في المناطيد كوسيلة للطفو - https://barsoom.fandom.com/wiki/Eighth_Ray - المترجمة.

(٣٨) الآد: يعادل الآد حوالي ٩,٧٥ قدم بمقاييس كوكب الأرض.

الأرض. لقد قلصت سرعتي إلى حد كبير لتجنب أي حادث خطير عند الهبوط، ولهذا السبب تسارعت النهاية بحيث أنني أستقر الآن برفق على الغطاء النباتي الأصفر، على مسافة تكاد تبعد ما يصل إلى هاد من الواجهة المائية للمدينة المهجورة.



الفصل (٣)

المأزق

كان هبوطي تعييسًا للغاية، تركني مكشوفًا أمام المدينة دون أي مكان للاختباء إذا كانت إحدى قبائل الخُضر العديدة تشغل الأنقاض، حيث تنتشر هذه القبائل في قيعان بحر برسوم الميت، وكثيرًا ما تتخذ من مدينة أو أخرى من المدن المهجورة على الشاطئ القديم مقرًا لها. ونظرًا لأنهم يختارون السكن عادة في أكبر القصور القديمة وأكثرها روعة، ولأن هذه القصور تقع عادة على مسافة قريبة من الواجهة المائية، فمن الممكن تمامًا أنه حتى في حالة وجود رجال خُضر في المدينة أن أصل إلى مكان آمن للاختباء في أحد المباني القريبة قبل اكتشافهم لوجودي.

أصبحت طائرتي الآن عديمة الفائدة، وليس أمامي سوى التخلي عنها. وهكذا، سرت بسرعة في اتجاه الواجهة المائية العتيقة، ومعني فقط أسلحتي وذخائري وحصص الطعام القليلة المُركزة. لم أتمكن من تحديد ما إذا كنت وصلت إلى المباني مراقبًا أو دون مراقبة، لكنني وصلت على أي حال دون رؤية أي علامة على مخلوق حي.

تسكن القروء البيضاء الكبيرة في برسوم أجزاء من هذه المدن العديدة القديمة المهجورة. ويخشى المرء هذه القروء أكثر من المحاربين الخضر أنفسهم؛ فهذه المخلوقات الشبيهة بالإنسان تتمتع بقوة هائلة وتتسم بضراوة شديدة، فضلاً عن أنها أيضاً من آكلي لحوم البشر بشراهة. إنها مخلوقات رهيبة إلى حد القول أنهم المخلوقات الحية الوحيدة التي يمكنها غرس الخوف داخل صدور رجال برسوم الخضر.

وبمعرفة المخاطر المحتملة التي قد تكمن في محيط هذا الخراب، قد يكون غريباً أنني اقتربت منها أصلاً، وإنما في الواقع لم يكن هناك بديل آمن. فوق الرتبة الميتة للطحالب الصفراء في قاع البحر، كان يمكن أن يكتشف وجودي أول قرد أبيض أو رجل مريخي أخضر يقترب من المدينة في هذا الاتجاه، أو يأتي مصادفة من داخل أنقاض الواجهة المائية. ولذلك، كان من الضروري أن أجد مكاناً للاختباء حتى هبوط الليل؛ إذ يمكنني ليلاً فقط أن أتحرك بأمان عبر قاع البحر. ونظراً لأن المدينة هي المخبأ القريب الوحيد، لم يكن لديّ أي خيار سوى دخولها. ويمكنني أنؤكد لك أن تسلقي إلى سطح شارع واسع، كان ذات يوم بمحاذاة شاطئ ميناء مزدحم، لم يكن دون شعوري بالقلق الشديد. على امتداد مساحته الواسعة، ارتفعت أنقاض ما كان ذات يوم متاجر ومستودعات، لكن نوافذه الخالية من الأعين تنظر الآن إلى مشهد الخراب القاحل. لقد ولّت السفن الكبيرة! وولّت الحشود النشيطة المتعجلة! وولّى المحيط!

عبرت الطريق ودخلت أحد أطول المباني، الذي لاحظت أن برجًا شاهقًا يعلوه. بدت البنية برمتها، بما فيها البرج، في حالة ممتازة من الصيانة. وفكرت أنني إذا تمكنت من الصعود إلى البرج، سوف أحصل على مشهد ممتاز للمدينة وللبلد الذي يقع خلفها في اتجاه الجنوب الغربي، وهو الاتجاه الذي كنت أنوي اتخاذه لمواصلة البحث عن جاهار. وصلت إلى المبنى دون مراقبة، على ما يبدو، ودخلت لأجد نفسي في غرفة كبيرة لم يعد من الممكن تحديد طبيعتها وغرضها لأن الزخارف التي ربما كانت تزين جدرانها في الماضي لم تعد واضحة، وأيًا كان الأثاث الذي احتوته ويمكن أن يعطي فكرة عن هويتها قد أُزيل من فترة طويلة. تُوجد مدفأة هائلة في أقصى نهاية الغرفة، ويُوجد عند أحد جوانبها سلم يقود إلى أسفل، وعند الجانب الآخر سلم مماثل يقود إلى أعلى.

أمنعت السمع للحظة، لكنني لم أسمع أي صوت سواء داخل أو خارج المبنى، ولذا بدأت بثقة كبيرة أصعد السلم.

واصلت الصعود من طابق إلى آخر. يتكون كل طابق من غرفة كبيرة واحدة، مما أقنعني في النهاية أن المبنى كان مستودعًا لتخزين السلع التي تمر عبر هذا الميناء القديم.

امتد من الطابق العلوي سلم خشبي إلى أعلى، خلال مركز البرج أعلاه. كان مصنوعًا من خشب السكيل^(٣٩) الصلب، وهو عمليًا غير

(٣٩) سكيل: شجرة من خشب مريخي صلب يُستخدم في بناء كل شيء من السكن إلى الأثاث. وتنتج أيضًا شجرة سكيل جورًا جيد المذاق - <http://barsoom.wikia.com/wiki/Skeel> - المترجمة.

قابل للتدمير؛ لذلك، ومع معرفتي أن عمره ربما يقع بين خمسمائة ألف إلى مليون سنة، لم أتردد في استخدامه.

كان قلب البرج الداخلي الدائري، الذي يمتد السلم خلاله، مظلمًا إلى حد ما. وتوجد عند كل مرحلة فتحة تؤدي إلى غرفة البرج عندها. ونظرًا لأن العديد من هذه الفتحات كانت مغلقة، لم يتسلل سوى ضوء خافت إلى القلب المركزي.

صعدت إلى المستوى الثاني من البرج، وعندئذ تصورت أنني سمعت ضوضاء غريبة في أسفل.

كان مجرد إحياء بضوضاء، لكن هذا الصمت المطلق الذي يخيم على المدينة المهجورة يجعل أقل صوت أكثر إدراكًا بالنسبة لي.

توقفت خلال صعودي، ونظرت إلى أسفل، واستمعت؛ لكن الصوت الذي عجزت عن تفسيره لم يتكرر، فواصلت طريقي إلى أعلى. ولأنني كنت عازمًا على التسلق إلى أعلى ارتفاع ممكن في البرج، لم أتوقف لفحص أي مستوى من المستويات التي مررت بها.

واصلت الصعود إلى مسافة كبيرة، ثم أعاقني تقدمي ألواح ثقيلة يبدو أنها تُشكّل سطح العمود. يوجد أسفلي بحوالي ثمانية أو عشرة أقدام باب صغير ربما يؤدي إلى أحد مستويات البرج العليا. ولا يمكنني إلا أن أتساءل عن سبب استمرار تصاعد السلم أعلى هذا المدخل، إذ لا يمكن أن يخدم أي غرض عملي إذا كان ينتهي عند السطح. تحسست بأصابعي الخطوط العريضة لما يبدو بابًا مسحورًا. تأكدت من رسوخ

قدمي عند أعلى موضع تمكنت من الوصول إليه أعلى السلم، ووضعت كتفي على الحاجز. تمكنت في هذا الوضع من الضغط بشدة إلى أعلى، وأشعر حاليًا أن الألواح ترتفع فوقِي، وبعد لحظة صاحبها أنين خافت، تأرجح إلى أعلى الباب المسحور على مفصلات خشبية قديمة لم تُستخدم منذ زمن طويل. صعدت إلى الشقة أعلاه، ووجدت نفسي عند المستوى الأعلى من البرج، الذي يصل ارتفاعه إلى حوالي مائتي قدم فوق الطريق أدناه. رأيت أمامي بقايا قديمة عفا عليها الزمن لمنارة متآكلة، كان يستخدمها القدماء منذ وقت طويل قبل اكتشاف الراديو وتطبيقه العملي والعلمي ليحقق متطلبات الإضاءة في الحضارة الحديثة على رسوم. كانت هذه المصابيح القديمة تعمل بواسطة آلات باهظة الثمن لتوليد الكهرباء، وهذا المصباح كان يُستخدم دون شك كمناارة للتوجيه الآمنة لبحارة الميناء القدماء، حيث كانت المياه تتدفق ذات يوم أمام البرج.

وأتاح هذا المستوى العلوي من البرج رؤية ممتازة في جميع الاتجاهات. امتدت نحو الشمال والشمال الشرقي مساحات شاسعة. وفي اتجاه الجنوب، توجد مجموعة من التلال المنخفضة التي تنحني قليلاً في اتجاه الشمال الشرقي، حيث كانت تُشكل في تلك الأيام التي ولت خط الشاطئ الجنوبي لما يُعرف حتى الآن بخليج توركواس. ونحو الغرب، رأيت أنقاض مدينة عظيمة، تمتد بعيداً إلى التلال المنخفضة، ويرتفع جانبها مع توسعها من شاطئ البحر. وتمكنت عن بُعد من تمييز فيلات الأثرياء القديمة، بينما تقع في المقدمة القرية المباني العامة

الهائلة، التي بُني أغلبها على الجوانب الأربعة من شكل رباعي كبير يمكنني تمييزه بسهولة على مسافة قصيرة من الواجهة المائية. هنا، دون شك، كان يُوجد القصر الرسمي للجيداك الذي حكم في يوم ما البلد الثري التي كانت هذه المدينة عاصمته وميناءه الرئيس. لا يسود الآن سوى الصمت. يا له من مشهد كئيب بالفعل، مشهد يحمل تكهّنات تشير مشاعرنا نحن في عصرنا الحالي على برسوم.

ففي المواقع التي قاتلوا فيها ببسالة، وإن كان بلا جدوى، ضد التهديد المستمر لتناقص إمدادات المياه، نواجه نحن الآن مشكلة تتجاوز مشكلتهم بكثير من حيث أهمية تأثيرها في الحفاظ على الحياة على كوكبنا. لقد تمكن رجال برسوم الحُمر، خلال عدة آلاف من السنين، من مواصلة الحياة على كوكبنا الآخذ في الاحتضار، وسلاحهم الوحيد هو الشجاعة والحنكة والثروة؛ إذ لولا النباتات الجوية الكبيرة التي فكر فيها العرق البرسومي الأحمر وشيدها وحافظ عليها، لانقرضت منذ آلاف السنين جميع أشكال المخلوقات التي تتنفس الهواء.

وبينما كنت أطوف ببصري محدقًا في المدينة، وذهني منشغل بهذه الأفكار الكئيبة، تبينت ثانية صوتًا قادمًا من داخل البرج أسفلي. تقدمت خطوات ونظرت إلى أسفل مباشرة. رأيت ما قد يجعل أشجع قلب برسومي يرتجف - الوجه البشع المزمجر لقرود برسوم الأبيض الكبير.

وعندما التقت أعيننا، أطلق المخلوق هديرًا غاضبًا واندفع مسرعًا يصعد السلم، متخليًا عن نهج تسلله السابق. قمت تلقائيًا بالشيء الوحيد الذي قد يُبعد ولو مؤقتًا اندفاعه نحوي - دفعت الباب المسحور

الثقيل فوق رأسه، وعندئذ رأيت للمرة الأولى أن الباب مُجهز بقضيب خشبي ثقيل، ولك أن تتصور أنني لم أضع أي وقت في تأمينه، وبالتالي منعت فعلياً صعود المخلوق عبر هذا الطريق، وأصبح طريقاً مسدوداً وضعت نفسي فيه.

أصبحت الآن في مأزق بالفعل - على مسافة مائتي قدم فوق المدينة، وطريق فراري الوحيد يعترضه وحش تخشاه أكثر حيوانات برسوم توحشاً.

لقد اصطدت هذه المخلوقات في ثارك^(٤٠) عندما كنت ضيفاً على الجيداك الأخضر العظيم، تاركاس تاركاس^(٤١)، وعرفت مكرهم وحيلهم وكذا ضراوتهم. إنهم يشبهون الإنسان إلى حد كبير من حيث الهيئة، كما يقتربون من البشر من حيث حجم وتطور أمخاخهم أكثر من أي مخلوقات أخرى أدنى مرتبة. ويُمسك بهم أحياناً وهم صغار السن، ويُجرى تدريبهم. ونظراً لأنهم أذكاء، يمكن تدريبهم على القيام بأي شيء تقريباً يفعلُه الإنسان ويقع في نطاق قدراتهم المحدودة في التفكير. على أن الإنسان لم يتمكن أبداً من تخفيف طبيعتهم الشرسة، وظلوا دائماً أكثر الحيوانات خطورة في التعامل معها، وربما هذا ما يُحسب حسابه أكثر من ذكائهم الذي يجذب دوماً الجماهير الكبيرة لمشاهدة تلك المخلوقات.

(٤٠) ثارك: جماعة المريخييين الخضر

http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=Thark - المترجمة.

(٤١) تاركاس تاركاس: قائد جماعة ثارك، من المريخييين الخضر، وحليف جون كارتر - https://bar-soom.fandom.com/wiki/Tars_Tarkas - المترجمة.

لقد دفعت في هاستور مبلغًا كبيرًا لمشاهدة إحدى تلك المخلوقات، وأجد نفسي الآن في موقف يجعلني على استعداد لأن أدفع بكل سرور مبلغًا أكبر حتى لا أرى أي واحد منهم. لكن الواضح من الضجيج الذي يثيره في أسفل أنه عازم على أن يقدم لي عرضًا مجانيًا وأن يجعلني وجبته المجانية. كان يدفع نفسه بأفضل ما في وسعه ضد الباب المسحور، وأنا أقف أعلاه تتنابني الهواجس؛ لكنها هدأت الآن عندما أدركت أن قوة القرد الأبيض الهائلة ليس لها قيمة في مواجهة الباب القديم المصنوع من خشب السكيل الذي لا يزال قويًا ومتينًا.

ولاقتناعي أخيرًا أنه لن يتمكن من الوصول إليّ عبر هذا الطريق، بدأت في تقييم وضعي. تفحصت البرج وبنيته الخارجية بحيلة بسيطة، قمت بالانحناء نحو الخارج فوق كل جانب من جوانبه الأربعة. تنتهي ثلاثة جوانب من سطح المبنى على مسافة مائة وخمسين قدمًا أسفلي، بينما يمتد الجانب الرابع حتى رصيف الفناء لمسافة مائتي قدم أدناه. ومثل الكثير من معمار برسوم القديمة، كان سطح البرج منحوتًا بإتقان من أعلى إلى أسفل، وتوجد عند كل مستوى فتحات نوافذ، بعضها مزود بشرفات حجرية صغيرة. وكما هي القاعدة: لا توجد سوى نافذة واحدة بكل مستوى. ونظرًا لأن نافذة المستوى الأدنى مباشرة لا تُفتح أبدًا على نفس الجانب من البرج كنافذة المستوى أعلاه، توجد دائمًا مسافة تتراوح بين ثلاثين إلى أربعين قدمًا بين النوافذ على نفس الجانب. وعند فحصي الجزء الخارجي من البرج، بغية أن يمدني بسبيل للهرب، كانت هذه النقطة ذات أهمية كبيرة بالنسبة لي؛ لأن مشهد سلسلة حواف

النوافذ، واحدة تحت الأخرى، يبعث على الترحيب برجل في وضعي.
عندما انتهيت من فحص السطح الخارجي للبرج، بدا واضحاً أن
القرود قد استنتج أنه لن يتمكن من هدم الحاجز الذي يحول بيني وبينه.
كنت آمل أن يتخلى عن الفكرة تماماً ويغادر. على أنني عندما استلقيت
على الأرض ووضعت أذني بالقرب من الباب، تمكنت من سماعه
بوضوح أسفلي مباشرة وهو ينتقل أحياناً من وضع غير مريح إلى آخر
فوق السلم الصغير أدناي. لم أكن أعرف مدى تطوير هذه المخلوقات
لفكرة ملائمة الغرض، وكان يحدوني الأمل أن يتعب قريباً من السهر
ويحول أفكاره إلى مسار آخر. على أي حال، ومع اقتراب نهاية اليوم، بدا
هذا الاحتمال يتباعد أكثر وأكثر إلى أن أصبحت مقتنعة بأن المخلوق
عازم على محاصرتي حتى الجوع أو حتى يجبرني اليأس على التراجع.
بقيت مُحدِّقاً لفترة طويلة نحو التلال التي تقع وراء المدينة، حيث
يكنم طريقي نحو الجنوب الغربي - نحو جاهاار الأسطورية.

كانت الشمس تهبط نحو الغرب. وسرعان ما سيحدث الانتقال
المفاجئ من ضوء النهار إلى الظلام، ثم ماذا؟ ربما يتخلى المخلوق
عن حذره؛ فقد يجذبه الجوع أو العطش إلى مكان آخر، ولكن كيف لي
أن أعرف؟ ما أسهل أن يهبط إلى أسفل البرج ويتتظرنني هناك، واثقاً أنني
سوف أنزل عاجلاً أو آجلاً.

قد يتساءل الشخص الذي لا يعرف سمات هذه المخلوقات
الوحشية لماذا لا أرفع الباب المسحور، وأنا مُسلح بسيف ومسدس،
وأخوض معركة مع سجاني. لو كنت على يقين أنه القرود الأبيض الوحيد

في الجوار، لما ترددت في القيام بذلك؛ لكن خبرتي تؤكد أن هناك بلا شك قطعاً بأكمله من تلك القروء التي تسكن تلك المدينة المُدَمَّرَة. ومن عاداتهم، نظراً لندرة اللحم الذي يتوقون إليه، أن يصطاد كل منهم بمفرده، بحيث في حالة نجاحه في قتل الفريسة، يحتفظ بالجائزة لنفسه؛ لكنني إذا هاجمته، فسوف يثير ضجة بالتأكيد لجذب زملائه، وعندئذ تنقلص فرصة هروبي في النهاية إلى الصفر.

رصاصة واحدة من مسدسي قد ترديه قتيلاً، لكنها أيضاً وبنفس القدر قد لا تفعل؛ ذلك أن هذه القروء البيضاء الكبيرة في برسوم هي مخلوقات ضخمة، تتمتع بحيوية تكاد لا تُصدق. يصل طول كثيرين منهم عند الوقوف إلى حوالي خمس عشرة قدماً، ووهبتهم الطبيعة بقوة هائلة. ومظهرهم يضعف معنويات عدوهم؛ ذلك أن أجسامهم البيضاء الخالية من الشعر تثير في حد ذاتها اشمئزاز الرجل الأحمر، وكتلة الشعر الأبيض الكبيرة التي تنتصب فوق رؤوسهم تزيد من وحشية مظهرهم؛ بينما المجموعة الوسيطة من أطرافهم، التي يستخدمونها كذراعين أو ساقين حسب الضرورة أو الرغبة، تجعلهم أكثر الخصوم شراسة. كما يحملون عموماً هراوات، ويبرعون في استخدامها. ولذلك، يُعد الفرد الواحد منهم تهديداً كافياً في حد ذاته، ومن هنا لم تكن لدي أي رغبة في اجتذاب آخرين من نوعه، مع إدراكي الكامل أنني قد اضطر في النهاية إلى خوض معركة معه.

ومع غروب الشمس، انجذب انتباهي إلى الواجهة المائية، حيث امتدت الظلال الطويلة للمدينة لمسافة بعيدة عبر قاع البحر الميت.

شاهدت مجموعة من المحاربين الخُضر يمتطون حيوانات الثوات الوحشية الكبيرة، ويصعدون منحدرًا بسيطًا في اتجاه المدينة. ربما يصل عددهم إلى عشرين، يتحركون بصمت على الطحلب الناعم الذي يفترش قاع الميناء القديم؛ وحيواناتهم ذات الأقدام المبطنة لا تُصدر أي صوت. أعطتني حركتهم كالأشباح في ظلال نهاية اليوم، دليلًا آخر على أن مصيري قادمي إلى شاطئ غير ودود على الإطلاق. عندئذ، وكأنما لاستكمال ثلاثية التهديد البرسومي المخيف، انطلق هدير البانث^(٤٢) من التلال الواقعة وراء المدينة.

كانوا يتحركون في مأمن من المراقبة في البرج العالي فوقهم. رأيت المجموعة عند خروجها من جوف الميناء، ثم توجهها لتستقل الشارع أدناي. ولأول مرة ألاحظ هيئة شخص صغير يجلس أمام أحد المحاربين. يخيم الظلام سريعًا الآن. قبل أن يتعد الموكب الصغير عن البصر بلحظات وراء زاوية المبنى، وهو يدخل شارع آخر يقود إلى قلب المدينة، أظن أنني أدركت أن تلك الهيئة الصغيرة هي لامرأة من عرقي. كان أمرًا مفروغًا منه أنها أسيرة، وارتجفت وأنا أفكر في مصيرها. ربما كانت سانوما تورا في خطر مماثل. ربما -ولكن كلا، لا يمكن- كيف يمكن أن تقع سانوما تورا في براثن محاربي جماعة التوركواس الشرسة؟

(٤٢) البانث: حيوان مفترس شرس متعدد الأرجل، أصلع تقريبًا مثل جميع الحيوانات المريخية إلا من شعر كثيف خشن كبير كالأسد حول رقبته السمكة. جسده طويل ورشيق، ويعتمد على عشرة أرجل قوية؛ وفكاه الضخمان مجهزان بعدة صفوف من أنياب طويلة تشبه الإبرة، مثله مثل حيوانات الكالوت أو الكلاب المريخية؛ وفمه يصل إلى نقطة بعيدة خلف أذنيه الصغيرتين، بينما عيناه الخضراوان هائلتان وجاحظتان وتضيفان لمسة الرعب الأخيرة إلى مظهره الفظيع - <http://barsoom.wikia.com/wiki/Banth> - المترجمة.

لا يمكن أن تكون هي. كلا، هذا مستحيل. لكن الحقيقة هي أن
الأسيرة امرأة حمراء؛ وسواء كانت سانوما تورا أو غيرها، وسواء كانت
من هيليوم أو جاهار، فقد شعر قلبي بالتعاطف معها ونسيت مأزقي؛
لأن شيئاً في داخلي حثني على متابعة خاطفيها والسعي لانتزاعها من
برائتهم؛ ولكن، واحسرتها، يا لخيالي العقيم. كيف يمكنني أن أطمح
في إنقاذ شخص آخر، وأنا عاجز حتى عن إنقاذ نفسي؟

أزعجتني هذه الفكرة وجرحت كرامتي، وعقدت العزم على الفور
على أنني إن لم أغامر لإنقاذ نفسي، فعلى الأقل أغامر لإنقاذ امرأة من
عِرقي؛ وفي ذهني دائماً فكرة أنها ربما تكون المرأة التي أحبها.

حل الظلام، ووضعت أذني مرة أخرى على الباب المسحور. كان
الصمت يرين أدناه، ما أكد لي أن المخلوق قد رحل؛ أو ربما ينتظرني
متربصاً عند مستويات أدنى. ولكن، ماذا في ذلك؟ يجب أن أواجهه في
النهاية، إذا اختار أن ينتظر. فككت جراب مسدسي، وكنت على وشك
إزاحة قضيب تأمين الباب عندما سمعت صوت الوحش بوضوح أسفلي
مباشرة.

توقفت للحظة. ما الفائدة؟ رفع الباب يعني الموت المؤكد، وما
الفائدة التي أجنيتها أنا أو الأسيرة الضعيفة إذا منحت حياتي هباء هكذا؟
على أن هناك بديلاً - بديلاً كنت أخطط لاستخدامه عند الضرورة،
منذ لحظة فحصي بداية لبنية البرج الخارجية. بديل يتيح فرصة ضئيلة
للفرار من مأزقي؛ والفرصة الضئيلة أفضل مما قد أواجهه إذا رفعت
الباب المسحور.

صعدت إلى إحدى نوافذ البرج، ونظرت إلى أسفل على المدينة. لم يكن أي من القمرين في السماء؛ فلم أتمكن من رؤية أي شيء. سمعت أنين الثوات قادمًا من داخل المدينة. قد يُوجد مخيم للرجال الخضر، وبالتالي يمكنني الاسترشاد بأنين حيواناتهم الشرسة لمعرفة موقعه. زأر بانث مرة أخرى عند التلال. جلست على العتبة، وأرجحت قدمي، ثم استلقيت على بطني وانزلت بصمت على الحافة إلى أن أصبحت معلقًا بيدي فقط. تلمست الواجهة بأصابع قدمي في الصندل، وشعرت بموطئ قدم فوق المنحوتات العميقة على واجهة البرج. فوق فراغ أسود مشوب بالزرقة ومرصع بالنجوم، وأدناي فراغ تام. ربما تبلغ المسافة إلى السطح أسفلي ألف سوفاد^(٤٣)، أو ربما سوفادًا واحدًا. وعلى الرغم من أنني لم أتمكن من رؤية أي شيء، فقد كنت أعرف أنها تبلغ مائة وخمسين، وأن الموت يكمن في أسفل إذا انزلت قدم أو يد.

بدا النحت في وضع النهار كبيرًا وعميقًا ومنحدرًا، لكن الوضع في الليل كان مختلفًا! لم تعثر أصابع قدمي سوى على خدوش جوفاء على سطح أملس من الحجر المصقول. كانت ذراعي وأصابعي متعبة. يجب أن أجد موطئ قدم وإلا سأسقط. شعرت بضياغ الأمل، لكن إصبع قدمي في الصندل الأيمن تلمست شقًا أفقيًا، وبعد لحظة عثر إصبع قدمي الأيسر على موطئ.

(٤٣) السوفاد يعادل حوالي ١٧، ١ بوصة بمقاييس كوكب الأرض - <http://barsoom.wikia.com/> - wiki/Linear_Measurement - المترجمة.

تمددت على الجدار العمودي للبرج حتى تستريح للحظات أصابعي وذراعي المتعبة. وعندما شعرت أنها ستتحمل وزني مرة أخرى، سعيت لكي تحملني يداي. وهكذا نزلت بوصة تلو بوصة، وأنا أشعر بالألم والخطر والرتابة. تجنبت النوافذ، مما أضاف بطبيعة الحال إلى صعوبة وخطورة هبوطي؛ على أنني راعت عدم المرور أمامهم مباشرة، خشية أن يكون القرد قد نزل من قمة السلم ويراني مصادفة.

لا أذكر أنني شعرت بالوحدة في حياتي من قبل أكثر مما شعرت به تلك الليلة، خلال هبوطي برج المنارة القديم في تلك المدينة المهجورة، إذ لم يكن حتى الأمل بصحبتني. كانت قبضتي على الحجر الحاد غير ثابتة، ولذا سرعان ما أصاب الخدر والاستنفاد أصابعي. لا أدري كيف تشبثت أصابعي بكل تلك الشقوق السطحية. كان الظلام هو الميزة الوحيدة خلال الهبوط، وشكرت أسلافي الأوائل مائة مرة أنني لم أتمكن من رؤية الأعماق أسفل، ما كان يمكن أن يصيبني بالدوار. على أن الظلام، من ناحية أخرى، كان حالكاً إلى حد أنني لم أستطع تحديد المسافة التي نزلتها؛ كما لم أجرؤ على البحث عن الصورة الظلية لقمة البرج في مواجهة السماء التي تضيئها النجوم، خشية أن أفقد توازني وأسقط في الفناء أو على السطح الأدنى. لا ينشر هواء برسوم الرقيق ضوء النجوم إلى حد كبير. ولذا، بينما امتلأت السماء بنقاط ضوئية رائعة، كانت الأرض في أسفل غارقة في الظلام.

ويبدو أنني كنت أقرب إلى السطح مما ظننت عندما حدث ما حرصت بلا كلل على الحيلولة دون حدوثه: أن يحتك غمد سيفي

الطويل بواجهة البرج، مُصدرًا بعض الضجيج. بدت في الظلام والصمت ضجة حقيقية. وقد أبلغ بالقول أنني كنت أعرف أنها تكفي للوصول إلى أذني القرد الضخم في البرج. لم أستطع التخمين كيف سيستقبل هذا الضجيج - كنت آمل فقط أن يتسم ببلادة تجعله لا يربط هذا الضجيج بي أو بهروبي.

بيد أن شكوكي لم تستمر طويلًا؛ إذ جاء صوت على الفور من داخل البرج، صوت بدا لأعصابي المجهدة مثل هبوط جسم ثقيل بسرعة على سُلّم. أدرك الآن أن الخيال ربما قد ترجم بسهولة الصمت المطلق إلى هذ الصوت؛ لأنني كنت أستمع بتركيز إلى ذلك الشيء نفسه بحيث ربما تحولت بسهولة إلى حالة من التوتر العصبي تجعل أي نوع الهلوسة ممكنًا.

وبسرعة مضاعفة، ومع قدر من التهور يكاد يصل إلى حد الانتحار، أسرعت في هبوطي وشعرت خلال لحظات بأرضية صلبة تحت قدمي. تنفست الصعداء، وإنما يبدو أنها كانت مجرد لحظات من الشعور بالارتياح، إذ أدركت على الفور أن الصوت القادم من داخل البرج لم يكن هלוسة؛ فقد ظهر فجأة القرد الأبيض العظيم، من مدخل لا تفصله عني سوى عشر خطوات.

لم يُصدر أي صوت عند مهاجمتي. من الواضح أنه لم يظل مستيقظًا بمفرده كل هذه الفترة الطويلة وفي نيته أن يتقاسم وجبهه مع آخر. كان يود قتلي في صمت. وبصمت مماثل، امتشقت سيفني الطويل، وليس مسدسي، لمواجهة هجومه الوحشي.

من المؤكد أنني كنت شيئاً ضئيلاً بلا قيمة وأنا أواجه ذلك الجبل الشاهق من الضراوة الوحشية.

وبفضل ألف مقاتل من أسلافي، برعت في استخدام سيفي الطويل بسرعة وقوة، وإلا لوقعت مع أول هجمة للوحش بين برائنه الوحشية. امتدت أياديه الأربع القوية لتمسك بي، لكنني وجهت حركة سيفي الطويل لتقطع إحدى يديه من المعصم، وقفزت بسرعة في اللحظة نفسها إلى أحد الجوانب بحيث غرزت خنجري عميقاً في جسد الوحش عندما اندفع ناحيتي بقوة. وبصرخة وحشية من الغضب والألم حاول الانقضاض عليّ، لكن قدمه انزلقت على يده المقطوعة وتعثّر مرتبكاً في محاولة لاستعادة توازنه، لكنه لم ينجح، وظل متعثراً بغرابة وهو يندفع في اتجاه الحافة ومنها إلى الفناء أدناه.

وخشية أن يجذب صراخ الوحش الآخرين من نوعه إلى السطح، جريت سريعاً إلى حافة المبنى الشمالية، حيث كنت قد شاهدت من البرج في وقت سابق من بعد ظهر اليوم سلسلة من المباني المجاورة أقل ارتفاعاً، وفكرت أنني ربما أتمكن من خلال أسطحها أن أستكمل هبوطي إلى مستوى الشارع.

كان القمر كلوروس يرتفع فوق الأفق البعيد، مُلقياً ضوءه الشاحب على المدينة بحيث تمكنت أن أرى بوضوح الأسطح التي تقع أسفلي عند وصولي إلى حافة المبنى الشمالية. كان هبوطاً طويلاً، ولكن ما من بديل آمن آخر؛ فمن المحتمل إذا حاولت النزول من خلال المبنى أن أقابل سائر أعضاء قطيع القرود الذين لفت انتباههم صراخ زميلهم.

انزلت على حافة السطح، وتعلقت يداي للحظات، ثم سقطت. كانت المسافة حوالي ٢ آد، لكنني نزلت بأمان ودون إصابات. على كوكبك، كوكب الأرض، بكتلته الأضخم وجاذبيته الأكبر، أعتقد أن السقوط من تلك المسافة قد يكون خطيرًا؛ لكن الوضع ليس كذلك بالضرورة على برسوم. كان هبوطي من هذا السطح قصيرًا إلى السطح التالي، الذي قفزت منه إلى جدار منخفض ثم إلى الأرض أدناه.

لو لم تكن تلك اللمحة العابرة للفتاة الأسيرة التي رأيته عند غروب الشمس، لكنت اتجهت مباشرة نحو التلال غرب البلدة، سواء في وجود أو غياب البانث؛ لكني الآن أشعر بالتزام أخلاقي قوي على عاتقي لأن أبذل أفضل جهد ممكن لإنقاذ الفتاة التعيسة سيئة الحظ التي وقعت في براثن أقسى المخلوقات.

تحركت متسللاً، خلال ظلال المباني، نحو الساحة المركزية للمدينة، التي سمعت من اتجاهها أنين حيوانات الثوات.

تبعد الساحة بمسافة هاد كامل عن الواجهة المائية، واضطرت إلى عبور عدة شوارع متقاطعة وأنا أشق طريقي نحوها، مسترشداً بأنين متقطع من حيوانات الثوات التي تسكن في فناء قصر ما مهجور.

وصلت الساحة بأمان، واثقاً أنني لست مُراقباً.

رأيت على الجانب الآخر ضوءاً داخل أحد المباني الكبيرة المواجهة، لكنني لم أجروُ على عبور الفضاء المفتوح في ضوء القمر، ولذا بقيت متشبهاً بالظلال خلال تحركي إلى أقصى نهاية الشكل الرباعي الذي يلقي فوقه القمر كلوروس بأكثر ظلاله كثافة، ووصلت أخيراً

إلى المبنى الذي يسكنه الرجال الخُضر. وجدت أمامي مباشرة نافذة منخفضة، من المؤكد أنها لغرفة مجاورة للغرفة التي تضم المحاربين. استمعت بإمعانٍ، لكن لم أسمع أي شيء داخل الغرفة. وضعت ساقي فوق حافة النافذة وتسليت إلى الداخل المظلم.

سرت على أطراف أصابعي عبر الغرفة، ووجدت بابًا يمكنني أن أنظر من خلاله إلى الغرفة المجاورة. توقفت فجأة عندما لمس قدمي جسم ناعم، وقفت متجمدًا ووضعت يدي سيفي الطويل عندما رأيت الجسم يتحرك.



الفصل (٤)

تافيا

هناك مناسبات في حياة كل إنسان ينبهر خلالها بالأدلة على وجود قوة خارجية توجه أفعاله؛ ما يوصف أحياناً بيد العناية الإلهية، أو يُفسر على أساس فرضية الحاسة السادسة التي تنقل إلى الجزء في عقلنا الذي يتحكم في أفعالنا تلك التصورات التي لا ندركها موضوعياً. ومع وضع ذلك في الحسبان، تظل الحقيقة أنني عندما وقفت هناك تلك الليلة، في غرفة القصر القديم المظلمة في المدينة المهجورة، ترددت في توجيه طعنة بسيفي إلى الجسم الناعم الذي يتحرك أمام أقدامي. ربما كان ذلك، قبل كل شيء، أكثر مسار اتبعته ويتسم بالعقلانية والمنطقية. ضغطتُ بسن سيفي بحزم على الجسم الناعم، وهمست بكلمة واحدة: «صمتاً!».

ومنذ ذلك الحين، شكرت أسلافي الأوائل ألف مرة لأنني لم أتبع بواعثي الطبيعية؛ فقد رد صوت هامس على تحذيري: «لا تندفع، أيها الرجل الأحمر؛ أنا سجينه ومن نفس عرقك»، وكان الصوت لفتاة.

سحبت سيفي على الفور، وركعت بجوارها. قالت: «إذا كنت قد جئت لمساعدتي، عليك أن تقطع قيودي وبسرعة؛ لأنهم سرعان ما سيعودون من أجلي».

بنظرة سريعة وجدت أنها مقيدة بسيور جلدية من المعصمين والكاحلين، فأخرجت خنجري وقطعت السيور بسرعة. سألتها وأنا أساعدها على الوقوف: «هل أنت بمفردكِ؟».

فأجابت: «نعم. إنهم يلعبون في الغرفة المجاورة لتحديد لمن سأنتمي». وفي تلك اللحظة جاءنا من الغرفة المجاورة صوت قعقة الأسلحة الجانبية. قالت: «إنهم قادمون. يجب ألا يجدونا هنا».

أمسكت بيدها وتحركنا إلى النافذة التي دخلت الشقة من خلالها. ومن حسن الحظ أنني ألقيت نظرة استطلاع قبل أن نخرج إلى الشارع؛ إذ عندما نظرت نحو اليمين على طول المبنى، رأيت محارباً مريخياً أخضر يخرج من المدخل الرئيس. ومن الواضح أن قعقة أسلحته الجانبية، خلال حركته في الشقة المجاورة للوصول إلى المدخل، كانت هي الصوت الذي سمعناه.

سألتها هامساً: «هل هناك مخرج آخر من هذه الغرفة؟».

وأجابت: «نعم. يوجد أمام هذ النافذة مدخل يؤدي إلى ممر. وكان مفتوحاً عندما أحضروني هنا، لكنهم أغلقوه».

قلت: «سنكون أفضل حالاً داخل المبنى، لبعض الوقت على الأقل. هيا!». مشينا معاً عبر الشقة، ونحن نتلمس طريقنا على طول الجدار في اتجاه

الباب الذي تمكنت من تحديد موقعه. فتحت الباب جزئياً بحرص شديد، خشية أن يفصح أنين مفصلاته القديمة أمرنا. يوجد بعد المدخل ممر مظلم كأعماق أوميان^(٤٤)، دخلنا وأغلقتنا الباب خلف ظهورنا بصمت. تلمسنا طريقنا نحو اليمين، بعيداً عن الشقة التي يشغلها المحاربون الخُضر. كنا نتحرك ببطء خلال فراغ أسود إلى أن رأينا ضوءاً خافتاً أمامنا الآن، وكشف الفحص أنه يأتي من مدخل الشقة المفتوح الذي يواجه الفناء المركزي بالمبنى. كنت على وشك عبور هذا المدخل والبحث عن مكان اختباء في الأجزاء البعيدة من المبنى، عندما لفت انتباهي أنين أحد حيوانات الثوات في الفناء الذي يقع خارج الشقة التي نمر بها.

اكتسبت منذ طفولتي المبكرة خبرة كبيرة مع سلالة حيوانات الثوات الصغيرة التي يستخدمها عرقي كحيوانات يركبونها. وخلال زيارتي لتاس تاركاس في ثارك، أصبحت على دراية تامة بالأساليب التي يتبعها الرجال الخُضر للسيطرة على وحوشهم الضخمة.

في حالة الترحال على سطح الأرض، يمكن مقارنة الثوات بأساليب النقل البري الأخرى؛ تماماً مثل مقارنة طائفة الاستطلاع المخصصة لشخص واحد بجميع السفن الأخرى في الملاحة الجوية. والثوات هو الأسرع والأكثر خطورة في آن، بحيث عندما يواجه المرء مشكلة تتعلق بالنقل البري - كما هو حالي الآن - من الطبيعي أن يشير أنين الثوات خطة في ذهني.

(٤٤) أوميان: تجمع مائي كبير يقع تحت سطح المريخ بميلين - <https://barsoom.fandom.com/> - wiki/Omean_Sea - المترجمة.

سألتني الفتاة: «لماذا تتردد؟ لا يمكننا الهرب في هذا الاتجاه لعدم قدرتنا على عبور الفناء».

«على العكس»، أجبتها، «أعتقد أن أضمن طريق للفرار يكمن في هذا الاتجاه».

اعترضت قائلة: «لكن حيواناتهم الثوات مُقيدة في الفناء، ولا يوجد المحاربون الخضر أبدًا بعيدًا عن حيواناتهم».

أجبت: «أود التحقق من الفناء لأن الثوات فيها».

قالت: «بمجرد أن يشم الثوات رائحتنا، سوف يشيرون جلبة تجذب انتباه أسيادهم، وسوف يكتشفون وجودنا على الفور ويمسكون بنا».

قلت: «ربما؛ ولكن إذا نجحت خطتي، ستكون جديرة بالمخاطرة. وإنما إذا كنت تشعرين بخوف شديد، فسوف أتخلي عنها».

قالت: «كلا، لست أنا من يختار أو يوجه. لقد كنت كريماً معي وساعدتني، وسوف أتبع قيادتك. ولكن، إذا أخبرتني بخطتك، ربما أتبعك بشكل أكثر ذكاء».

قلت: «بالتأكيد؛ خطتي بسيطة جداً. توجد حيوانات ثوات. سوف نأخذ واحداً منهم ونبتعد به. هذا أسهل كثيراً من السير، ويزيد من فرص هروبنا. وفي الوقت نفسه، سوف نترك بوابات الفناء مفتوحة على أمل أن تتبعنا حيوانات الثوات الأخرى، بحيث تترك أسيادها غير قادرين على متابعتنا».

قالت الفتاة: «إنها خطة مجنونة، لكنها شجاعة. إذا اكتشفونا، سوف

ينشب قتال، وأنا بلا سلاح. أعطني سيفك القصير، أيها المحارب، حتى نكون مستعدين على الأقل للدفاع عن أنفسنا».

فككت غمد سيفي القصير في عتادي، وعلقته على فخذها الأيسر. وعندما لمست جسدها وأنا أعلق السيف، لم تفتني ملاحظة عدم وجود أي علامة على الارتجاف، والتي كانت لتظهر إذا كانت قلقة أو خائفة. بدت باردة تمامًا ورابطة الجأش، وكانت نبرة صوتها تبعث على اطمئناني. لقد عرفت أنها ليست سانوما تورا عندما تحدثت أول مرة في ظلام الغرفة التي وجدتها فيها. وعلى الرغم من شعوري بخيبة أمل شديدة، ما زلت مصممًا على القيام بأفضل ما يمكن للمساعدة في هروب فتاة غريبة، مع ثقتي أن وجودها قد يؤخرني ويحرمني إلى حد كبير، كما يعرضني إلى خطر أكبر كثيرًا من مصير محارب يسافر بمفرده. ولذلك، شعرت بالاطمئنان أن رفيقي غير المرغوب ليس عاجزًا تمامًا.

قلت، بعد أن انتهيت من ربط سيفي القصير بعنادها: «أثق أنك لن تُضطري إلى استخدامه».

قالت: «سوف تجدني، إن دعت الضرورة، قادرة على استخدامه».

أجبت: «جيد. عليك الآن أن تتبعيني وتبقي بالقرب مني».

كشف مسح دقيق للفناء من نافذة الغرفة التي تطل عليه عن وجود حوالي عشرين ثوًا ضخمًا، وعدم وجود أي محارب أخضر؛ ما يدل على شعورهم بالأمان التام ضد أي أعداء.

احتشدت حيوانات الثوات في أقصى نهاية الفناء؛ كان عددًا قليلًا لأن الوقت كان ليلاً، لكنّ الباقيين كانوا يتحركون بلا هواده كعادتهم. توجد بوابتان ضخمتان على الجانب الآخر من الفناء، وعند الطرف نفسه. وأعتقد، بقدر ما يمكنني أن أتبين، أنهما حاجزان لفتحة وحيدة في الفناء كبيرة بما يكفي لحركة الثوات، وأفترض أن بعدهما يوجد زقاق يؤدي إلى أحد الطرق القريبة.

كان الوصول إلى البوابات مع الثوات دون مراقبة بمثابة الخطوة الأولى في خطتي. وللقيام بهذه الخطوة على نحو أفضل، قررت التماس شقة بالقرب من البوابة، رأيت على جانبيها نوافذ مماثلة لتلك التي نأظر منها. ولذا أومأت إلى رفيقتي لمتابعتي. عُدنا إلى الممر، وتلمسنا طريقنا ثانية في الظلام. في الشقة الثالثة التي بحثت فيها، وجدت نافذة تطل على موضع من الفناء بجوار البوابة. وعند الجدار الذي يمتد بزوايا قائمة إلى الجدار الذي يضم النافذة، وجدت مدخلاً يفتح على ممر مُقَبَّب كبير على الجانب الآخر من البوابة. شجعني هذا الاكتشاف إلى حد كبير، لأنه يتسق تمامًا مع الخطة التي تدور في ذهني، كما أنه يقلل في الوقت نفسه من المخاطر التي قد تواجهها رفيقتي في مغامرة الهرب.

قلت لها، وأنا أوقفها خلف البوابة: «عليك أن تبقي هنا. إذا نجحت خطتي، سوف آتي راكبًا أحد الثوات في هذا الممر، وعندئذ يجب أن تكوني على استعداد للإمساك بيدي والركوب خلفي. وإذا انكشفت وفشلت، سوف أهتف بعبارة 'من أجل هيلوم!' وهي إشارة لك لتهربي بأفضل طريقة ممكنة».

وضعت يدها على ذراعي، وقالت متوسلة: «دعني أذهب إلى الفناء معك. سيفان أفضل من سيف واحد».

قلت: «كلا. فرصتي للتعامل مع الثوات بمفردي أفضل، حتى لا يصرف شخص آخر انتباههم».

قالت: «حسنًا»، وعندئذ تركتها وعُدت إلى الغرفة، ثم اتجهت مباشرة إلى النافذة. نظرت للحظة مستطلعًا الجزء الداخلي من الفناء. وعندما وجدت أن الظروف لم تتغير، خرجت متسللاً من النافذة، وتقدمت ببطء نحو البوابة. فحصت المزلاج بحذر واكتشف سهولة معالجته، وسرعان ما دفعت إحدى البوابات بصمت على مفصلاتها. ولما انفتحت باتساع كافٍ يسمح بمرور الثوات، وجهت انتباهي إلى الوحوش في الحظيرة. إن هذه المخلوقات الوحشية، التي لم يتم ترويضها عملياً، تُعد جامحة مثل نظيراتها مطلقات السراح في قيعان البحار البعيدة؛ ونظرًا لأن توارد الخواطر هي وسيلة التحكم الوحيدة فيها، يسهل انصياعها لإيحاء أقوى أسيادها؛ ومع ذلك تتطلب السيطرة عليها مهارة كبيرة.

تعلمت الأسلوب من تارس تاركاس نفسه، وشعرت بمهارتي الكبيرة التي تجعلني الآن أخوض هذا الاختبار الحاسم لقوتي بكل الثقة اللازمة للنجاح.

اتخذت موضعي بالقرب من البوابة، وركزت كل قدراتي الذهنية في اتجاه إرادتي، تخاطرياً، على مخ الثوات الذي اخترته لهدفي. وقد حددت اختياري له بناء فقط على أنه أكثرهم قرباً مني. ظهر أثر جهدي

على الفور. فالمخلوق الذي كان يبحث في مجموعات الطحلب التي تنمو أحياناً بين بلاطات أحجار الفناء، رفع رأسه ونظر حوله. اضطرب على الفور، لكنه لم يصدر أي صوت لأنني أردت منه أن يلتزم الصمت. تحركت عيناه الآن في اتجاهي وتوقف عندي. وبيبطاء وجهته ناحيتي. كان العمل بطيئاً، فمن الواضح أنه شعر أنني لست سيده، وما إن اقترب مني، حتى توقف وتشمم بغضب. لا بد أنه أدرك، بعد أن شم رائحتي، أنني لست حتى من نفس العرق الذي اعتاده. وعندئذ بذلت أقصى مدى لقواي الذهنية. كان واقفاً هناك يهز رأسه القبيح جيئةً وذهاباً، وتحجز شفاته المزمجرة أنيابه الكبيرة. رأيت خلفه حيوانات ثوات أخرى، اجتذبتها تصرفاته. كانت تنظر في اتجاهنا وتتحرك باضطراب، مع اقترابها نحونا. إذا اكتشفت تلك الثوات وجودي وبدأت في الأنين - وهو أول علامة دائماً على سهولة إثارة غضبها - سوف أعرف أن المحاربين سرعان ما يهاجمونني؛ ذلك أن الثوات بطبيعته العصبية والمزاجية يُعد بمثابة كلب حراسة، فضلاً عن كونه وحش الأعباء الثقيلة، للبرسوميين الخضر.

تردد للحظة الوحش الذي اخترته، كأنما يتردد قبل أن يقرر ما إذا كان يتراجع أم يهاجم، لكنه لم يفعل أيّاً منهما؛ بل تحرك نحوي ببطء. وعندما اجتزت البوابة إلى الممر المقبب بعدها، تبعني. كان هذا أفضل مما توقعت، لأنه أتاح لي إجباره على الانبطاح، بحيث تمكنت أنا والفتاة من الركوب بسهولة.

يقع أمامنا ممر طويل مقبب، يمكنني أن أرى في نهايته طريقاً أسفل

قنطرة يُضيئه القمر . وقد عبرناه الآن ووصلنا إلى شارع واسع .

التلال على اليسار، ولذا استدرت إلى هذا الاتجاه ودفعت الثوات على طول الطريق القديم المهجور بين صفوف من الأنقاض نحو الغرب و ... ماذا؟

عندما التف الطريق صاعدًا إلى التلال، ألقيت نظرة، ولم أستطع أن أمنع شعوري بالاغتراب وأنا أرى في ضوء القمر صفًا من حيوانات الثوات الضخمة، التي كنت واثقًا أيضًا أنها تعرف جيدًا ماذا تفعل بحريتها الجديدة.

قلت للفتاة، مُشيرًا إلى الثوات بإيماءة: «لن يتمكن خاطفوك من مطاردتنا الآن».

قالت: «أسلافنا معنا الليلة. دعنا نصلي ألا يتركونا أبدًا».

الآن، ولأول مرة، ألقى نظرة جيدة إلى حد ما على رفيقتي، حيث كان القمران كلوروس وثوريا في السماء، والضوء جيد. لن تتعجب إن كشفت عن دهشتي؛ ففي الظلام، حيث صوت رفيقتي هو مرشدي الوحيد، كنت على ثقة أنني أساعد امرأة، لكنني عندما أنظر الآن إلى الشعر القصير والوجه الصبباني ... لا أعرف كيف أفكر؛ لم يساعدني العتاد الذي ارتداه في تبرير استنتاجي الأول، فمن الواضح تمامًا أنه عتاد رجل. اندفعت قائلاً: «كنت أظنك فتاة».

اتسع الفم في ابتسامة كشفت عن أسنان قوية وبيضاء. وقالت: «أنا فتاة».

«لكن شعرك، عتادك، حتى هيئتك، تنفي كلامك».

ضحكت بمرح. وهذا كان أهم جوانب سحرها، كما عرفت لاحقاً - أن بمقدورها أن تضحك بسهولة، دون أن تسبب أي جرح للمشاعر. قالت: «صوتي يخونني. هذا سيئ للغاية».

سألتها: لماذا سيئ للغاية؟».

«لأن شعورك سيكون أفضل مع مقاتل كرفيق لك، بينما تشعر الآن أن رفيقك مجرد عبء».

أجبت: «عبء خفيف»، مع تذكُّري مدى سهولة رفعها إلى ظهر الثوات. «ولكن، أخبريني، من أنت ولماذا تتنكرين في هيئة صبي».

قالت: «أنا عبدة؛ مجرد فتاة عبدة هربت من سيدها»، ثم أضافت بحزن، «ربما يحدث ذلك فرقاً. ربما تأسف لأنك دافعت عن مجرد فتاة عبدة».

قلت: «كلا، لا يوجد فرق. أنا شخصياً مجرد بادوار فقير، لست غنياً بما يكفي لأمتلك عبداً. وربما أنت التي تأسفين لأن من أنقذك ليس رجلاً ثرياً».

ضحكت. وقالت: «أنا هربت من أغنى رجل في العالم، أو أعتقد على الأقل أنه أغنى رجل في العالم؛ فمن يمكن أن يكون أكثر ثراء من تول أكستار، جيداك جاهار؟».

قلت صائحاً: «أنت تنتمين إلى تول أكستار، جيداك جاهار؟».

أجابت: «نعم. لقد سُرقَت عندما كنت صغيرة جداً من مدينة تُسمى

تجاناث، ومنذ ذلك الحين أعيش في قصر تول أكستار. وهو لديه العديد من النساء - الآلاف منهن. يعشن أحياناً في قصره طوال حياتهن دون أن يروه أبداً. أما أنا، فقد رأيته»، ثم أضافت مرتجفة، «إنه شخص فظيع. لم أكن غير سعيدة هناك، لأنني لم أعرف أُمي أبداً؛ لقد توفيت عندما كنت صغيرة، ووالدي مجرد ذكرى. كنت صغيرة جداً جداً عندما سرقني مبعوثو تول أكستار من بيتي في تجاناث. أقمت صداقات مع الجميع في قصر تول أكستار. أحبني الجميع، العبيد والمحاربون وقادة القبائل، لأنني كنت أتصرف دائماً بصيبانية، واستمتعوا بتدريبي على استخدام الأسلحة، وحتى الملاحاة في الطائرات الصغيرة؛ ثم جاء يوم انتهت فيه سعادتي إلى الأبد - رأي تول أكستار. شاهدني وأرسل في طلبي. تظاهرت بالمرض ولم أذهب. وفي الليل ذهبت إلى مسكن جندي أعرف أنه يؤدي واجب الحراسة، وسرقت عتاده، وقصصت شعري الطويل، ودهنت وجهي بحيث أبدو أشبه برجل، ثم ذهبت إلى الحظائر على سطح القصر، وخدعت الحراس بحيلة، وسرقت طائرة تسع شخصاً واحداً».

وأضافت: «أعتقد أنهم إذا قرروا أصلاً البحث عني، سوف يبحثون في اتجاه تجاناث، ولذا طرت في الاتجاه المعاكس، نحو الشمال الشرقي، بهدف الطيران في دائرة كبرى إلى الشمال، ثم العودة إلى تجاناث. وبعد أن حلقت فوق زاناتور^(٤٥)، اكتشفت بستاناً كبيراً من

(٤٥) زاناتور: من مدن المريخ الساحلية القديمة وكانت تقع جنوب شرق توركاس، وتوجد الآن في أراضي جحافل التوركواس - <https://barsoom.fandom.com/wiki/Xanator> - المترجمة.

المانتاليا^(٤٦) التي تنمو عند قاع البحر الميت، وهبطت على الفور للحصول على بعض الحليب من هذا النبات؛ لأنني غادرت القصر على عجل ولم تتح لي فرصة للتزود بالمؤن. كان بستان المانتاليا أكبر من المعتاد، ويقدم حماية ممتازة من المراقبة نظرًا لارتفاع النباتات من ٨ إلى ١٢ سوفاد. لم أجد صعوبة في العثور على مكان جيد للهبوط داخل حدود البستان. وبغية منع كشفي من أعلى، أخفيت طائرتي بين أوراق تتخذ شكل قوس لشجرتين من أشجار المانتاليا، ثم بدأت في الحصول على إمدادات من الحليب».

«ونظرًا لأن الأشياء القريبة لا تبدو بمثل جاذبية الأشياء البعيدة، تجولت لمسافة تبعد قليلًا عن طائرتي قبل أن أجد النباتات التي تمنح إمدادات وفيرة كافية من الحليب الغني».

«دخلتُ أيضًا مجموعة من المحاربين الحُضر إلى البستان للحصول على حليب. وبينما كنت أقف بجوار الشجرة قد اخترتها، اكتشف أحدهم وجودي وأسرني. تيقنت من أسئلتهم أنهم لم يروني وأنا أدخل البستان، وأنهم لا يعرفون أي شيء عن طائرتي. لا بد أنهم كانوا في جزء من البستان يتسم بغزارة أوراق الشجر عندما كنت أهبط بطائرتي. على أي حال، هم يجهلون وجود طائرتي، وأنا مصممة على استمرار جهلهم بها».

(٤٦) مانتاليا: نوع من الأشجار كبيرة الحجم، تُسمى أحيانًا «نبات الحليب»، وتوجد في بساتين على وول قيعان البحر الميت. تنمو عمليًا دون ماء، وتفرز كمية وفيرة من عصارة تشبه الحليب - <http://barsoom.fandom.com/wiki/Mantalia> - المترجمة.

«وبعد حصولهم على قدر الحليب الذي يريدونه، عادوا إلى زاناتور وأنا معهم. وأنت تعرف باقي القصة».

سألتها: «هل هذه هي زاناتور؟».

أجابت: «نعم».

سألتها: «وما اسمك؟».

أجابت: «تافيا. وما اسمك؟».

قلت: «تان هادرون، من هاستور».

قالت: «اسم جميل». كانت الطريقة التي تحدثت بها تنم عن صراحة صبيانية، ما أقنعني أنها كانت لتسرع في إخباري إن لم يعجبها اسمي. لم تحمل نبراتها أي إطراء أبله. وعرفت لاحقاً، عندما أصبحت أكثر معرفة بها، أن الصدق والصراحة من السمات التي تميزها. على أنني، في هذه اللحظة، لم أهتم بمثل هذه الأمور لأن ذهني كان مشغولاً بجزء من قصتها، حيث أثارت عندي طريقة سهلة وسريعة للفرار من محتتنا.

سألتها: «هل تعتقدين أن بإمكانك العثور على بستان المانتاليا، حيث أخفيت طائرتك؟».

فأجابت: «أثق تماماً في ذلك».

سألتها: «وهل يمكن أن تسع الطائرة لشخصين؟».

قالت: «إنها طائرة لشخص واحد، لكنها يمكن أن تحمل كلينا، رغم أن ذلك سوف يؤدي إلى خفض سرعتها وارتفاعها».

أخبرتني أن البستان يقع جنوب شرق زاناتور، ولذا أدت رأس

الثوات في اتجاه الشرق. وبعد أن اجتزنا مسافة كبيرة خارج حدود المدينة، تحركنا في اتجاه الجنوب أسفل التلال على قاع البحر الميت. كان القمر ثوريا يبحر في رحلته السريعة عبر السماء، مُلقياً بظلال غريبة دائمة الحركة على الطحلب الأصفر الذي يغطي الأرض، بينما يتخذ القمر كلوروس البارد أعلاه طريقه ببطء وجلال. أنار ضوء القمرين المشهد الطبيعي بوضوح. كنت على يقين من أن أي أعين حريصة يمكنها بسهولة أن تكشفنا عند أنقاض زاناتور، على الرغم من أن ظلال ثوريا سريعة الحركة كانت مفيدة لنا؛ لأن ظلال كل شجيرة أو شجرة واهنة تسفر عن حركة مفرطة على سطح قاع البحر الذي يقل فيه وضوح ظلنا المتحرك. على أن أكثر أمل سعدت بتحقيقه هو أن جميع حيوانات الثوات سارت خلف وحشنا منذ مغادرتنا الفناء، وأنا تركنا المحاربين الخضر دون حيوانات ركوب، وبالتالي لن يتمكنوا من ملاحقتنا.

كان الوحش الضخم الذي يحملنا يتحرك بسرعة وصمت، بحيث لم يمض وقت طويل قبل أن نشهد على بُعد أوراق الشجر الظليلة في بستان المانتاليا، وسرعان ما دخلنا حدوده القاتمة. لم يكن دون صعوبة كبيرة أن عثرنا على طائرة تافيا. ولسعادتي الشديدة أيضاً أننا وجدناها في حالة جيدة؛ فقد شاهدنا أكثر من شكل لظل يتسلل خلال الغابة، وأنا أعرف أن الحيوانات الضارية في التلال القاحلة والقروء البيضاء الكبيرة في المدن المُدمرة كانت مولعة أيضاً بحليب المانتاليا، وسنكون محظوظين، في الواقع، إن تجنبنا أي مواجهة معهم.

وصلنا إلى أقرب مكان ممكن من الطائرة. تركت تافيا على الشواطئ، وترجلت بسرعة، ثم أخرجت الطائرة الصغيرة إلى العراء. أظهر فحص لعناصر التحكم أنها ظلت دون مساس، وهو ما أشعرنى براحة كبيرة؛ فقد خشيت أن تكون الطائرة قد تضررت بفعل القروود الكبيرة، التي تميل إلى الفضول والتدمير.

وما إن تأكدت أن كل شيء على ما يُرام، حتى ساعدت تافيا كي تترجل، وخلال لحظات كنا على سطح الطائرة. استجابت الطائرة بشكل مُرضٍ، على الرغم من بطئها قليلاً، وعلى الفور كنا نطفو بلطف إلى أعلى، في ظل أمان مؤقت لليلة برسومية.

كانت الطائرة من تصميم عفا عليه الزمن الآن في هيليوم؛ فلم تكن مجهزة ببوصلة تحكم في الاتجاه، ما جعل من الضروري أن يظل الطيار دائماً عند لوحات التحكم. مكاننا على السطح الصغير كان ضيقاً للغاية، وتوقعت أن أماننا رحلة غير مريحة. تقطعت أحزمة أماننا المربوطة بنفس الحلقات على السطح، ونحن نرقد على أرضيته المصنوعة من خشب السكيل الصلب ونكاد نكون متلامسين. أما القلنسوة التي تحمي وجوهنا من اندفاع الرياح، التي تولدها سرعتنا البطيئة نسبياً، فلم تكن مرتفعة بما يكفي لتسمح لنا بتغيير مواقعنا إلى حد كبير، على الرغم من أننا كنا نجد راحتنا أحياناً في الجلوس وظهورنا في اتجاه مقدمة السفينة، مما يخفف من ملل البقاء باستمرار في وضع واحد. وعندما كنت أريد إراحة عضلاتي المحشورة، كانت تافيا تتولى توجيه الطائرة. لكن الرياح الباردة في ليل برسوم كانت تعود بي دائماً خلال لحظات وراء القلنسوة.

اتفقنا خلال نقاشنا حول مقصدنا النهائي، أن نتوجه نحو الجنوب الغربي.

أخبرت تافيا برغبتي في الذهاب إلى جاهار وسببها. أبدت اهتمامًا كبيرًا بقصة اختطاف سانوما تورا؛ ومن معرفتها بتول أكستار وعادات وتقاليد جاهار، ظنت أنه من الأكثر احتمالًا العثور على الفتاة المفقودة هناك. أما عن إمكانية إنقاذها، فهذه مسألة أخرى وقد هزت رأسها متشككة.

كان من الواضح أن تافيا لا ترغب في العودة إلى جاهار، إلا أنها لم تضع أي عقبات أمام مسار بحثي عن هدفي الكبير. وفي الواقع، أعطتني موقع جاهار وأدارت بنفسها مقدمة الطائرة نحو المسار الصحيح.

سألتها: «هل ستواجهين خطرًا كبيرًا بعودتك إلى جاهار؟».

أجابت: «سيكون الخطر كبيرًا جدًا، لكن العبد يذهب حيث يذهب سيده».

قلت: «أنا لست سيدك، وأنت لست عبدتي. ولنعتبر أنفسنا رفاق سلاح».

قالت ببساطة: «هذا جميل جدًا»، ثم أضافت بعد برهة، «وإذا كنا رفاقًا، اسمح لي إذن أن أحذرك من الذهاب مباشرة إلى جاهار. سيتعرفون على هذه الطائرة فورًا. وسيدل عتادك على أنك أجنبي، ولن تحقق أي شيء نحو إنقاذ سانوما تورا أكثر من إرسالك إلى حُفر تول أكستار، ثم إشراكك عاجلاً أو آجلاً في المباريات على الساحة الكبيرة،

حيث تُقتل في نهاية المطاف».

سألها: «ماذا تقترحين إذن؟».

«ما وراء جاهار، في اتجاه الجنوب الغربي حيث تقع تجانات، مدينة مولدي. وهي المدينة الوحيدة، من بين جميع المدن في برسوم، التي آمل أن تستقبلني بطريقة ودية، وسوف يستقبلونك بمثل ما يستقبلونني. وهناك يمكنك الإعداد بصورة أفضل لدخول جاهار، وهو ما لا يمكن تحقيقه إلا بالتنكر كمواطن من جاهار؛ ذلك أن تول أكستار لا يسمح لأي غريب بالوجود في حدود إمبراطوريته إلا من يتم إحضارهم كأسرى حرب وعبيد. وفي تجانات، يمكنك الحصول على عتاد ومعادن جاهار، كما يمكنني تدريبك على عادات وآداب إمبراطورية تول أكستار، بحيث تستطيع خلال فترة زمنية قصيرة دخولها ولديك قدر طفيف معقول من الثقة أن بإمكانك خداعهم بشأن هويتك. أما دخولك دون تحضير جيد، فسيكون قاتلاً».

رأيت حكمة مشورتها، وبناء على ذلك غيرنا مسارنا بغية المرور جنوب جاهار، والتوجه مباشرة نحو تجانات، على بُعد ستة آلاف هاد. سافرنا، خلال ما تبقى من الليلة، بمعدل منتظم يبلغ حوالي ستمائة هاد كل زود - وهي سرعة بطيئة مقارنة بطائرة الراكب الواحد الجيدة التي حضرت بها من هيليوم.

ومع شروق الشمس، كان لون الطائرة الأزرق المروع هو أول ما جذب انتباهي بوجه خاص.

قلت صائِحًا: «ما هذا اللون الغريب للطائرة!».

نظرت تافيا نحوي، وقالت: «هناك سبب جيد؛ سبب سوف تفهمه تمامًا قبل أن تدخل جاهاً».



الفصل (٥)

إلى الحُفر

امتد أسفلنا المشهد الطبيعي الغريب لليل برسوم، في ضوء القمرين دائم التغيُّر، حيث تبتعد طائرتنا في تحليقها البطيء بحمولتها عن زاناتور فوق التلال المنخفضة التي تُعين الحدود الجنوبية الغربية لجحافل التوركواس الحُضر الشرسين. ناقشنا، مع حلول يوم جديد، مدى استصواب الهبوط وانتظار حلول الليل قبل متابعة رحلتنا؛ فقد أدركنا أن أملنا في الهروب قد يضيع إن شاهدتنا زوارق الأعداء.

قالت تافيا: «تمر طائرات قليلة من هذا الطريق، وأعتقد أننا إذا واصلنا المراقبة الجيدة سنكون آمنين في الهواء كما على الأرض؛ فعلى الرغم من أننا خرجنا من حدود توركواس، لا يزال الخطر قائماً من غارات مجموعاتهم التي غالباً ما تصل إلى أبعد من ذلك بكثير».

وعلى هذا النحو تقدمنا ببطء في اتجاه تجانات، وأعيننا تمسح السماء باستمرار في جميع الاتجاهات.

إن رتبة المشهد الطبيعي، علاوة على بطاء تقدمنا، كان يمكن في العادة أن يجعل هذه رحلة لا تُطاق بالنسبة لي؛ ولدهشتي، مر الوقت بسرعة. وأعتقد أن هذا يرجع أساساً إلى لُطف وذكاء رفيقتي، فلا يمكن إنكار أن تافيا كانت صُحبة ممتازة. أعتقد أننا تحدثنا عن كل شيء في برسوم، وبطبيعة الحال دار قدر كبير من الحديث عن خبراتنا وشخصياتنا، بحيث شعرت - قبل أن نصل إلى تجاناث بوقت طويل - أنني أعرف تافيا أكثر من أي امرأة أخرى عرفتها، وكنت على يقين أنني لم أضع ثقتي بالكامل في أي شخص آخر.

كان لتافيا طريقة تجبرك على الثقة. لهذا، ولدهشتي، وجدت نفسي أناقش أكثر تفاصيل حياتي السابقة حميمية معها، آمالي، طموحاتي وتطلعاتي، فضلاً عن المخاوف والشكوك التي أتصور أنها تهاجم عقول جميع الشباب.

شعرت بإحراج صادم عندما أدركت تماماً كيف كشفت عن مكنون نفسي لهذه العبدة الصغيرة، لكن صدق اهتمام تافيا بدد هذا الشعور، مثلما بدده إدراكي بأنها تبادلني الثقة نفسها.

قطعنا المسافة بين زاناتور وتجاناث في ليلتين ويوم. وما إن لاحظت أبراج ومنصات هبوط وجهتنا في الأفق البعيد، نحو نهاية الزود الأول من اليوم الثاني، حتى أدركت أن الساعات التي امتدت منذ تركنا زاناتور كانت - لسبب يصعب تفسيره - بمثابة فترة سعيدة لم أعشها من قبل. انتهينا الآن. وتجاناث أماننا، شعرت بأسف واضح أنها لا تقع على الجانب الآخر من برسوم.

وباستثناء سانوما تورا، لم أحرص من قبل بشكل خاص أن أكون بصحبة نساء. لا أقصد نقل انطباع بأنني لم أكن أحبهن، فهذا غير صحيح لأن صحبتهن بين الفينة والأخرى كانت لطيفة واستمتعت بها؛ لكن وجودي لساعات عديدة في صحبة امرأة واحدة لا أحبها وإنما أستمتع بكل دقيقة معها، قد بدا لي من ضروب المستحيل. على أن هذه حقيقة ما حدث، ووجدت نفسي أتساءل عن إذا كانت تافيا تشاركني الاستمتاع بالمغامرة.

قلت، مُشيرًا إلى اتجاه المدينة البعيدة: «لا بد أن هذه هي تجانات». فأجابت: «نعم».

غامرت بالقول: «لا بد أنك سعيدة بانتهاء الرحلة». ألفت نظرة سريعة نحوي، وتقلص حاجباها فجأة وهي تُفكر، ثم أجابت على نحو غامض: «ربما يجب أن أكون سعيدة». قلت لتذكيرها: «هذا وطنك».

أجابت: «ليس لديّ وطن». قلت بإصرار: «ولكنّ أصدقاءك هنا». قالت: «ليس لديّ أي أصدقاء».

قلت لتذكيرها: «نسيت هادرون الهاستوري». «كلا»، قالت، «لم أنس أنك كنت لطيفًا معي، لكنني أتذكر أنني مجرد حادث صادفك خلال بحثك عن سانوما تورا. ربما تذهب غدًا، ولن نتقابل ثانية».

لم أفكر في ذلك، ووجدتني لا أحب التفكير في الأمر؛ لكنني أعرف أنه صحيح. قلت: «سرعان ما ستقيمين صداقات هنا».

أجابت: «أمل ذلك. لكنني ذهبت منذ وقت طويل وكنت صغيرة جدًا عند اختطافي، ولذا لا أتذكر سوى أقل القليل عن حياتي في تجاناث. تجاناث لا تعني لي شيئًا بالفعل. يمكنني أن أشعر بالسعادة في أي مكان آخر في برسوم مع ... مع صديق».

نحن الآن أعلى جدار المدينة الخارجي، وانقطع حديثنا بظهور طائرة، يبدو أنها لدورية تقترب منا. كانت تُصدر صوت إنذار - ويمزق صراخ بوقها الحاد صمت الصباح الباكر. وعلى الفور التقطت الأجراس التحذير، وأطلقت صفارات الإنذار في جميع أنحاء المدينة. قام زورق الدورية بتغيير مساره وارتفع فوقنا بسرعة، بينما ارتفعت من جميع منصات الهبوط عشرات الطائرات المقاتلة حتى أصبحنا محاطين بها كلية.

حاولت توجيه التحية إلى أقربهم، لكن صوتي غرق في الضجيج الجهنمي لإشارات التحذير. غطتنا مئات البنادق، وكانت طواقمها تقف جاهزة لتدميرنا.

سألت تافيا: «هل تجاناث تستقبل الزوار دائمًا بهذه الطريقة العدائية؟».

هزت رأسها قائلة: «لا أعرف. ربما فهمت ذلك لو كنا أتينا في سفينة غريبة من سفن الحرب؛ ولكن، لماذا تجذب طائرتنا الاستطلاعية الصغيرة نصف قوات تجاناث البحرية ... انتظر!»، صاحت فجأة. «إن

تصميم ولون طائرنا يشير إلى أنها من جاهار. لقد رأى شعب تجاناث هذا اللون من قبل ويخشونه؛ إذن، لو هذا صحيح، لماذا لم يطلقوا علينا النار؟».

أجبت: «لا أعرف لماذا لم يطلقوا علينا النار من البداية، لكن من الواضح لماذا لا يطلقونه الآن. سفنهم حولنا كثيرة جدًا، ولا يمكنهم إطلاق النار دون تعريض رجالهم وطائراتهم إلى الخطر». سألتني: «ألا توجد طريقة يمكنك خلالها أن توضح لهم أننا أصدقاء؟».

أطلقت على الفور إشارات الصداقة والاستسلام، لكن السفن بدت تخشى الاقتراب. توقفت إشارات الإنذار، وظلت السفن تحلق حولنا بصمت.

قمت ثانية بتحية سفينة قريبة. وصحت: «لا تطلقوا النار؛ نحن أصدقاء».

أجاب ضابط على سطح السفينة التي وجهت لها التحية: «الأصدقاء لا يأتون إلى تجاناث في سفن الموت الزرقاء لجاهار». قلت بإصرار: «دعنا نقترّب، على الأقل لأثبت لكم أننا لن نسبب أي ضرر».

أجاب: «لن تأتي بجوار سفيتي. وإذا كنتم أصدقاء، يمكنكم إثبات ذلك بالقيام بما أطلبه منكم». سألته: «ماذا تريد؟».

«عليك تغيير اتجاهك وأخذ طائرتك خارج أسوار المدينة، ثم تهبط بها على مسافة هاد على الأقل وراء البوابة الشرقية، وبعد ذلك يمكنكما السير نحو المدينة».

سألته: «هل تعطينا وعدًا بحسن استقبالنا؟».

أجاب: «سوف نستجوبكما، وإذا كان الأمر على ما يرام، فما من شيء يدعوكم للخوف».

أجبت: «حسنًا، سنفعل ما تطلبه. أعطِ إشارة لسفنكم الأخرى كي تفسح لنا الطريق». وعندما فتحوا لنا ممرًا، طرنا خلاله ببطء فوق أسوار تجاناث وهبطنا على مسافة هاد تقريبًا خارج البوابة الشرقية.

وعند اقترابنا من المدينة، تأرجحت البوابات مفتوحة وخرجت كتية من المحاربين لمقابلتنا. كان من الواضح أنهم يتشككون فينا ويخافون منا. أمرنا بادوار الكتية بالتوقف، رغم أن المسافة بيننا وبينهم كانت لا تزال مائة سوفاد.

قال أمرًا: «عليكم إلقاء أسلحتكم، ثم التحرك إلى الأمام».

قلت: «لكننا لسنا أعداء. ألا يعرف شعب تجاناث كيف يستقبل الأصدقاء؟».

كانت إجابته الوحيدة: «عليكما تنفيذ ما أقوله، أو سندمركما».

لم يسعني إلا أن أهز كتفي اشمئزًا وأنا أسلمهم أسلحتي، بينما ألقت تافيا السيف القصير الذي كنت أعطيته لها. تقدمنا دون سلاح نحو المحاربين، ومع ذلك لم يبد البادوار مستريحًا تمامًا؛ فقد قام بتفتيش

عتادنا بعناية قبل أن يقتادنا أخيراً إلى المدينة، مع استمرار إحاطتنا بالمحاربين.

عند إغلاق البوابة الشرقية لتجانات خلفنا أدركت أننا سجناء ولسنا ضيوفاً كما كنا نأمل، لكن تافيا حاولت طمأنتي بالإصرار على أنهم عندما يسمعون قصتنا سوف يعطوننا حريتنا ويمنحونا الضيافة الواجبة. قادنا الحراس إلى مبنى على الجانب الآخر من الشارع المواجه للبوابة الشرقية. ونحن الآن عند منصة هبوط واسعة على سطح المبنى. كانت تنتظرنا هنا طائرة دورية، وقام البادوار بتسليمنا إلى الضابط المسؤول، الذي اتسم موقفه تجاهنا بكرهية وعدم ثقة مستترين. ارتفعت طائرة الدورية بمجرد صعودنا على متنها، وحلقت في اتجاه وسط المدينة.

تقع أسفلنا مدينة تجانات، وتعطي انطباعاً بأنها لم تكن مواكبة للتطورات الحديثة. فقد بدت فيها علامات من العصور القديمة؛ عكست المباني الهندسة المعمارية للقدماء، وكان العديد منها في حالة سيئة، على الرغم من أن الكثير من القبح في المدينة كانت تخفيه أو تخففه أوراق الأشجار الكبيرة ونبات الكروم المتسلق، بحيث كان المشهد إجمالاً يبعث على الرضى. توجد ساحة كبيرة في اتجاه وسط المدينة، ومحاطة كلياً بمبانٍ عامة فاخرة، بما فيها قصر الجد. هبطت الطائرة على سطح أحد هذه المباني.

قادونا تحت حراسة قوية إلى داخل المبنى. وبعد فترة انتظار قصيرة، أدخلونا إلى حضرة أحد كبار المسؤولين. ومن الواضح أنهم

أبلغوه بالفعل بالظروف المحيطة بوصولنا في تجاناث، لأنه كان يتوقعنا وعلى دراية بكل ما حدث حتى اللحظة الراهنة.

سألنا: «ماذا تفعلان في تجاناث، أيها الجاهاريان؟».

قلت: «أنا لست من جاهار. انظر إلى معادني».

أجاب بخشونة: «قد يُغير المحارب معادنه».

قالت تافيا: «لم يُغير هذا الرجل معادنه. وهو ليس من جاهار؛ إنه من هاستور، إحدى مدن هيليوم. وأنا من جاهار».

نظر إليها المسؤول في دهشة، وصاح: «تعترفين بذلك إذن!».

قالت الفتاة: «لكني أصلاً من تجاناث».

سألها: «ماذا تقصدين؟».

أجابت تافيا: «لقد سُرقت من تجاناث عندما كنت طفلة صغيرة. ومنذ ذلك الحين وأنا عبدة في قصر تول أكستار، جيداك جاهار». وقد تمكنت مؤخراً من الفرار في الطائرة نفسها التي وصلنا بها إلى تجاناث. هبطت بطائرتي بالقرب من مدينة زاناتور الميتة، وأسرنى رجال توركواس الخُضر. وهذا المحارب، وهو هادرون الهاستوري، أنقذني منهم. وجئنا معاً إلى تجاناث، متوقعين استقبلاً ودياً».

سألها المسؤول: «من هم أهلك في تجاناث؟».

أجابت تافيا: «لا أعرف؛ كنت صغيرة جداً. لا أتذكر عملياً أي شيء عن حياتي في تجاناث».

«ما اسمك؟».

«تافيا».

كان اهتمام الرجل بقصتها يبدو سطحيًا تمامًا، لكنه تغير فجأة وبدأ عليه الاندهاش.

سألها: «هل تعرفين أي شيء عن والدكِ أو عائلتك؟».

أجابت تافيا: «لا أعرف أي شيء».

التفت إلى البادوار المسؤول عن مرافقتنا، وقال: «احتفظ بهما هنا حتى أعود»، ثم نهض من مقعده وغادر الشقة.

قلت لتافيا: «يبدو أنه تعرّف على اسمكِ».

سألتني: «كيف يمكنه؟».

قلت: «ربما كان يعرف عائلتك. فطريقته تطرح على الأقل أنهم سيعطوننا بعض الاعتبار».

قالت: «آمل ذلك».

قلت لها مؤكّداً: «أشعر أن مشاكلنا على وشك أن تنتهي، تافيا؛ وسأسعد كثيراً لأجلك».

قالت: «وأنت، أظن أنك سوف تحاول الحصول على مساعدة لمواصلة بحثك عن سانوما تورا؟».

قلت: «بالطبع. هل تتوقعين مني أقل من ذلك؟».

أقرت بصوت شديد الانخفاض: «كلا».

على الرغم من أن شيئاً في سلوك المسؤول الذي استجبنا قد

منحني الأمل في مستقبلنا، فقد شعرت بالاكْتئاب لأن حديثنا يؤكد اقتراب انفصالنا. شعرت كأنني عرفت تافيا دومًا، ذلك أن الأيام التي أمضيناها معًا قد جعلتنا في الواقع قريبين جدًّا. أعرف أنني سأفتقد خفة دمها وتألُّقها، وتعاطفها الدائم ورفقة صمتها الهادئ؛ ثم برزت ملامح سانوما تورا الجميلة في ذاكرتي. ولأنني أعرف أين يكمن واجبي، أَلقيت أسفي جانبًا، لأنني أعرف أن الحب أكبر من الصداقة، وأنا أحب سانوما تورا.

عاد المسؤول إلى الشقة ثانية بعد فترة طويلة. تأملت وجهة لقراءة أول بَشائر الأخبار الجيدة، لكن تعبيره كان مبهمًا. على أن كلماته الأولى الموجهة إلى البادوار كانت مفهومة تمامًا.

قال: «احتجز المرأة في البرج الشرقي، وأرسل الرجل إلى الحُفَر». هذا كل شيء. إنها مثل صفحة على الوجه. نظرت إلى تافيا ورأيت اتساع نظرة عينيها نحو المسؤول. قالت: «تعني معاملتنا كسُجناء؟ أنا ابنة تجاناث، وهذا المحارب الذي أتى إلى هنا من دولة صديقة يلتمس معونتك وحمايتكم؟».

قاطعها المسؤول: «سوف تُخصص لكل منكما لاحقًا جلسة استماع أمام الجد. لقد تحدثت. خذوهما».

أمسك بي العديد من المحاربين بخشونة من ذراعي. مضت تافيا بعيدًا عن المسؤول، وكانت تنظر نحوي. قالت: «وداعًا، هادرون الهاستوري! إنه خَطِيئتي أنك هنا. ليغفر لي أسلافي!».

رجوتها: «لا تلومي نفسك، تافيا، فمن كان يمكنه أن يتوقع مثل هذا الاستقبال الغبي؟».

أخرجونا من الشقة من بايين مختلفين؛ استدرنا ليلقي كل منا آخر نظرة على الآخر. ملأت الدموع عيني تافيا، وقلبي.

اقتادوني على الفور إلى حُفر تجاناث، التي كانت قاتمة وإن لم تكن مُغلقة في ظلام لا يمكن اختراقه - مثلها مثل الحُفر الموجودة أسفل معظم مدن برسوم. تسرب إلى الزنانة، خلال قضبانها الحديدية، ضوء الممرات الخافت؛ حيث كانت مصابيح الرادיום القديمة تضيء بخفوت. على أي حال هناك ضوء، وصليت شاكرًا لأنني كنت أعتقد دائمًا أنني سوف أصاب بالجنون إن سُجنت في ظلام مطلق.

كانت قيودي شديدة ورأيت أنها بلا داع؛ فقد قيدوني بالسلاسل إلى حلقة حديدية ضخمة تنغرس بعمق في جدار زنزانتني، ثم غادروا وهم يُغلقون أيضًا الحاجز الحديدي أمام المدخل.

ابتعدت خطوات المحاربين إلى أن تلاشت، ثم سمعت صوتًا خافتًا لشيء يتحرك بالقرب مني في الزنانة. تُرى ما هذا؟ أجهدت عيني في الظلام القاتم.

اعتادت عيناى الآن على ضوء زنزانتني الخافت، ورأيت هيئة رجل رابض على الجدار بالقرب مني. تحرك الرجل وسمعت الصوت ثانية، لكنه كان مصحوبًا هذه المرة بقعقة سلسلة؛ ثم رأيت وجهًا ينظر نحوي، لكنني لم أستطع تمييز ملامحه.

قال صوت جاء من الشخصية التي لم تكن واضحة بجواري:
«ضيف آخر يشاركني كرم الضيافة في تجانات». كان الصوت واضحًا
- صوت رجل - وأعجبني جرسه النوعي.

سألته: «هل يستضيف مضيفونا كثيرين مثلنا؟».

أجاب: «لم تكن هذه الزنانة تضم سوى ضيف واحد، والآن تضم
اثنين. هل أنت من تجانات أم من مكان آخر؟».

«أنا من هاستور، مدينة إمبراطورية تاردوس مورس، جيداك هيليوم».

قال: «أنت على مسافة بعيدة عن وطنك».

أجبت: «نعم؛ وأنت؟».

أجاب: «أنا من جاهار. اسمي نور آن».

قلت: «وأنا اسمي هادرون. لماذا أنت هنا؟».

أجاب: «أنا سجين لأنني من جاهار. وأنت، ما جريمتك؟».

قلت: «لأنهم يعتقدون أنني من جاهار».

«وما الذي جعلهم يعتقدون ذلك؟ هل ترتدي معادن جاهار؟».

«كلا، أنا أرتدي معادن هيليوم، لكن ما حدث أنني أتيت إلى

تجانات في طائرة جاهارية».

أصدر صفيراً، ثم قال: «هذا قد يصعب تفسيره».

قلت مؤكداً: «هذا صحيح. لم يصدقوا أي كلمة في قصتي، أو في

قصة من كان في صحبتي».

سألني: «كانت لديك صحبة إذن، أين هو؟».

«إنها امرأة. وُلدت في تجانات، لكنها ظلت لسنوات طويلة عبدة في جاهاار. ربما يصدقون قصتها لاحقًا، لكننا الآن في السجن. سمعتهم يأمرّون بإيداعها في البرج الشرقي، بينما أرسلوني هنا إلى السجن».

«وهنا، سوف تبقى إلى أن تتعفن، إلا إذا كنت محظوظًا بما يكفي ليستدعوك إلى المباريات، أو سيئ الحظ بما يكفي للحكم بإرسالك إلى الهلاك».

سألته، وقد أثار تركيزه على الكلمات فضولي: «وما هو 'الهلاك'؟».

«لا أعرف»، أجاب، «يتحدث عنه كثيرًا المحاربون الذين يأتون إلى هنا، باعتباره شيئًا فظيئًا جدًّا. ربما يفعلون ذلك لتخويفي؛ ولكن إذا كان كلامهم صحيحًا، فلم أشعرهم بالارتياح، لأنني -سواء كنت خائفًا من عدمه- لا أسمح لهم برؤية ذلك».

قلت: «لنأمل في المباريات إذن».

قال زميلي: «إنهم هنا في تجانات مملون وأغبياء. وقد أخبرني المحاربون أنه في بعض الأحيان تنقضي سنوات عديدة بين مباريات الحلبة، لكننا نأمل على الأقل؛ فالموت هناك بسيف طويل جيد في يد شخص أفضل بالتأكيد من التعفن هنا في الظلام، أو الموت في 'الهلاك'، مهما كان».

قلت: «هذا صحيح. لتتضرع إلى أسلافنا أن يقرر جد تجانات إقامة المباريات في المستقبل القريب».

«أنت إذن من هاستور»، قال بعد لحظة تأمل صامتة: «إنها مسافة طويلة من تجانات. من المؤكد أنها مهمة مُلحة تلك التي أحضرتك من هذه المسافة البعيدة!».

أجبت: «كنت أبحث عن جاهار».

قال: «ربما من حسن حظك أنك وجدت تجانات أولاً؛ فعلى الرغم من أنني جاهاري، لا يمكنني التباهي بكرم الضيافة في جاهار».

سألته: «تعتقد إذن أنني لم أكن لأحظ بترحيب حار هناك؟».

صاح بشدة لافتة للنظر: «كلا، باسم سلفي الأول، كان تول أكستار سيلقيك في الحُفر قبل أن يسأل عن اسمك؛ والحُفر في جاهار ليست مضيئة أو مُسلية كهذه».

قلت: «لم تكن في نيتي أن يعرف تول أكستار بزيارتي».

سألني: «هل أنت جاسوس؟».

أجبت: «كلا. اختطف الجاهاريون ابنة قائد الأوماك الذي التحق به، ولديَّ سبب للاعتقاد أنهم اختطفوها بأوامر من تول أكستار نفسه. وهدف رحلتي هو إنقاذها».

قال بخفة: «وتقول هذا لجاهاري؟».

أجبت: «بثقة كاملة. فمن البداية قرأت في كلماتك ونبرة صوتك أنك لست صديقاً لتول أكستار، جيداك جاهار؛ وثانياً، تبدو فرص عودتك إلى جاهار ضئيلة».

قال: «أنت على حق في كلا التخمينين. إنني بالقطع لا أحب تول

أكستار. إنه وحش، يكره جميع الرجال المحترمين. وسبب كراهيتي له يماثل كثيرًا سبب كراهيتك له، إلى حد وجود رابط مشترك بيننا في الواقع».

سألته: «وكيف ذلك؟».

«لم أشعر طوال حياتي إلا بالازدراء تجاه تول أكستار، جيداك جاهار، على أن هذا الازدراء لم يتحول إلى كراهية حتى سرق امرأة؛ وسرقة امرأة هي أيضًا ما وجهت حقدك ضده».

سألته: «امرأة من عائلتك؟».

أجاب نور آن: «حببتي، المرأة التي كنت سأتزوجه. أنا من عائلة نبيلة، من سلالة قديمة وثروة كبيرة. ولهذا كان تول أكستار يعرف أن لديه سببًا وجيهًا للخوف مني، ودفعه هذا الخوف إلى مصادرة ممتلكاتي وحكم عليّ بالإعدام. ونظرًا لكثرة أصدقائي في جاهار، وأحدهم محارب من الحرس، تستر على فراري بعد أن سجنوني في الحُفر».

«اتخذت طريقي إلى تجانات وحكيت قصتي إلى الجد هاج أوسيس، وألقيت سيفي تحت قدميه وأنا أعرض عليه خدماتي. لكن هاج أوسيس أحرق عجز ومفعم بالشك، واعتبرني جاسوسًا من جاهار وأمر بإلقائي في الحُفر. وأنا هنا منذ فترة طويلة».

قلت: «لا بد أن جاهار بلد تعيس، لأن رجلاً مثل تول أكستار هو حاكمها. لقد سمعت عنه الكثير مؤخرًا، لكنني لم أسمع عنه حتى الآن فضيلة واحدة».

قال نور آن: «إنه لا يتمتع بأي فضيلة. هو طاغية قاسٍ وعفن، علاوة على الفساد والرذيلة. إذا كانت أي من القوى العظمى في برسوم قد خمنت ما يدور في ذهنه، لكانوا أخضعوا جاهار منذ فترة طويلة ودمروا تول أكستار».

سألته: «ماذا تقصد؟».

«يتبنى تول أكستار، منذ مائتي سنة على الأقل، حلمًا رائعًا، وهو إخضاع برسوم كلها. وخلال تلك الفترة، جعل القوى العاملة معبودة؛ لا يجوز تدمير أي بيض، وإجبار جميع النساء على المحافظة على ما تضعه من بيض^(٤٧). وهناك جيش من الموظفين والمفتشين يسجلون إنتاج كل امرأة. ويكافئون النساء اللاتي ينتجن أكبر عدد من الذكور؛ ويقتلن غير المنتجات. وعندما اكتشف أن الزواج يميل إلى تخفيض إنتاجية الإناث في جاهار، أصدر مرسومًا إمبراطوريًا لحظر الزواج بين أي طبقات أقل من طبقة النبلاء.

«وكانت النتيجة زيادة مروعة في عدد السكان إلى أن أصبحت العديد من المقاطعات في جاهار غير قادرة على دعم الأعداد الهائلة التي تحتشد مثل النمل في التل. ليس بمقدور أغنى الأراضي الزراعية في برسوم دعم مثل هذه الأعداد؛ وقد استنفدت جميع الموارد الطبيعية؛ ويموت الملايين جوعًا، ويتنشر أكل لحوم البشر في العديد من المناطق.

«وطوال كل ذلك الوقت، كان ضباط تول أكستار يتولون تدريب

(٤٧) نساء المريخ لا يلدن، بل يضعن البيض.

الذكور على الحرب، ويزرعون فكرة الحرب داخل عقولهم في فترة مبكرة من وعيهم. وأصبحوا يتطلعون إلى الحرب، الحرب فقط، للتخفيف من ظروف اضطهادهم البشعة. واليوم تطالب ملايين لا تُحصى بالحرب، لإدراكها أن النصر يعني النهب، وأن النهب يعني الطعام والثروات. يقود تول أكستار بالفعل جيشًا هائلًا، بحيث قد يقع مصير برسوم بسهولة في راحة يده، لولا وجود عقبة واحدة».

سألته: «وما هي؟».

أجاب نور آن: «تول أكستار جبان. بعد أن حقق حلمه في القوى العاملة، يخاف من استخدامها خشية أن يفرض المصير وقوع أحداث تؤدي إلى فشل خططه العسكرية وتنهزم قواته. ولذلك ينتظر، بينما يحث علماء جاهاار على إنتاج أسلحة ذات قوة فائقة تدمر أي شيء يمتلكه أي أمة أخرى في برسوم بحيث تصبح جيوشه لا تُقهر».

«وقد ظلت أفضل العقول في جاهاار تجتهد لسنوات إلى أن تمكن أحد أبرز علمائنا، وهو رجل مُسن يُدعى فور تاك، من تطوير بندقية ذات خصائص مذهلة».

«أثار نجاح فور تاك غير علماء آخرين. وعلى الرغم من أن الرجل العجوز أعطى تول أكستار ما كان يريده، لم يُظهر له الطاغية أي امتنان، وتعرض فور تاك لإهانات واضطهاد جعله يهرب في نهاية المطاف من جاهاار».

«بيد أن ذلك لا يشكل أهمية. لقد فعل فور تاك كل ما يمكن أن

يفعله لتول أكستار، وكان الجيداك، مع بندقية جديدة في حوزته، سعيدًا بالتخلص من عالم عجوز».

انصب اهتمامي، بطبيعة الحال، على البندقية التي تحدث عنها نور آن، وتمنيت أن يخوض في وصفها بتفصيل أكبر، لكنني لم أجرو أن أطلب منه ذلك، خشية أن يحول الولاء الطبيعي الذي يشعر به كل رجل لموطن دون إفشاء أسرار عسكرية لشخص غريب. بيد أنني عرفت أن هذه المشاعر الوطنية السامية، التي تُعد جزءًا من كل رجل في هيليوم، تتولد من الحب والاحترام الذي نكنه لكل جيداك هيلومي عظيم بقدر ما تتولد من ارتباطنا الطبيعي لموطن ميلادنا؛ بينما من ناحية أخرى، لا يشعر الجاهاريون سوى بالازدراء والبغض تجاه رئيس بلدهم؛ ولأنهم لا يشعرون بالولاء له، وهذا هو وضعهم بالفعل، كانوا يعتبرون الوطنية ليست أكثر من شعار فارغ، استخدمها سيد غير جدير بها لتحقيق أغراضه، بحيث أصبحت بلا معنى. وعلى هذا النحو، في حين كنت مندهشًا الآن، فقد فهمت لاحقًا لماذا شرح لي طواعية نور آن بالتفصيل كل ما يعرفه عن سلاح جاهار الجديد الغريب ووسائل الدفاع ضده.

واصل حديثه بعد لحظة صمت: «هذه البندقية الجديدة ستجعل جميع الجيوش والقوات البحرية الأخرى في برسوم عاجزة أمامنا. فهي تطلق أشعة غير مرئية، يؤدي تأثير اهتزازاتها إلى تغيير تكوين المعادن على نحو يسبب تفككها. أنا لست عالمًا؛ لا أفهم التفسير الدقيق لهذه الظاهرة، ولكن مما تمكنت من فهمه خلال مناقشة هذا السلاح الجديد في جاهار عندي انطباع أن هذه الأشعة تُغير قطبية البروتونات في المواد

المعدنية، وتُطلق الكتلة بمجمّلها كإلكترونات حرة. كما سمعت أيضاً في شرح النظرية أن فور تاك اكتشف، خلال بحثه، تطابق المبدأ الرئيس الذي يشكل أساس الزمان والمادة والمكان، وأن ما تحقّقه الأشعة التي تطلقها بندقيته هو بالفعل تحويل أي كتلة من المعدن توجه نحوها إلى أبسط مكونات المكان.

«على أي حال، يمتلك تول أكستار القوى العاملة والسلاح، ومع ذلك لا يزال متردداً. إنه خائف ويسعى إلى أعذار لتأجيل حرب الغزو والنهب التي يطالب بها الملايين من رعاياه الآن. وتحقيقاً لهذه الغاية، وضع خطة تقوم على الإصرار على وسيلة للدفاع ضد هذه البندقية الجديدة، واستند في مطلبه إلى إمكانية اكتشاف بعض القوى الأخرى أيضاً لسلاح مماثل، أو في النهاية عن طريق استخدام جواسيس أو مخبرين لمعرفة السر من جاهاً. وربما لدهشته الكبيرة، ولشعوره دون شك بالحرج، أن الرجل الذي كان مساعداً في مختبر فور تاك قد تمكن الآن من تطوير مادة من شأنها تبديد أشعة السلاح الجديد، ما يجعلها أشعة عديمة الضرر. وبهذه المادة زرقاء اللون، يدهنون الآن الأجزاء المعدنية لسفن وأسلحة وعتاد جاهاً.

«لكن تول أكستار قرر ثانية تأجيل حربه، مُصراً على إنتاج كمية ضخمة من البنادق الجديدة وأسطول قوي من السفن الحربية ليضع عليها تلك البنادق. ثم يقول إنه سوف يبحر ويقهر برسوم كلها».

اتضح أمامي تماماً الآن تدمير زورق الدورية فوق هيليوم ليلة اختطاف سانوما تورا. وعندما أخبرني نور آن في وقت لاحق أن تول

أكستار أرسل طائرات تجريبية لمهاجمة تجاناث، فهمت لماذا سببت الطائرة الزرقاء، التي أوصلتنا أنا وتافيا، مثل هذا الذعر. بيد أن الفكرة التي أزعجتني، إلى حد استبعاد محنة سانوما تورا، هي أنه في مكان ما في هواء برسوم الرقيق يتحرك أسطول كبير من هيليوم للهجوم على جاهار، أو على الأقل هذا ما أتصوره، فليس لديّ أي سبب للشك في أن كبير الخدم في قصر تور هاتان لم يُسلم الرسالة التي أعطيتها له إلى أمير الحرب. إن فكرة بقائي هنا مقيّدًا في حُفر تجاناث، بينما يسرع أسطول كبير من هيليوم إلى التدمير، قد ملأتني بالرعب. لقد رأيت بعيني آثار هذا السلاح الجديد الرهيب، وكنت أعرف أنه لم يكن حلمًا فارغًا من جانب نور آن عندما قال إن بإمكان تول أكستار قهر عالمًا بهذا السلاح؛ لكنّ هناك دفاعًا في مواجهته. إذا أمكنني فقط أن أستعيد حريتي، لن يقتصر الأمر على تحذير سفن هيليوم وإنقاذها من موت حتمي، وإنما قد اكتشف أيضًا خلال بحثي عن سانوما تورا في مدينة جاهار، سر الدفاع ضد الأسلحة التي تمكن الجاهاريون من تطويرها.

الحرية! كانت تبدو سابقًا أكثر شيء مرغوب في العالم؛ أما الآن فقد أصبحت ضرورية.



الفصل (٦)

الحكم بالموت

لم أبقَ طويلاً في حفر تجاناث قبل وصول المحاربين، الذين فكوا أغلالي واقتادوني خارج زنزاني. محاربان اثنان فقط، ولاحظت إهمالهما وتراخي انضباطهما خلال مرافقتي إلى الطابق العلوي من القصر؛ وتصورت حينذاك أن ذلك لا يعني سوى تغيير موقف المسؤولين وأني سوف أحظى بحريتي.

لا يوجد شيء لافت للنظر في قصر جد تجاناث. كان مكاناً فقيراً مقارنة بقصور بعض كبار نبلاء هيليوم. ومع ذلك لا أعتقد أنني أوليت من قبل هذا الاهتمام الكبير بتفاصيل كل معمار، وكل ممر ومدخل، أو بسلوك وعتاد وزخارف الناس الذين مروا بنا؛ فعلى الرغم من أن الأمل في أنني على وشك نيل حريتي لم يفارق قلبي، فقد كنت أعتبر هذا المكان بمثابة سجنى وهؤلاء الناس هم السجنانون. ونظراً لأن هدفي كان الهرب، عازمت على عدم ترك أي تفاصيل تغيب عن عيني، فربما تساعدني بأي طريقة إذا آن أوان استرداد حريتي.

تلك كانت الأفكار التي تشغل موقع الصدارة في ذهني وهم يقتادوني خلال بوابات واسعة إلى حضرة محارب مرصع بالجواهر. وما إن وقعت عيني عليه، حتى أدركت على الفور أنني في حضرة هاج أوسيس، جد تجانات.

توقف حارساي أمامه، وأخذ الجد يتفحصني باهتمام شديد، وفي مناخ من الشك الذي يُعد سمته المميزة.

سألني: «اسمك وبلدك؟».

أجبت: «أنا هادرون من هاستور، بادوار في سلاح البحرية في هيليوم».

قال، موجهاً لي الاتهام: «أنت من جاهار. وقد جئت إلى هنا من جاهار، مع امرأة من جاهار، في طائرة جاهارية. هل تنكر ذلك؟».

أخبرت هاج أوسيس بالتفصيل كل شيء أدى إلى وصولي تجانات. أخبرته أيضًا بقصة تافيا. ويجب أن أشيد على الأقل بصبره في الاستماع، على الرغم من شعوري الدائم بأنني أقدم التماسي إلى عقل متحامل ضدي بالفعل، بحيث لا يوجد شيء يمكنني قوله قد يُغير اقتناعه.

دل سلوك رؤساء القبائل ورجال الحاشية الذين يحيطون بالجد على شكوكهم، وأصبحت مقتنعا بأن الخوف من تول أكستار قد استحوز عليهم إلى حد العجز عن النظر بذكاء في أي مسألة تتصل بأنشطة جيداك جاهار. الذعر جعلهم متشككين، والشك يرى كل شيء

من خلال عدسات مشوهة.

بعد أن انتهيت من قصتي، أمر هاج أوسيس بإخراجي من الغرفة وأخذوني إلى غرفة انتظار صغيرة لبعض الوقت، بينما يناقش حالتي -كما تخيلت- مع مستشاريه.

وعندما اقتادوني إلى حضرته ثانية، شعرت أن جو القاعة كله ملبد بالعداء. وقفت للمرة الثانية أمام المنصة التي يجلس الجِد فوقها على كرسي العرش المنحوت.

أعلن هاج أوسيس، بغضب في وجهي: «قوانين تجانات عادلة، وجد تجانات رحيم. يُعامل أعداء تجانات بعدالة، لكنهم لا يتوقعون الرحمة. أنت يا من تسمي نفسك هادرون الهاستوري، مُدان باعتبارك جاسوس أخبث أعدائنا، تول أكستار من جاهار. وعلى هذا النحو، أحكم عليك، أنا هاج أوسيس، جد تجانات، بالموت في 'الهلاك'. لقد تحدثت». وبلقطة قاسية، ألمح إلى الحراس لإخراجي.

الحُكم غير قابل للاستئناف. تقرر موتي. استدرت في صمت، وغادرت القاعة بصحبة حرس من المحاربين. لكنني أقول، من أجل شرف هيليوم، إن خطواتي كانت حازمة ورأسي عاليًا.

في طريق عودتي إلى الحُفر، سألت البادوار المسؤول عن مرافقتي عن تافيا. لكنه رفض إخباري، حتى إن كان يعرف عنها أي شيء. وأنا الآن مُقيد مرة أخرى في زنزانة مظلمة إلى جوار نور آن الجاهاري.

سألني: «حسنًا؟».

أجبتة: 'الهلاك'.

مد يده المُقيدة خلال الظلام ووضعها على يدي، وقال: «أنا آسف، يا صديقي».

فقلت: «ليس للإنسان سوى حياة واحدة؛ إذا أُتيح له أن يمنحها لسبب وجيه، فلا ينبغي أن يشكو».

قال: «أنت تموت من أجل امرأة».

قلت للتصحيح: «أموت من أجل امرأة من هيلوم».

فقال: «ربما سنموت معاً».

«ماذا تقصد؟».

«بعد أن ذهبت، جاء رسول من كبير خدم القصر ينصحنني بالتصالح مع أسلافي، لأنني سرعان ما أموت في 'الهلاك'».

قلت: «أتساءل، ما هذا 'الهلاك'».

أجاب نور آن: «لا أعرف. ولكن من نبرات الرعب المكتوم التي يذكرونه بها، أتصور أنه رهيب».

سألته: «التعذيب، هل تتصور ذلك؟».

أجاب: «ربما».

قلت: «سوف يجدون أن رجال هيلوم، الذين يعرفون جيداً كيف يعيشون، يعرفون أيضاً كيف يموتون».

فقال نور آن: «أمل أن أقدم مثلاً جيداً أيضاً. لن أمنحهم متعة معرفة

أنني أعاني. مع ذلك، أتمنى أن أعرف مسبقاً ما سأواجهه، حتى أكون أفضل استعداداً لمواجهته».

قلت: «ما من داعٍ لإثارة الكآبة بالتفكير في الأمر. دعنا، بالأحرى، نأخذ الجزء الرجولي، ونبحث في خطط لإحباط أعدائنا والتمكن من الهرب».

فقال: «أخشى أن الأمر ميؤوس منه».

قلت: «سأرد عليك بعبارة جون كارتر الشهيرة: 'ما زلت أعيش!'».

قال بإعجاب: «فلسفة عمياء للشجاعة المطلقة، إلا أنها دون جدوى».

قلت بإصرار: «لقد ساعدته في العديد من الأوقات، لأنها أمدته بالإرادة لمحاولة المستحيل وإحراز النجاح. نحن ما زلنا نعيش، نور آن؛ لا تنسَ - ما زلنا نعيش!».

قال صوت أجش، قادم من الممر: «عليكما الاستفادة بذلك ما دام بإمكانكما، فلن يظل ذلك صحيحاً لفترة طويلة».

دخل المتحدث زنزانتنا - محارب من الحرس، يرافقه شخص واحد. تُرى ما قدر ما سمعه من حديثنا، لكنني سرعان ما شعرت بالاطمئنان؛ لأن الكلمات التالية التي قالها المحارب الذي بدأ بالحديث كشفت عن أنهم لم يسمعوا أي شيء غير أننا ما زلنا نعيش.

سألني: «ماذا تعني بقولك 'لا تنسَ، نور آن، نحن ما زلنا نعيش'؟».

تظاهرت أنني لم أسمع سؤاله، ولم يكرره؛ لكنه توجه نحوي

مباشرة وفك قيودي. وعندما أدار ظهره ليفك قيود نور آن، لاحظت إهماله الذي لا يُغتفر. كان رفيقه يتبختر عند المدخل، بينما انحنى المحارب الأول على الفقل الذي يغلق أغلال نور آن.

كان أسلافي كرماء معي؛ لم أتوقع فرصة كهذه، لكنني انتظرت -مثل بانث عظيم يستعد للانقضاض- انتظرت حتى يحرر نور آن. وعندما سقطت الأغلال بعيدًا عن رفيقي، قذفت نفسي على ظهر المحارب. انبطح على وجهه واهنًا فوق الحجر، حيث سقط بقوة تحت ثقل وزني، وعندئذ انتزعت خنجره من غمده وغرزته بين عظام كتفه. مات بصرخة واحدة، ولم يراودني أي خوف من أن يصل صدى هذه الصرخة إلى أعلى خارج الحُفر القاتمة في تجاناث لتحذير زملائه عند المستوى الأعلى.

لكن زميله شاهدنا وسمعنا، وقفز داخل الزنانة وسيفه الطويل جاهز في يده، ورأيت الآن الهمة التي أبداها نور آن.

حدث الأمر بسرعة، كصاعقة من البرق في سماء صافية، إلى حد إيجاد عذر لأي رجل تجمد للحظات في ذهول، لكن نور آن لم يكن مذنبًا بأي تأخير فادح؛ فكأنما خططنا للأمر معًا، إذ انطلق إلى الأمام لمطاردة المحارب الثاني في اللحظة نفسها التي قفزت فيها على المحارب الأول. وواجه وهو أعزل السيف الطويل الذي يد خصمه.

أدى ظلام الزنانة إلى الحد من ميزة الرجل المسلح، الذي رأى شخصًا يقفز لمواجهة هجومه، ولم يعرف في سياق إثارة وظلام الخلية أن نور آن غير مسلح. تردد، وتوقف، ثم تراجع إلى الوراء ليتلقى

الهجوم الطائش القادم من الظلام. أسرعت في تلك اللحظة بإخراج السيف الطويل من غمده لدى المحارب الذي سقط، وهاجمت الرجل من زاوية تختلف قليلاً عن زاوية نور آن.

اشتبكنا خلال لحظات، ولم أجد الزميل مبارزاً متوسطاً؛ لكنني عرفت منذ لحظة تماس سيفينا أنني أتفوق عليه، ولا بد أنه أدرك ذلك بسرعة لأنه تراجع في موقف دفاعي تمامًا، وكان من الواضح أنه عازم على الفرار إلى الممر. وبالتأكيد كنت مصممًا على عدم السماح له بذلك، فضغطت عليه بقوة بحيث لم يجرؤ على الاستدارة للفرار، كما لم يطلق أي نداء للحصول على مساعدة لأنه - كما أعتقد - أدرك عدم جدوى القيام بذلك.

كنت ونور آن نقاتل، بيأس الحيوانات الحبيسة، من أجل حياتنا. لا يمكن هنا إثارة أي تساؤل حول التقيد الصارم بقواعد القتال؛ فهي إما حياته أو حياتنا. وبهذا الإدراك، انتزع نور آن السيف القصير من جثة المحارب الميت، وفي لحظة كان المحارب الثاني يرقد في بركة من دمه.

تساءل نور آن: «وماذا الآن؟».

سألته: «هل أنت على دراية بالقصر؟».

فأجاب: «كلا».

قلت: «إدّن علينا أن نعتد على القليل الذي تمكنت من معرفته خلال ملاحظتي. دعنا نرتدي عتاد هذين الرجلين على الفور. ربما يوفر

لنا ذلك تنكرًا يكفي للسماح لنا بالوصول إلى أحد المستويات العليا على الأقل؛ إذ من دون معرفة جيدة بالحُفر، ما من جدوى أن نحاول إيجاد مهرب تحت الأرض».

قال: «أنت على حق». خرجنا بعد عدة لحظات إلى الأروقة بوصفنا اثنين من محاربي حرس هاج أوسيس، جد تجاناث. ومع اعتقادنا أن جرأة التصرف هي أفضل ضمان ضد كشفنا، توليت قيادة الطريق نحو الطابق الأرضي للقصر دون أي محاولة للجوء إلى التسلل أو السرية.

قلت لنور آن: «يوجد العديد من المحاربين عند المدخل الرئيس للقصر، ودون معرفة أي شيء عن اللوائح التي تنظم دخول وخروج نزلاء المبنى، سيكون انتحارًا إن حاولنا الوصول إلى الشارع خارج القصر بهذا الطريق».

سألني: «ماذا تقترح إذن؟».

«يُعد الطابق الأرضي للقصر مكانًا مزدحمًا، والناس يجيئون ويذهبون باستمرار خلال الممرات. ومما لا شك فيه أن تردد الناس يقل في بعض المستويات العليا. ولذا، لنبحث عن مكان اختباء في أعلى، ويمكننا من موقع جيد بإحدى الشرفات أن نضع خطة عملية للهروب».

قال: «جيد! هيا، عليك قيادة الطريق!».

صعدنا السلم المتعرج عند أدنى الحُفر، وانتهينا من مستويين قبل أن نصل إلى الطابق الأرضي للقصر دون أن نلتقي بأي شخص. وبمجرد خروجنا إلى المستوى الأرضي، شاهدنا الناس في كل مكان - الضباط،

والحاشية، والمحاربين، والعبيد، والتجار - يتحركون ذهاباً وإياباً لأداء واجباتهم المختلفة، أو سعيًا لإنجاز الأعمال التي أتت بهم إلى القصر؛ لكن أعدادهم الكبيرة أثبتت أنها ضمانة لنا.

على جانب الممر، في مقابل نقطة دخولنا إليه، يقع مدخل مقوس لسلم آخر يقود إلى أعلى. ودون لحظة تردد، سرت تحت القوس بين حشود الناس ونور آن إلى جانبي، واتخذنا السلم إلى أعلى.

وما إن بدأنا الصعود، حتى التقينا بضابط شاب يهبط السلم. بالكاد ما نظر إلينا خلال مروorna، وتنفس الصعداء عندما أدركت أن تنكرنا يخفي شخصياتنا بالفعل.

كان عدد الناس أقل في المستوى الثاني من القصر، ومع ذلك لا يزال العدد كبيراً وغير مناسب لنا. واصلنا صعودنا إلى المستوى الثالث، ووجدنا الممرات مهجورة تقريباً.

وجدنا تقاطع لممرين رئيسيين بالقرب من مدخل السلم. وهنا ترددنا لحظات للاستطلاع. بتحرك الناس من الاتجاهين على طول الممر الذي خرجنا منه، ولكن الممر المستعرض بدا مهجوراً في أحد الاتجاهات، فدخلناه بسرعة. كان ممراً طويلاً جداً، ويبدو ممتداً على طول القصر بأكمله. وامتدت على جانبيه مداخل تفصل بينها مسافات، وكانت أبواب بعضها مفتوحة، بينما كانت الأخرى مغلقة أو مواربة. رأينا أشخاصاً خلال بعض المداخل المفتوحة، بينما الشقق التي كشفتها أبواب أخرى بدت شاغرة. حددنا موقعها بعناية ونحن نتحرك ببطء، ونراقب بعناية كافة التفاصيل التي قد تثبت ذات قيمة لاحقاً.

اجتزنا حوالي ثلثي هذا الممر الطويل، عندما دخل إليه رجل من مدخل يبعد بضع مئات من الأقدام أمامنا. كان ضابطاً، وعلى ما يبدو أنه بادوار من الحرس. توقف في منتصف الممر، حيث ظهر طاوور من المحاربين عند المدخل نفسه، وسار نحونا في تشكيل عمودي من صفين والضابط في المؤخرة.

هنا اختبار لتكرنا ولم أخش من المجازفة. يوجد مدخل مفتوح على يسارنا؛ ولم أشهد أحد خلفه. «تعال!»، قلت لنور آن، وسرنا بلا مبالاة ودون عجلة نحو الغرفة، وعبر نور آن عتبتها وقمت بإغلاق الباب وراءه. وعندئذ رأيت امرأة شابه تقف على الجانب الآخر من الشقة، وتنظر إلينا مباشرة.

سألت: «أيها المحاربان، لماذا أنتما هنا؟».

يا له من موقف حرج. أسمع في الممر بالخارج قعقة تجهيزات المحاربين الذين يقتربون، وأعرف أن الفتاة لابد أنها تسمعها أيضاً. إذا فعلت أي شيء يثير شكوكها، يمكنها أنها تطلب المساعدة. كيف يمكنني تبديد شكوكها وليس لدي أدنى تصور عما يصلح كعذر لوجود اثنين من المحاربين في هذه الشقة تحديداً، والتي قد تكون شقة أميرة من البيت الملكي، ودخولها دون إذن قد يعني ببساطة الموت لمحارب عادي. فكرت بسرعة، أو ربما لم أفكر على الإطلاق؛ غالباً ما نتصرف بشكل صحيح بموجب دوافع بديهية، ثم نعزو النتيجة إلى الذكاء الفائق.

قلت بفضافة: «جئنا من أجل الفتاة، أين هي؟».

سألت المرأة الشابة في اندهاش: «أي فتاة؟».

أجبتها: «السجينة، بطبيعة الحال».

«السجينة؟»، وبدأت أكثر حيرة.

قال نور آن: «بالطبع، السجينة. أين هي؟»، ابتسمت، لأنني أعرف أن نور آن ليس لديه أي فكرة عما يدور في ذهني.

قالت المرأة الشابة: «لا توجد سجينة هنا. هذه شقيق الابن الرضيع لهاج أوسيس».

قلت: «لقد أخطأ الأحمق في توجيهنا. نحن نأسف لاقترحامنا. لقد أرسلونا لجلب الفتاة تافيا، وهي سجينة في القصر».

كان مجرد تخمين. لم أكن أعرف أن تافيا سجينة، لكنني خمنت ذلك بعد طريقتهم في معاملتنا.

قالت المرأة الشابة: «إنها ليست هنا. ومن الأفضل لكما مغادرة هذه الشقق على الفور، لأن وضعكما سيسوء إذا اكتشفوا وجودكما هنا».

كان نور آن يقف بجواري، وينظر إلى المرأة الشابة بإمعان. تقدم الآن، مقتربًا منها.

صاح بصوت منخفض: «باسم سلفي الأول، إنها فاو!».

تراجعت الفتاة، واتسعت عيناها بدهشة، ثم بدأت ببطء تتعرف عليه، صاحت: «نور آن!».

اقترب نور آن من الفتاة ووضع يدها في يده. وقال: «كل تلك السنوات، يا فاو، وأنا أعتقد أنك ميتة. عندما عادت السفينة، أفاد القبطان أنك قُتِلتِ أنتِ وعدد من الآخرين».

قالت الفتاة: «إنه كاذب. لقد باعنا كعبيد هنا في تيجاناث. وأنت، نور آن، ماذا تفعل هنا مرتديًا عتاد تيجاناث؟».

أجاب: «أنا سجين، مثل هذا المحارب أيضًا. كنا محتجزين في الحُفر تحت القصر، وحكموا علينا بالموت اليوم في 'الهلاك'، لكننا قتلنا اثنين من المحاربين جاءوا لأخذنا، والآن نحن نحاول أن نجد طريقنا للخروج من القصر».

سألت: «إذن لا تبحثان عن الفتاة، تافيا؟».

قلت: «نعم، نبحث عنها أيضًا. لقد سجنوها في نفس الوقت الذي سجنوني فيه».

قالت فاو: «ربما يمكنني مساعدتك؛ ربما»، أضافت بحزن، «يمكننا أن نهرب جميعًا معًا».

قال نور آن: «لن أهرب من دونك، فاو».

قالت الفتاة: «لقد أحسن لي أسلافي أخيرًا».

سألتها: «أين تافيا؟».

ردت فاو: «إنها في برج الشرق».

سألتها: «هل يمكنك أن تأخذينا إلى هناك، أو قللي لنا كيف نصل إلى هذا البرج».

أجابت: «ما من فائدة لأن آخذكم إلى هناك، فالباب موصد والحراس يقفون أمامه. لكن هناك طريقة أخرى».

سألتها: «وما هي؟».

قالت: «أعرف مكان المفاتيح، وأعرف أشياء أخرى قد تفيد».

قلت: «فليشملك أسلافنا بحمايتك ومكافأتك، فاو. والآن، أخبريني أين يمكنني العثور على المفاتيح».

أجابت: «يجب أن أقودك إلى المكان بنفسى، لكن فرصة نجاحنا ستكون أفضل إن قل عددنا. ولذلك، أقترح أن يبقى نور آن هنا. سأجد له مكان اختباء بحيث لا يعثر عليه أحد. وبعد ذلك سأذهب معك إلى السجينة، وسنعود إن أمكن إلى هذه الشقة. أنا المسؤولة هنا. لا يحضر أي زائر إلى شقة الأمير الصغير إلا في ساعات منتظمة، مرتين يوميًا، ليلاً وصباحًا. يمكنني هنا إخفاؤكما وإطعامكما لفترة طويلة، وربما نتمكن في النهاية من وضع خطة مُجدية للهرب».

قال نور آن: «نحن بين يديك، فاو. ولكني أود أن أصاحب هادرون، فربما ينشب قتال».

أجابت الفتاة: «إذا نجحنا، لن ينشب أي قتال». أسرع الفتاة نحو باب في الغرفة وفتحته، فكشف عن خزانة كبيرة. قالت: «هنا، نور آن؛ يجب أن تظل هنا إلى أن نعود. ليس هناك سبب لأن يفتح أي شخص هذا الباب. وبقدر ما أعلم، لم يفتحه أحد غيري أبدًا منذ أن سكنت هنا».

«لا تعجبني فكرة الاختباء»، قال نور آن مكشراً، «لكنني اضطررت مؤخرًا إلى القيام بأشياء كثيرة لم تكن تعجبني»؛ ثم توجه إلى الخزانة ودخلها دون إضافة أي كلمة أخرى. التقت أعينهما للحظة قبل أن تغلق فاو الباب، وقرأت في أعماقهما ما جعلني أتساءل، حيث تذكرت القصة

التي رواها نور آن عن المرأة الأخرى التي سرقها منه تول أكستار. على أن هذه المسألة لا تعنيني، وليس لها أي تأثير على المهام التي أمامنا.

«ها هي خطتي، أيها المحارب»، قالت فاو وهي تعود إلى جانبي، «عندما دخلت هذه الشقة، قلت إنك تبحث عن السجينة، تافيا. وقد صدقتك، على الرغم من أنها ليست هنا. ولذلك، سنذهب إلى يو سينو، حارس المفاتيح، وتخبره نفس القصة: أنهم أرسلوك لإحضار السجينة، تافيا. إذا صدقك يو سينو، فهذا جيد؛ لأنه سيذهب بنفسه لإطلاق سراح السجينة وتسليمها لك».

سألتها: «وإذا لم يصدقني؟».

قالت: «إنه وحش، وموته أفضل من بقاءه حيًا. وعندئذ تعرف ماذا تفعل».

قلت: «فهمت. قودي الطريق».

يقع مكتب يو سينو، حارس المفاتيح، في المستوى الرابع من القصر، فوق مسكن الأمير الرضع مباشرة على وجه التقريب. توقفت فاو عند المدخل، وجذبت أذني إلى شفيتها لتهمس بالتعليمات النهائية. قالت: سوف أدخل أولاً، لأداء مهام تافهة. وتدخل أنت بعد لحظة، دون إيلاء أي اهتمام لوجودي. من المهم ألا يظهر أننا جئنا معًا».

قلت: «فهمت»، ومشيت عدة خطوات على طول الممر بحيث لا أكون على مرمى البصر عندما يفتح الباب. أخبرني بعد ذلك أنها طلبت من يو سينو إعداد مفتاح جديد لأحد الأبواب العديدة في شقة الأمير الصغير.

انتظرت لحظة، ثم دخلت الشقة أيضًا. كانت غرفة مظلمة ليس بها نوافذ. علقت على جدرانها مفاتيح من كل الأشكال والأحجام التي يمكن تخيلها. جلس رجل خشن المظهر وراء مكتب كبير. تطلع نحوي بسرعة، منزعجًا من دخولي ومقاطعتي.

سألني: «حسنًا؟».

قلت: «لقد جئت من أجل المرأة، تافيا، السجينة من جاهار».

سأل: «مَن الذي أرسلك؟ وماذا تريد منها؟».

أجبت: «لديَّ أوامر بأخذها إلى هاج أوسيس».

نظر نحوي متشككًا، ثم سألني: «هل معك أمر كتابي؟».

قلت: «كلا بالطبع، ليس ضروريًا. فهي لن تخرج من القصر؛ مجرد من شقة إلى أخرى».

قال بتأكيد: «يجب أن أحصل على أمر مكتوب».

قلت: «هاج أوسيس لن يُسر عندما يعرف أنك رفضت إطاعة أمره».

قال يو سينو: «أنا لا أرفض. وأنت لا تجرؤ على القول أنني أرفض. لا يمكن نقل سجين دون أمر كتابي. دعني أشاهد ما يثبت سلطتك، وسوف أعطيك المفاتيح».

أدركت أن الخطة فشلت، ويجب اتخاذ تدابير أخرى. امتشقت سيفي الطويل، وقفزت نحوه صائحًا: «ها هي سلطتي!».

أقسم اليمين وهو يخرج سيفه. وبدلاً من مواجهتي، تراجع بسرعة ومكتبه لا يزال بيننا، ثم استدار وضرب بالجزء المسطح لسيفه جرسًا نحاسيًا كبيرًا.

هرعت نحوه، وأنا أسمع قعقة المعادن وصوت أقدام تأتي بسرعة من غرفة مجاورة. استمر يو سينو في التراجع، وأطلق صوتًا ساخرًا، ثم انطفأت الأضواء وغرقت الغرفة الخالية من النوافذ في ظلام دامس. أمسكت أصابع ناعمة بيدي اليسرى، وهمس صوت في أذني: «تعال معي».

جذبت سريعًا إلى جانب، خلال فتحه ضيقة، عندما انفتح باب على الجانب الآخر من الغرفة وكشف عن نصف دزينة من المحاربين يبدو ظلمهم في ضوء الغرفة التي خلفهم؛ ثم أغلق الباب أمام وجهي مباشرة. ووجدت نفسي ثانية في ظلام مطلق، وأصابع فاو لا تزال تمسك بيدي. همس صوت ناعم: «صمتًا!».

سمعت من وراء الألواح أصواتًا غاضبة ومنفصلة. ارتفع صوت أعلى الأصوات الأخرى، يصيح بنبرة سلطوية: «ما المشكلة هنا؟». أطلق الرجال صياحًا ولعنات وهم يرتطمون بقطع الأثاث وبيعهم البعض.

صاح صوت: «نريد ضوءًا»، وبعد لحظة، «هذا أفضل». «أين يو سينو؟ أوه، ها أنت هناك، أيها الوغد السمين. ماذا حدث؟». «باسم إيسوس^(٤٨)! لقد ذهب»، كانت هذه العبارة بصوت يو سينو.

(٤٨) إيسوس: امرأة عجوز من المريخين ذوي البشرة السوداء، زعمت أنها إلهة الحياة الأبدية، لكن حقيقتها تكشفت - <http://barsoom.wikia.com/wiki/Issus> - المترجمة

سأل صوت آخر: «مَن الذي ذهب؟ ولماذا استدعيتنا؟».

أوضح يو سينو: «لقد هاجمني محارب، جاء يطلب مفتاح الشقة التي يحتفظ فيها هاج أويسيس بابنة...»، لم أستطع سماع بقية الجملة. سأله الرجل الآخر: «حسنًا، أين هذا الرجل؟».

ارتفع صوت يو سينو إلى نحيب تقريبًا وهو يقول: «لقد ذهب، والمفتاح أيضًا. المفتاح اختفى».

«فلنسرع إذن إلى الشقة التي تحتفظ فيها بالفتاة»، صاح المتكلم الأول؛ وهو ضابط الحرس دون شك، وفي نفس الوقت سمعهم يسرعون نحو الشقة.

تحركت قليلًا الفتاة التي تقف بجواري، وسمعت ضحكة منخفضة، قالت: «لن يجدوا المفتاح».

سألتها: «لماذا؟».

فأجابت: «لأنه معي».

قلت بأسى: «لن يفيدنا كثيرًا. سوف يضعون حراسة جيدة على الباب الآن، ولن نتمكن من استخدام المفتاح».

ضحكت فاو مرة أخرى وقالت: «لا نحتاج إلى المفتاح. لقد أخذته لأحرف انتباههم. سوف يراقبون الباب، بينما ندخل نحن من مكان آخر».

قلت: «أنا لا أفهم».

«هذا الممر يربط بين الحواجز الفاصلة التي تؤدي إلى غرفة

السجينة. أعرف ذلك لأن يو سينو جاء لزيارتي من هذا الطريق عندما كنت سجينة في تلك الغرفة. إنه متوحش، ويحدوني الأمل أنه لم يزر هذه الفتاة - أمل من أجلك، إذا كنت تحبها».

قلت: «أنا لا أحبها، إنها صديقة فقط»؛ لكنني بالكاد ما كنت أعرف ماذا أقول، والعبارات تناسب تلقائيًا لأنني كنت في قبضة مشاعر لم أحس بها أو أعرفها من قبل. لقد تملكنتني منذ اللحظة التي قالت فيها فاو إن يو سينو ربما زار تافيا عبر هذا الممر السري؛ شعرت بما يشبه الاضطراب - وهو الإحساس الذي غيرني. كان يمكنني من قبل أن أقتل يو سينو بسيفي وأشعر بالسعادة؛ لكني الآن أريد تمزيقه، أريد تشويبه ورؤيته يعاني. لم أشعر في حياتي أبدًا من قبل بهذه الرغبة الوحشية. الشعور بشع، لكنه يملكني الآن.

صاحت فاو: «ما هذا؟ أعتقد أنني شعرت بأنك ترتجف».

قلت: «أنا ارتجفت».

سألني: «لماذا؟».

أجبتها: «من أجل يو سينو. لكن علينا أن نسرع. إذا كان هذا الممر يؤدي إلى الشقة التي يسجنون فيها تافيا، فلن أتمكن من الوصول سريعًا؛ فعندما يعلم هاج أوسيس بسرقة المفتاح، سوف ينقلها إلى سجن آخر».

قالت فاو: «لن يعرف إذا حال دون ذلك يو سينو وبادوار الحرس؛ لأن وصول هذا الخبر إلى أذني هاج أوسيس قد يكلفهم حياتهم بسهولة. سوف ينتظرون مجيئك ليقتلوك ويأخذوا المفتاح. لكنهم

سوف ينتظرون خارج باب السجن، وأنت لن تذهب من ذلك الطريق».

بدأت تسير، خلال الحديث، على طول الممر الضيق المظلم، وهي ممسكة بيدي وراء ظهرها. كانت فاو تتحرك ببطء؛ إذ كان عليها أن تتلمس الطريق ببطء لأن الممر يتحول إلى زوايا حادة خلال متابعة الحواجز الفاصلة بين الشقق، كما توجد العديد من السلالم التي تصعد إلى المداخل وأخيرًا السلم المؤدي إلى المستوى الأعلى.

توقفت الآن وقالت هامسة: «وصلنا، ولكن علينا أن نسمع أولاً للتأكد من عدم دخول أحد إلى الشقة مع السجينة».

لم أستطع رؤية أي شيء على الإطلاق في الظلام، ولم أستطع تخمين كيف عرفت فاو أنها وصلت إلى وجهتها.

قالت: «كل شيء على ما يرام»، وفتحت جزئيًا في الوقت نفسه لوحًا خشبيًا. رأيت خلال الفتحة جزءًا من شقة دائرية ذات نوافذ ضيقة عليها قضبان ثقيلة. رأيت في مواجهة الفتحة امرأة مستلقية فوق كومة من حرير وفراء النوم. لم أشهد سوى كتف عار وأذن صغيرة ورأس أشعث الشعر. عرفت من الوهلة الأولى أنها تافيا.

دخلنا الشقة وأغلقت فاو اللوح خلفنا. لفت صوت دخولنا انتباهها، جلست تافيا بهدوء وتطلعت إلينا، وقفزت واقفة بمجرد أن تعرفت عليّ. اتسعت عيناها بدهشة، وظهر تساؤل على شفيتها، لكنني وضعت سبابتي على شفتي لأنذرهما بالصمت. تحركت عبر الشقة نحوها، وجاءت لمقابلتي وهي تركز تقريبًا. نظرت إلى عينيها ورأيت تعبيرًا لم أره أبدًا في عيني أي امرأة أخرى - على الأقل ليس بالنسبة لي.

وإذا كنت قد تشككت على الإطلاق في صداقة تافيا، فقد اختفى هذا الشك في تلك اللحظة؛ لكنني لم أتشكك أبدًا، وإنما فوجئت فقط لأنني أدركت الآن مدى عمق المسألة. لو نظرت سانوما تورا نحوي بهذه النظرة، لقرأت الحب في تعبيرها؛ لكنني لم أتحدث أبدًا عن الحب مع تافيا، وبالتالي عرفت أنها لم تشعر سوى بالصداقة. كنت دائمًا شديد الانغماس في مهنتي، إلى حد أنني لم أقم بأي صداقات وثيقة؛ ولذا لم أدرك أبدًا حتى تلك اللحظة أن الصداقة شيء رائع.

التقينا في وسط الغرفة. نظرت نحوي والدموع تبلل عينيها: «هادرون»، همست وصوتها يجيش بالعاطفة. وضعت ذراعيّ حول كتفيها النحيلين، وجذبتها نحوي؛ شيء ما يفوق إرادتي دفعني إلى تقبيلها على جبهتها. ابتعدت على الفور، وخشيت أن تُسيء فهم تلك القُبلة المتهورة التي تنم عن الصداقة، لكن كلماتها التالية طمئتني.

قالت: «لم أتصور أبدًا أن أراك مرة أخرى، هادرون الهاستوري. كنت أخشى أن يقتلوك. كيف أتيت هنا، وفي معادن محارب من تجانات؟».

رويت لها بإيجاز ما حدث لي منذ أن فصلوا بيننا، وكيف هربت - ولو مؤقتًا، على الأقل - من 'الهلاك'. سألتني عما يكون 'الهلاك'، لكنني لم أكن أعرف ماذا أقول لها.

قالت فاو: «إنه شيء فظيع جدًّا».

سألتها: «وما هو؟».

أجابت الفتاة: «لا أعرف سوى أنه شيء فظيع. هناك حفرة عميقة تقع أسفل أدنى حُفر القصر، ويقول البعض إنها بلا قاع؛ تصدر منها أصوات رهيبة - آهات وأنين على الدوام؛ ويلقى في هذه الحفرة كل من يُحكم عليهم بالموت في 'الهلاك'، ويلقونهم بطريقة تجعل سقوطهم لا يقتلهم. يجب أن يصلوا إلى القاع وهم أحياء ليتكبدوا جميع أهوال 'الهلاك' التي تنتظرهم هناك. والتعذيب لا ينتهي، ما يؤكده عدم توقف أنين وآهات الضحايا أبدًا، بغض النظر عن طول الفترة بين الإعدامات». قالت تافيا: «فررت أنت منها. لقد استجيت صلواتي. صليت لأيام وليالٍ لأجدادي كي تبقى حيًّا. والآن، ليتنا نتمكن من الهرب من هذا المكان البغيض. هل لديك خطة؟».

«لدينا خطة يمكن أن تنجح بمساعدة فاو. نور آن، الذي حكيت لك عنه، يختبئ في خزانة في إحدى شقق الأمير الصغير. سنعود إلى تلك الشقة في أول فرصة، وستتولى فاو إخفاء ثلاثتنا حتى نجد فرصة للفرار». قالت فاو: «يجب أن نعود ولا نضيع المزيد من الوقت. هيا بنا، لنذهب على الفور».

توجهنا نحو اللوح الذي دخلنا من خلاله، ووجدته مواربًا على الرغم من تيقني أنني أن فاو أغلقته بعد دخولنا. وفي الوقت نفسه، أقسم أنني رأيت عينًا ملتصقة بالشق الضيق؛ كأنما شخص ما يراقبنا من الداخل المظلم للممر السري.

عبرت الغرفة بقفزة، وأزحت اللوح جانبًا. كان سيفي جاهزًا في يدي؛ لكنني لم أجد أي شخص في الممر.

الفصل (٧)

‘الهلاك’

اجتزنا الممر المظلم مرة أخرى، مع فاو في الصدارة وتافيا بيننا، في اتجاه شقة يو سينو. وعندما وصلنا إلى اللوح الذي تنتهي عنده رحلتنا، توقفت فاو وأنصتنا معًا باهتمام لأي صوت قد يدل على شخص في الغرفة أمامنا. كان الصمت يرين كالقبر.

قالت فاو: «أعتقد من الأكثر أمانًا أن تبقى أنت وتافيا هنا إلى الليل. سوف أعود إلى شقتي وأقوم بواجباتي كالمعتاد، وبعد أن يهدأ القصر في أسفل سوف تصبح هذه المستويات مهجورة تقريبًا؛ وعندئذ يمكنني الحضور عندما يقل خطر الانكشاف لآخذكما إلى الشقة».

اتفقنا على أن خطتها جيدة، وودعناها مؤقتًا. فتحت فاو اللوح بما يكفي لفحص الشقة، ووجدتها فارغة تمامًا. خرجت من الممر وأغلقت اللوح خلفها. وغرقنا أنا وتافيا ثانية في ظلام دامس.

كان يمكن أن تبدو ساعات انتظارنا الطويلة في ظلام الممر بلا نهاية، لكن الأمر لم يكن كذلك. اتخذنا وضعًا مريحًا قدر الإمكان على الأرض مستنديين إلى أحد الجدران، مع ميلنا متقاربين حتى يمكننا

التحدث بهمسات منخفضة. أمضينا وقتاً ممتعاً أكثر مما تصورت، سواء في حديثنا أو في فترات الصمت الطويل التي قطعته، بحيث لم نشعر بمرور وقت طويل قبل أن يفتح اللوح ونرى فاو في ضوء الشقة الخافت. أشارت لنا أن نتبعها، وأطعناها في صمت. كان الممر خارج غرفة يو سينو مهجوراً، بمثل ما كان السلم الذي يؤدي إلى المستوى الأدنى والممر الذي يفتح عليه. بدا الحظ حليفنا في كل خطوة، وتمتعت بصلاة شكر عندما فتحت فاو الباب المؤدي إلى شقة الأمير وأشارت لنا بالدخول.

لكن قلبي غرق داخلي في اللحظة نفسها؛ إذ بمجرد دخولي الشقة مع تافيا، رأيت محاربين يقفون في انتظارنا على جانبي الغرفة. بصيحة تحذير جذبت تافيا خلفي واندفعت بسرعة نحو الباب، وعندئذ سمعت اندفاع أقدام وقعقة تجهيزات في الممر خلفي. ألقى نظرة سريعة من فوق كتفي، فرأيت محاربين آخرين يركضون من مدخل طريقة شقة على الجانب الآخر من الممر.

إننا محاصرون. لقد ضعنا، وأول ما طرأ في ذهني أن فاو خانتنا وأدت بنا إلى هذا الفخ الذي لا فكاك منه. أجبرونا على العودة إلى الغرفة وأحاطوا بنا، حيث رأيت يو سينو للمرة الأولى. وقف وعلى وجهه ابتسامة ساخرة. ونظرًا لأن تافيا أكدت لي أنه لم يمسه بأي ضرر، لكنني انطلقت لمهاجمته برغم دزينة السيوف التي كانت لتفتك بي على الفور.

«إذن!»، قال يو سينو ساخراً: «فكرت أن تخدعني، أليس كذلك؟»

حسنًا، لست مَنْ يُخدع بسهولة. لقد خمنت الحقيقة، وتبعتك خلال الممر، وسمعت جميع خططتك وأنت تناقشها مع المرأة، تافيا. أنتم جميعًا لدينا الآن»، ثم التفت إلى أحد المحاربين، وأشار إلى الخزانة في الجانب الآخر من الغرفة. وقال أمرًا: «أحضر الآخر».

توجه الزميل إلى الباب وفتحه، وظهر نور آن راقداً على الأرض وهو مقيد ومكتم الفم.

أمر يو سينو: «يمكنكم قطع قيوده وإزالة الكمامة. لقد فات أوان إحباطه لخططي بتحذير الآخرين».

تحرك نور آن في اتجاهنا، بخطوات ثابتة ورأس عالٍ ونظرة ازدراء متعجرفة لأسرينا.

وقفنا نحن الأربعة أمام يو سينو، وحلت نظرة الكراهية محل السخرية على وجهه.

وقال: «لقد حُكم عليكم بالموت في «الهلاك». إنها طريقة موت الجواسيس. لا يمكننا إيقاع عقوبة أكثر ترويعًا. ولو كانت موجودة، لكانت ستطبق عليكما أنتما الاثنين»، ونظر نحوي أولاً ثم نحو نور آن، «لأنكما قتلتما اثنين من رفاقنا».

لقد وجدوا إذن المحاربين اللذين قتلناهما. حسنًا، وماذا في ذلك؟ من الواضح أن ذلك لم يضعنا في موقف أسوأ من ذي قبل. كنا سنواجه 'الهلاك'، وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لنا.

سألني يو سينو: «ألديك أي شيء تود قوله؟».

صحت وأنا أضحك في وجهه: «ما زلنا نعيش».

قال حارس المفاتيح: «كنت تتضرع منذ فترة طويلة إلى أسلافك الأوائل طالبًا الموت، لكن الموت لن يأتيك سريعًا، وتذكر أن لا أحد يعرف كم من الوقت يلزم للموت في 'الهلاك'. لا يمكننا أن نضيف إلى معاناتكما الجسدية، ولكن لعذاب عقلك أود تذكيرك بأن نرسل بكما إلى الموت في 'الهلاك' دون أن تعرفا ماذا سيكون مصير شريككما»، ثم أشار إلى تافيا وفاو.

كانت هذه نقطة رديئة، اختارها بعناية. ما كان ليجد أي وسيلة لتعذبي أكثر من هذه، لكنني لن أمنحه راحة مشاهدة عواطفني الحقيقية، ولذلك، ضحكت ثانية في وجهه. وصل صبره إلى أقصى حد يستطيع تحمله، والتفت فجأة إلى بادوار الحرس وأمره بإبعادنا على الفور.

عندما كانوا يسرعون بنا خارج الغرفة، بعث نور آن بوداع شجاع إلى فاو.

وصحت: «وداعًا، تافيا! وتذكري أننا ما زلنا نعيش».

صاحت: «ما زلنا نعيش، هادرون الهاستوري! ما زلنا نعيش!»، ثم غابت عن بصري وهم يدفعونا أسفل الممر.

اقتادونا أسفل سلم بعد سلم إلى أن وصلنا إلى أقصى أعماق حُفر القصر، ثم إلى غرفة كبيرة حيث رأيت هاج أوسيس جالسًا على عرش ومحاطًا بالقادة والحاشية، كما كان الوضع عندما قابلني في المرة الأولى. كان مُعلقًا في مواجهة الحِد، وفي وسط الدائرة، قفص حديدي

كبيرة، يتدلى من كتلة ثقيلة مثبتة في السقف. دفعونا بخشونة داخل هذا القفص، وأغلقوا بابه، ووضعوا عليه قفلاً كبيراً. تعجبت من الوضع كله وعن علاقته بالموت في 'الهلاك'، وفي أثناء ذلك دفع عشرات الرجال باباً مسحوراً ضخماً تحت القفص. لفنا هواء بارد رطب، وشعرت ببرودة تكاد تدخل النخاع، كأنما أرقد بين ذراعي الموت البارين. تناهى إلى سمعي أنين ضعيف وآهات جوفاء، وعرفت أننا أعلى الحُفر التي يكمن عندها 'الهلاك'.

لم ينبس أحد بكلمة داخل الغرفة. وبإشارة من هاج أويسيس، قام رجال أقوياء بخفض القفص ببطء في الفتحة أسفلنا. أصبح البرد والرطوبة أكثر وضوحاً، بينما تضاعف حجم الأصوات المريعة.

انزلقنا إلى أسفل نحو هاوية الظلام. أنستنا ضوضاء الأصوات الغربية تحتنا رعب الصمت في الغرفة أعلاه.

قد لا يمكنني تخمين مدى المسافة التي هبطناها، لكنها بدت لنور أن ألف قدم على الأقل؛ ثم بدأنا نتيين لمعاناً طفيفاً حولنا. أصبح الأنين والتأوه هديرًا مستمرًا. ومع اقترابنا، لم تعد الأصوات تبدو مثل الأنين والتأوهات، وإنما أصبحت أكثر شبهًا بصوت الرياح واندفاع المياه.

فجأة، دون أدنى إنذار، أخذ قاع القفص يتأرجح إلى أسفل؛ ما يوضح أنه مُعلق من جانب واحد، ومُمسك بمقبض يمكن جذبه من أعلى. حدث ذلك بسرعة، بحيث بالكاد ما كان لدينا وقت للتخمين قبل أن نغوص في المياه المندفعة.

وعندما ارتفعت إلى السطح، اكتشفت أن بإمكانني الرؤية. لا أعرف

أين كنا، لكن المكان لم يكن مغلفًا بالظلام الدامس، بل مضاء بشكل خافت.

وعلى الفور تقريبًا، تمايل رأس نور آن على بُعد ذراع مني. حملنا تيار قوي إلى أعلى، وأدركت على الفور أننا في قبضة نهر كبير تحت الأرض؛ أحد تلك الأنهار التي تراجعت إليها المياه المتبقية من رسوم الآخذ في الاحتضار. لمحت خط الشاطئ على مسافة، حيث يمكن رؤيته معتمًا في الضوء الخافت، فاتجهت نحوه وأنا أطلب من نور آن اتباعي.

المياه باردة، ولكن ليس بالقدر الكافي لتنبيهي؛ وليس لديّ أي شك في أننا سوف نصل إلى الشاطئ. عندما أنجزنا هدفنا وزحفنا إلى الشاطئ الصخري، كانت أعيننا قد اعتادت الضوء الخافت. والآن، نحقق حولنا في دهشة. يا لها من مغارة شاسعة! فوقنا، أعلى منا بكثير، كان سقفها واضحًا في ضوء جسيمات الراديووم الدقيقة التي تناثرت في أنحاء الصخور التي تُشكل الجدران والسقف. على أن الضفة المقابلة للتيار الجارف كانت خارج نطاق رؤيتنا.

صاح نور آن: «أهذا هو 'الهلاك'!».

أجبت: «أشك أنهم يعرفون ما هو. من هدير النهر وأنين الرياح، استحضرت خيالهم شيئًا فظيعًا».

قال نور آن: «ربما أكبر معاناة يتحملها الضحية هي توقعه لما ينتظره في هذه الأعماق المروعة، بينما أسوأ ما قد يتصوره الإدراك هو الموت غرقًا».

قلت: «أو بسبب الجوع».

أوماً نور آن، وقال: «مع ذلك، أتمنى أن أعود لمجرد فترة تكفي للسخرية منهم ومشاهدة خيبة أملهم عندما يكتشفون أن 'الهلاك' ليس رهيباً».

وأضاف بعد لحظة صمت: «يا له من نهر جبار. هل قد يكون أحد روافد نهر إيس^(٤٩)؟».

قلت: «ربما هو نهر إيس نفسه».

قال نور آن بكآبة: «إذن أصبحنا مُقيدين برحلة الحج الطويلة الأخيرة إلى بحر كوراس^(٥٠) المفقود في وادي دور^(٥١). ربما هو مكان جميل، لكنني لا أرغب بعد في الذهاب إلى هناك».

أجبت: «إنه مكان مرعب».

قال محذراً: «صمتاً؛ هذا تدنيس للمقدسات».

«لم يعد تدنيساً للمقدسات منذ أن نزع جون كارتر وتارس تاركاس ستار السرية عن وادي دور وتخلصا من أسطورة إيسوس، إلهة الحياة الأبدية». ظل نور آن متشككاً، حتى بعد أن أخبرته بالقصة المأساوية

(٤٩) نهر إيس: النهر الوحيد المتبقي على المريخ، ولعصور طويلة ظلت الأعراق المريخية الخضراء والحمراء تتخذ طوعية رحلة الحج إلى نهر إيس عند بلوغ سن ألف عام، حيث يعتقدون أنهم سيجدون عنده الحياة الأخرى - http://barsoom.wikia.com/wiki/River_Iss - المترجمة.

(٥٠) كوراس: هو بحر مريخي مفقود. وكان يملأ المنطقة التي تُسمى وادي دور، في الأيام التي كانت فيها المياه وفيرة - <https://barsoom.fandom.com/wiki/Korus> - المترجمة.

(٥١) وادي دور: يقع عند نهاية نهر إيس المحيط ببحر كوراس المفقود - https://barsoom.fan-dom.com/wiki/Valley_Dor - المترجمة.

كلها لإلهة المريخ الكاذبة؛ فالخرافات الدينية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنسيج وجودنا.

شعر كالانا ببعض التعب بعد معركتنا مع شدة تيار النهر، وربما كنا نعاني أيضاً من رد فعل الصدمة العصبية الناتجة عن هذه المحنة التي مررنا بها. ولذا، بقينا هنا، نستريح على الشاطئ الصخري لنهر الغموض. تحول حديثنا في النهاية إلى ما كان يحتل موقع الصدارة في ذهن كل منا وإن تردد في قوله - مصير تافيا وفاو.

قلت: «أتمنى أن يحكموا عليهما أيضاً بالموت في 'الهلاك'، فعلى الأقل سنكون معهما ونحميهما».

قال نور آن بحزن: «أخشى أننا لن نراها ثانية أبداً. يا له من مصير قاسٍ، أن أجد فاو لأفقدّها ثانية وبسرعة دون رجعة».

«إنه لمصير غريب فعلاً؛ أن يسرقها منك تول أكستار ثم يفقدّها هو أيضاً، لكي تجدها أنت في تجانات».

تطلع في وجهي للحظة بتعبير ينم عن الحيرة، ثم أشرق وجهه وقال: «فاو ليست المرأة التي حدثتك عنها في الزنزانة في تجانات. أحببت فاو قبل فترة طويلة؛ إنها حبي الأول. وبعد أن فقدتها، تصورت أنني لن أستطيع الاهتمام ثانية بأي امرأة؛ لكن امرأة أخرى ظهرت في حياتي. ومع معرفتي أن فاو اختفت إلى الأبد، وجدت بعض العزاء في حبيبتي الجديدة؛ لكنني أدرك الآن أنه لم يكن نفس الشيء، وأنه ما من حب يمكنه أن يحل أبداً محل الحب الذي شعرت به تجاه فاو».

قلت لتذكيره: «لقد فقدتها من غير رجعة من قبل، لكنك وجدتها مرة أخرى؛ وربما تجدها ثانية».

قال: «أتمنى أن أشاركك التفاؤل».

ذكرته قائلاً: «ليس لدينا شيء آخر يخفف عنا».

فقال: «أنت على حق»، ثم أضاف ضاحكاً: «ما زلنا نعيش!».

والآن، بعد قسط من الراحة، في الوقت الحاضر، أخذنا نسير على طول الشاطئ في اتجاه مجرى النهر؛ فقد قرنا أن هذا هو مسارنا، إن لم يكن لأي سبب آخر سوى أن النزول أسفل التل أسهل من الحركة إلى أعلاه. ولم تكن لدينا أدنى فكرة إلى أين سيقودنا المسار؛ ربما إلى كوراس؛ وربما إلى أوميان، البحر المدفون الذي ترسو عنده سفن الأبناء الأوائل^(٥٢).

تسلقنا كتلاً من الصخور المبعثرة، واتخذنا مساراً بلا هدف على طول مستوى ممتد من الحصى الناعم، دون أن نعرف إلى أين، ودون هدف نسعى نحوه. توجد حياة نباتية، غريبة ومتنافرة، وعديمة اللون تقريباً لغياب ضوء الشمس. شاهدنا نباتات تشبه الأشجار، تتخذ فروعها الغريبة شكل الزوايا وتُقطع بأقل لمسة. ونظراً لأن الأشجار لم تكن تبدو كأشجار، فلم تكن أزهارها تشبه الزهور. كان عالمًا يختلف عن العالم الخارجي، بمثل ما كانت تصورات الخيال تختلف عن الواقع.

(٥٢) الأبناء الأوائل هم العرق الأسود في المريخ - <http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Searched?query=First+Born> - المترجمة.

وأياً ما كانت التأملات التي انغمست فيها عن نباتات هذه الأرض الغريبة، فقد انتهت فجأة مع التفافنا حول نتوء بارز حيث وجدنا أنفسنا وجهًا لوجه أمام مخلوق بشع لم تقع عيني على مثله من قبل. كان سحلية بيضاء كبيرة، ذات فكين مفتوحين بما يكفي لابتلاع رجل جرعة واحدة. وعند رؤيتنا، أصدرت هسهسة غاضبة، وتقدمت نحونا في تهديد.

ولأننا غير مسلحين وتحت رحمه أي مخلوق يهاجمنا، اتبعنا الخطة الوحيدة التي تملئها فطنتنا -التراجع- ولا أخجل من الاعتراف بأننا تراجعنا سريعًا.

ركضنا بسرعة حول نهاية النتوء، ثم استدرنا بحدة عند الشاطئ بعيدًا عن النهر. ارتفع الجزء السفلي من الكهف ارتفاعًا حادًا؛ وخلال تسلقي إلى أعلى، كنت أنظر خلفي أحيانًا لمشاهدة تصرفات مُطارِدنا. لقد أصبحت مرئية الآن بوضوح؛ فبعد أن تتبعتنا وراء نهاية النتوء، توقفت وأخذت تنظر حولها كأنما تبحث عنا. يبدو أنها لم ترنا، على الرغم من أننا لم نكن بعيدين عنها. وسرعان ما أصبحت مقتنعة بوجود خلل في بصرها؛ لكنني لم أرغب في الاعتماد على ذلك، فواصلت التسلق حتى قمة النتوء. نظرت إلى الجانب الآخر، ورأيت مساحة شاسعة من الحصى الناعم، تمتد إلى مسافة معتمة على طول شاطئ النهر. شعرت بأننا قد نفلت من انتباه الوحش الضخم إذا استطعنا الهبوط إلى الجانب الآخر من الحاجز والوصول إلى هذا المستوى الممتد من الحصى. ألقيت لمحة أخيرة نحوها، لا تزال واقفة، تتطلع أولاً في اتجاه ثم في الاتجاه الآخر كأنما تبحث عنا.

كان نور آن خلفي، وانزلقنا معًا الآن على حافة الجرف. وعلى الرغم من شدة خدش الصخور الخشنة، وصلنا أخيرًا إلى الحصى أدناه؛ وهنا، وبعد أن تملصنا ممن يهددنا، انطلقنا نركض أسفل النهر. قطعنا بصعوبة أكثر من خمسين خطوة، ثم تعثر نور آن على إحدى العقبات. وعندما انحنيت لمساعدته على النهوض، رأيت أن الشيء الذي تعثر فيه هو عتاد متعفن لمحارب، وبعد لحظة رأيت مقبض سيف يبرز من الحصى. أمسكت به، وسحبته بقوة من الأرض. كان سيفًا طويلًا جيدًا، ويمكنني أن أقول لك إن شعوري به في يدي أعاد لي ثقتي بنفسى أكثر من أي شيء آخر قد يكون حدث. ولأن السيف مصنوع من معدن غير قابل للتآكل، مثل جميع أسلحة برسوم، فقد ظل في حالة جيدة كحالته يوم تركه صاحبه.

«انظر»، قال نور آن مشيرًا إلى عتاد آخر وسيف آخر على مسافة قليلة. كانا سيفين؛ سيفًا طويلًا وسيفًا قصيرًا، وأخذهما نور آن. وتوقفنا عن الركض. كنت أشعر دائمًا أنه لا يوجد في برسوم ما يجعل اثنين من المحاربين المسلحين تسليحًا جيدًا في حاجة إلى الركض.

واصلنا طريقنا عبر مستوى الحصى الممتد، وسعينا إلى حل لغز هذه الأسلحة المتروكة؛ وهو اللغز الذي يزداد غموضًا باكتشاف أسلحة أكثر. في بعض الحالات نجد العتاد وقد تعفن تمامًا دون أن يترك سوى الأجزاء معدنية، بينما نجده في حالات أخرى سليمًا وجديدًا نسبيًا. شاهدنا الآن كومة بيضاء أمامنا، لكننا لم نتمكن بداية، في الضوء الخافت بالكهف، من تحديد مكوناتها. وعندما فحصناها، وجدناها

مملوءة بالعرب: كومة بيضاء من عظام وجماجم بشرية. إذن ها هو
أخيراً تفسير العتاد والسلاح المهجور. هذا مخبأ السحلية الكبيرة. هنا
تقتل المخلوقات التعيسة التي تمر أسفل النهر؛ ولكن، كيف يمكن
أن يصل رجال مسلحون إلى هذا المكان. لقد وصلنا إلى الكهف غير
مسلحين، وأعتقد أن هذا كان حال جميع سجناء تجاناث المحكوم
عليهم. من أين أتى الآخرون؟ لا أعرف، ودون شك لن أعرف. كان
لغزاً من البداية، وسيظل لغزاً إلى النهاية.

خلال سيرنا، تناثر حولنا العتاد والسلاح، لكن العتاد كان أكثر بما
لا يقاس من الأسلحة.

أضفت سيفاً قصيراً جيداً إلى معداتي، فضلاً عن خنجر، كما
فعل نور آن أيضاً. انحنيت لفحص سلاح آخر وجدناه - سيف قصير،
ذو مقبض وواقٍ مزخرفين بشكل جميل - وفجأة أطلق نور آن صيحة
تحذير.

صاح: «احترس، هادرون! إنها قادمة!».

وقفت على الفور، واستدردت سريعاً والسيف القصير لا يزال في
يدي. رأيت السحلية البيضاء الكبيرة تسرع نحونا، بفكيها الواسعين
المتفخين، وتطلق هسهسة تنذر بالسوء. كان مشهدها بشعاً، مشهداً
يجعل حتى الرجل الشجاع يستدير ويهرب؛ وأعتقد أن هذا ما فعله
عملياً جميع ضحاياها؛ وإنما الآن يوجد اثنان لم يهربا. ربما كانت قريبة
جداً إلى حد أننا أدركنا عدم جدوى الفرار دون التفكير في الأمر بوعي.
على أي حال، وقفنا - نور آن بسيفه الطويل في يده، وأنا بسيفي القصير

المزخرف الذي كنت أفحصه، على الرغم من أنني أدركت على الفور أنه ليس السلاح الذي أدافع به عن نفسي ضد هذا الوحش العملاق. على أنني لم أكن لأتحمل إضاعة سلاح موجود في يدي بالفعل، لا سيما في ضوء إنجازي الذي أفخر به كثيرًا.

في هيلوم، يراهن غالبًا كل من الضباط والرجال بمبالغ كبيرة على دقة إلقاء الخناجر والسيوف القصيرة، وقد رأيت مبالغ كبيرة تتبادلها أيديهم في ساعة واحدة؛ لكن دقة مهارتي جعلتني أضيف الكثير إلى مستحقاتي نتيجة لفوزي، إلى أن ذاعت شهرتي إلى حد أنني لم أعد أجد أحدًا يرغب في المنافسة بين مهارته ومهارتي.

لم أقذف سلاحًا وأنا أصلي بحماس رغبة في الدقة أكثر مما فعلت الآن وأنا أطلق سيفي القصير بسرعة إلى فم السحلية التي تتحرك نحونا. لم تكن رمية جيدة؛ كانت لتفقدني نقودي في هيلوم، لكنها في هذه الحالة أنقذت حياتي. بدلًا من أن يسرع السيف في خط مستقيم ورأسه في المقدمة، كما يجب أن يكون، تحول ببطء إلى أعلى بحيث أصبح يتحرك بزاوية مقدارها حوالي خمس وأربعين درجة، مع رأسه إلى الأمام وبانخفاض. وبهذا الوضع، انطلق رأس السيف مباشرة داخل الفك السفلي للمخلوق، بينما استقر المقبض الثقيل، منطلقًا بزخمه، في سقف فم الوحش.

أصبحت السحلية عاجزة على الفور؛ اخترق رأس السيف لسانها ودخل في عظام فكها السفلي، بينما استقر مقبضه في فكها العلوي خلف أنيابها القوية. لم تستطع إزاحة السيف، سواء إلى الأمام أو إلى

الخلف، وتوقفت للحظة وهي تطلق هسهسة تنم على الفزع. وفي الوقت نفسه، قفزنا أنا ونور آن إلى جانبيين مختلفين من جسمها الأبيض المروع. حاولت الدفاع عن نفسها بذيلها ومخالبها، لكننا كنا أسرع منها؛ وهي ترقد الآن في بركة من دمها الأرجواني، وفي نهاية رد فعل عضلي تشنجي قبل موتها.

كان هناك شيء غريب، مثير للاشمئزاز والقرف، في الدم الأرجواني للمخلوق؛ ليس مجرد مظهره، وإنما أيضًا رائحته التي تثير الغثيان. ولم نضع أنا ونور آن أي وقت، وابتعدنا عن مسرح انتصارنا. غسلنا سيوفنا في النهر، ثم واصلنا سعيينا العقيم.

شاهدنا الأسماك في النهر، خلال غسل سيوفنا. وبعد أن قطعنا مسافة كافية بعيدًا عن عرين السحلية، قررنا شحذ طاقاتنا لفترة وملء بطوننا.

لم يمسك أي منا بسمكة من قبل أو أكلها، لكننا نعرف من التاريخ إمكانية صيد الأسماك وأنها صالحة للأكل. ولأننا مبارزان، نظرنا بطبيعة الحال إلى سيوفنا كأفضل وسيلة لتأمين جسدنا. وبالتالي، نزلنا إلى النهر بسيوفنا الطويلة جاهزة لذبح السمك لإسعاد قلوبنا. ولكن، أينما ذهبنا لم نجد أي أسماك. كنا نراها في أماكن بعيدة عن متناول سيفينا.

قال نور آن: «ربما الأسماك ليست بالغباء الذي تبدو عليه. يرون اقترابنا ويتشككون في دوافعنا».

قلت: «يمكن الاعتقاد بسهولة أنك على حق. فلنحاول وضع استراتيجية».

سألني: «كيف؟».

قلت: «تعال معي، سوف نعود إلى الشط». بعد البحث قليلاً أسفل مجرى النهر، وجدت حافة صخرية تطل على النهر. قلت: «سوف نكمن هنا على فترات، مع أعيننا ورؤوس سيوفنا فقط فوق الحافة. يجب ألا نتحدث أو نتحرك، خشية أن نُخيف الأسماك. ربما يمكننا بهذه الطريقة الحصول على سمكة»، فقد تخلّيت منذ فترة طويلة عن فكرة الذبح العام.

لسعادتي، نجحت الخطة؛ فلم يمضِ وقت طويل قبل أن يحصل كل منا على سمكة كبيرة.

نحن بطبيعة الحال، مثلنا مثل غيرنا، نفضل اللحم المطبوخ. ونظرًا لأننا محاربان، كنا معتادين على الحاليتين. ولذا، أنهينا صيامنا الطويل بأسمك نيئة من نهر الغموض.

شعر كلانا بالانتعاش والقوة بعد الوجبة، حتى وإن لم تكن مستساغة. مرت فترة منذ آخر مرة نمنا فيها، ولم تكن لدينا فكرة عما إذا كان الوقت لا يزال ليلاً على سطح برسوم، أو أصبح فجرًا بالفعل. قررنا أن النوم أفضل لنا؛ رقد نور آن، وتوليت أنا الحراسة. وبعد أن استيقظ، أخذت دوري في النوم. أعتقد أن كلينا لم ينم أكثر من زود واحد، لكن الراحة أفادتنا بقدر ما أفادنا الطعام الذي تناولناه. وأنا على يقين أنني لم يسبق أن شعرت بمثل هذه اللياقة التي شعرت بها عندما انطلقنا ثانية في رحلتنا هذه التي بلا هدف.

لا أعرف قدر الوقت الذي مر بعد نومنا، فالرحلة أصبحت الآن

أكثر رتابة. لم يتغير كثيرًا مشهد المناظر الطبيعية المعتم المحيط بنا، ولم يكن في رفقتنا سوى هدير النهر وعويل الرياح دون انقطاع.

كان نور آن أول من لاحظ التغيير؛ أمسك ذراعي وأشار إلى الأمام. لا بد أنني كنت أنظر نحو الأرض أمامي خلال سيرتي، وإلا لرأيت في الوقت نفسه ما رآه.

صحت: «إنه ضوء النهار. إنها الشمس».

فقال: «لا يمكن أن تكون أي شيء آخر».

هناك، أماننا، يقع مدخل مقبب من الضوء. هذا كل ما أمكننا رؤيته من موقع اكتشافنا له. أسرعنا ونحن نكاد نركض تقريبًا. كنا نتلهف إلى حل، ونأمل أن يكون ضوء الشمس بالفعل، وأن النهر قد وجد طريقه، على نحو غامض لا يمكن تفسيره، إلى سطح برسوم. كنت أعرف أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا، كما كان نور آن يعرف أيضًا؛ ومع ذلك، يعرف كل منا مدى خيبة أمله عندما يكتشف التفسير الحقيقي لهذه الظاهرة.

عندما اقتربنا من رقعة الضوء الكبيرة، أصبح أكثر وضوحًا أن النهر خرج من كهفه المظلم إلى ضوء النهار. وعندما وصلنا إلى حافة هذا المدخل الجبار، رأينا مشهدًا ملأ قلوبنا بالدفء والبهجة؛ إذ يمتد أماننا وادٍ - وادٍ صغير، صحيح - وادٍ مُحاط، بقدر ما يمكننا الرؤية، بمنحدرات جبارة، لكنه وادي الحياة والخصوبة والجمال تحت ضوء الشمس الحار.

قال نور آن: «إنه ليس سطح برسوم، وإنما الشيء الثاني الأفضل». قلت: «لا بد أن هناك وسيلة للخروج. يجب أن توجد وسيلة ما. وإن لم توجد، سوف نوجد». صاح: «أنت مُحق، هادرون الهاستوري. سوف توجد وسيلة. هيا!».

كانت ضفاف النهر الهادر مُبطنة بنباتات وفيرة؛ أشجار كبيرة تمتد فروعها المورقة أعلى بكثير من المياه؛ والموجات الصغيرة تلف المرجة القرمزية المتألقة، وتزدهر الشجيرات والزهور الرائعة في كل مكان بألوان وأشكال عديدة. لم أشهد على سطح برسوم من قبل مثل هذه الحياة النباتية. توجد هنا أشكال مماثلة لتلك المألوفة، وتوجد أشكال أخرى لا أعرفها على الإطلاق، غير أنها جميعًا جميلة رغم غرابة بعضها.

ونظرًا لأننا خرجنا من باطن الأرض المظلم الكئيب، كان المشهد أمامنا صورة لجمال عجيب. وعلى الرغم من أن جمال المشهد يعززه دون شك ما كنا فيه من مشهد نقيض، فقد كان مشهدًا يندر أن تراه أعين أي برسومي اليوم. تبدو لي هذه البقعة كحديقة صغيرة على عالم آخذ في الاحتضار، محفوظ منذ عصر قديم عندما كان برسوم في شبابه وكانت الأحوال الجوية لصالح نمو الحياة النباتية، التي انقرضت منذ ذلك الحين في مجمل مساحة الكوكب تقريبًا. في هذا الوادي العميق، المُحاط بمنحدرات شامخة، كان الجو أكثر كثافة دون شك على سطح هذا الكوكب. وكانت أشعة الشمس تنعكس على الجرف الشاهق،

الذي لا بد أنه احتفظ أيضًا بالحرارة خلال فترات الليل الباردة. وعلاوة على ذلك، كانت مياه الري وفيرة؛ وربما أنجزت الطبيعة ذلك بسهولة عن طريق ترشيح مياه النهر خلال تربة الوادي العلوية وتحتها.

وقفت مع نور آن لعدة دقائق مفتونين بالمشهد الخلاب، ثم لمحنا فاكهة شهية تتدلى في عناقيد كبيرة من بعض الأشجار والشجيرات المُحملة بالتوت. وما كان منا إلا أن أخضعنا الجمال إلى احتياجاتنا، وقررنا استكمال وجبتنا من الأسماك النيئة بالمعروض الرائع الذي يتدلى أمامنا ويغرينا. بدأنا نتحرك خلال النباتات، وأدركنا الخيوط الرقيقة لمادة شبيهة بالحريز تنتقل كالزينات من شجرة إلى شجرة ومن شجيرة إلى شجيرة. كانت شديدة الرقة إلى حد كونها غير مرئية تقريبًا، لكنها كانت قوية جدًا على نحو يعيق تقدمنا. فوجئنا بصعوبة كسرها؛ وعند وجود عشرة أو أكثر في وقت واحد يمنعون طريقنا، وجدنا من الضروري استخدام خناجرنا لشق طريق خلالهم.

سرنا خطوات قليلة في عمق الغطاء النباتي، ونحن نشق طريقنا خلال الخيوط الحريرية، عندما واجه تقدمنا عقبة جديدة ومثيرة للدهشة - عنكبوت ضخيم يبدو من مظهره سأمًا، يهرول نحونا في وضع مقلوب، تتشبث دزينة من سيقانه بأحد الخيوط الحريرية، مما يسهم في دعمه وفي مساره؛ وإذا كان مظهره يدل على سُميته، فلا بد أنه حشرة مميتة بالفعل.

عندما تحرك نحوي، بنوايا شريرة واضحة، أسرع في إعادة خنجري إلى غمدته وامتشقت سيفي القصير وقذفته نحو المخلوق

المخيف. تراجع إلى الورا بحيث خدشه رأس خنجري قليلاً، وعندئذ فتح فمه البشع وأطلق صرخة مروعة لا تتناسب مع حجمه ومع طبيعة تلك الحشرات التي أعرف أن تأثيرها مزعجاً لأعصابي. وفي الحال استجابت لصرخته جوقة غريبة من الصرخات المماثلة حولنا، وظهر على الفور سرب من تلك الحشرات المروعة يركض نحونا فوق تلك الخيوط الحريرية. ويبدو أن الوضع المقلوب كان الوضع الوحيد لحركتهم، وأن شباكهم هي الوسيلة الوحيدة لتحقيقه؛ إذ ارتفعت أرجلهم الاثنا عشر من ظهورهم، ما أعطاهم مظهرًا أكثر غرابة.

خشية من سُمية هذه المخلوقات، تراجعت مع نور آن بسرعة نحو مدخل الكهف. ونظرًا لعدم قدرة العناكب على تجاوز خيوطها، كنا آمنين منهم تمامًا. على أن الفاكهة الشهية بدت الآن أكثر إغراء، يبدو لأنها أصبحت صعبة المنال.

قال نور آن بابتسامة حزينة: «يبدو أن الطريق أسفل النهر محروس جيدًا، مما قد يشير إلى هدف مرغوب أكثر».

أجبت: «الفاكهة هي أكثر شيء في العالم أرغبه في الوقت الحاضر، وسوف أحاول اكتشاف بعض الوسائل للحصول عليها».

تحركت إلى اليمين، بعيدًا عن النهر، وبحثت عن مدخل إلى الغابة خال من خيوط العناكب؛ ووصلت إلى موضع وجدت فيه دربًا محدد المعالم يبلغ اتساعه حوالي أربعة أو خمسة أقدام، ويبدو أن شخصًا شقه بين الغطاء النباتي. على أن آلاف الخيوط الشبيهة بالحرير كانت تمتد عند مدخله. لمسها، كما نعرف، سيكون إشارة لأعداد غفيرة من

العناكب الغاضبة لتتوجه نحونا. وبينما كان خوفنا الأساسي، بالطبع، أن تكون هذه الحشرات سامة، فإن أفواههم ذات الأنياب القاسية تطرح - بغض النظر عن سميتها من عدمه - أنها قد تشكل، بحكم أعدادهم الكبيرة، خطرًا حقيقيًا.

قلت لنور آن: «هل لاحظت أن هذه الخيوط تبدو ممتدة عبر مدخل المسار فقط. لا ألمح أيًا منها بعد المدخل، مع أن رقعتها تحول بطبيعة الحال دون رؤيتها ولو على مسافة قصيرة».

قال نور آن: «لا أرى أي عناكب هنا. ربما يمكننا مواصلة طريقنا مع تجنبها في هذه المرحلة».

قلت، وأنا أسحب سيفي الطويل: «سوف نحاول».

قطعت بعض الخيوط القليلة خلال سيرتي، وعلى الفور تدفقت من جانبي الأشجار والشجيرات مجموعات كبيرة من الحشرات، تسرع كل منها على خيطها المنفرد. في حالة الخيوط السليمة، كانت تلك المخلوقات تعبر الدرب وهي تحدد نحونا بأعينها البغيضة الكريهة، وتوجه أنيابها القوية اللامعة تهديدًا نحونا.

طافت الخيوط المقطوعة في الهواء إلى أن سحبها إلى أسفل وزن العناكب المقتربة، التي استمرت في حركتها حتى النهايات المقطوعة وليس أكثر. وهنا، إما تتدلى غاضبة نحونا أو تتسلق صعودًا وهبوطًا بانفعال، دون أن يغامر أي منهم على الإطلاق أن يترك حبله.

راقبتهم، وأثار سلوكهم الغريب خطة في ذهني. قلت لنور آن:

«يصبحون لا حول لهم ولا قوة عند قطع شبكتهم. فإذا قطعنا كافة شبكاتهم، لن يتمكنوا من الوصول إلينا». وعلى ذلك، رفعت سيفي الطويل فوق رأسي، مع تحريكه خلال سيرتي، بحيث يقطع قطعت الخيوط المتبقية. وعلى الفور بدأت المخلوقات تطلق صرخاتها الجهنمية. سقط العديد منهم، الذين فصلتهم ضربات سيفي عن شبكاتهم، ووقعوا على الأرض على بطونهم، وأقدامهم معلقة في الهواء. بدت تلك المخلوقات عاجزة تمامًا. وعلى الرغم من أنها صرخت بصوت عالٍ ولوحت بأرجلها بشكل محموم، فقد فقدت تمامًا قدرتها على الحركة؛ ولم تتمكن حتى المخلوقات المتدلية على جانبي الدرب من الوصول إلينا. حطمت بسيفي من وجدتهم خلال المسار، ثم دخلت الغابة ونور أن يتبعني. لم أر أي شبكة عنكبوتية أمامنا، وبدا الطريق واضحًا. وقبل أن نتقدم أكثر داخل الغابة، استدرت لإلقاء نظرة أخيرة على الحشرات المرتبكة لمعرفة ماذا تفعل. توقفت عن الصراخ الآن، وأخذت تعود ببطء إلى أوراق الشجر، ومن الواضح إلى مخابئها. بدا أنها لم تعد تشكل تهديدًا لنا، فواصلنا طريقنا. خلت الأشجار والشجيرات على طول الطريق من الثمار أو التوت. بيد أننا شاهدنا تنمو بوفرة على مسافة بعيدة، خلف حاجز من خيوط تلك الشبكات العنكبوتية التي تعلمنا سريعًا كيفية تجنبها.

قال نور آن: «يبدو أن هذا الدرب من صنع إنسان».

قلت: «بغض النظر من أو متى صنعه، ما من شك أن مخلوقًا ما لا يزال يستخدمه. وعدم وجود ثمار على طوله، يكفي دليلًا على ذلك».

تحررنا بحذر على طول الدرب المتعرج، لا نعرف في أي لحظة قد نواجه خطرًا جديدًا على شكل رجل أو وحش. رأينا أمامنا الآن ما بدت فتحة في الغابة، وخلال لحظات خرجنا إلى أرض خالية من الأشجار. لاحظت في الأفق أمامنا كومة شاهقة من البناء، على مسافة ربما تقل عن هاد واحد. كانت كومة قاتمة، بُنيت على ما يبدو من الصخور البركانية السوداء. ارتفع جدار لحوالي ثلاثين قدمًا فوق سطح الأرض، تخترقه فتحة واحدة - مدخل صغير، أمامنا مباشرة تقريبًا. اتضح أن هذا الجزء من البنية هو جدار، ارتفعت خلفه مبان ذات حدود غريبة ومتناثرة، ويهيمن عليها جميعًا برج شاهق، تنطلق من قمته حزمة من الدخان متموجة في الهواء الساكن.

اكتسبنا في هذا الموقع المتميز رؤية للوادي أفضل مما كانت لدينا. أصبحت أكثر وضوحًا الآن الدلائل التي تشير إلى أنها كانت فوهة بركان عملاق وخمد منذ زمن طويل. بيننا وبين المباني، التي توحى بأنها مدينة صغيرة مسورة، احتوت الأرض الفضاء على عدد قليل من الأشجار المتناثرة، لكن غالبية الأرض كانت مزروعة، وتخللها مصارف ري من النوع العتيق الذي انتهى على سطح الكوكب منذ عصور عديدة وحل محله نظام للري بالتسريب عندما اقتضى تناقص إمدادات المياه اعتماد تدابير للمحافظة عليها.

مع اقتناعي بعدم إمكانية اكتساب أي معلومات إضافية ببقائنا هنا، بدأت أتحرك بجرأة في الأرض الفضاء نحو المدينة. سألني نور آن: «إلى أين تذهب؟».

أجبتة: «أنا ذاهب لمعرفة من يسكن في ذلك المكان الكئيب. هنا توجد حقول وحدائق، وبالتالي لا بد أن لديهم طعامًا وهو، على أي حال، الخدمة الوحيدة التي سأطلبها منهم».

هز نور أن رأسه، وقال: «مجرد مشهد المكان يصيبني بالكآبة». لكنه جاء معي كما توقعت، ذلك أن نور أن رفيق رائع يمكن دائمًا أن يعتمد المرء على ولائه.

قطعنا حوالي ثلثي مسافة الأرض الفضاء نحو المدينة قبل أن نشاهد أي علامة على الحياة، ثم ظهر بعض أشخاص على قمة الجدار فوق المدخل. كانوا يحملون وشاحات طويلة رقيقة، بدت كأنما يلوحون بها ترحيبًا بنا. وعندما اقتربنا، رأيت أنهم مجموعة من النساء الشابات. مالت النساء فوق الحاجز، وابتسمن، وأشرن لنا.

توقفت عند وصولنا إلى مسافة أسفل الجدار تتيح الحديث، وسألت: «أي مدينة هذه، ومن الجِد هنا؟».

صاحت إحدى الفتيات: «ادخلا أيها المحاربان، وسوف نقودكما إلى الجِد». كانت جميلة جدًا وتبتسم بلطف، كما كانت رفيقاتها أيضًا.

قلت هامسًا لنور أن: «ليس المكان كئيبًا كما تصورت».

قال نور أن: «كنت مخطئًا، يبدو أنهم شعب طيب مضياف. هل ندخل؟».

«تعالا»، قالت فتاة أخرى، «فخلف هذه الجدران القائمة يوجد الطعام والنيذ والحب».

الطعام! كنت لأدخل مكاناً أكثر سوءاً بكثير من أجل الحصول على طعام.

عندما خطوت ونور آن في اتجاه الباب الصغير، انزلق ببطء إلى أحد الجوانب. خلف الباب، ترتفع مبانٍ من الصخور البركانية السوداء على طول طريق أسود مرصوف. بدا الشارع مهجوراً ونحن نخطو داخله. سمعنا نقرة باهتة لقفل، والباب ينزلق خلفنا عائداً إلى مكانه. انتابني هاجس مفاجئ ينذر بالشر، ما جعل يدي اليمنى تمسك بمقبض سيفي الطويل.



الفصل (٨)

عنكبوت جاستا

وقفنا للحظة ننظر حولنا مترددين في وسط شارع فارغ، ثم جذب انتباهنا سلم ضيق يمتد من داخل الجدار الذي ظهرت على قمته الفتيات ورحبن بنا.

أخذت الفتيات تهبط السلم. ست فتيات، تشع ابتسامات الترحيب السعيدة من وجوههن الجميلة، وتبدد على الفور كآبة المحيط المظلم مثلما يبدد شروق الشمس ظلام الليل ويحل النور والدفء والسعادة محل ظلاله.

وكان عتادهن جميل الصنع، تثريه العديد من الجواهر المتألقة، ويبرز جمال أجسامهن المثالية. ومع اقترابهن، قفزت إلى ذهني صورة تافيا. مع جمال هؤلاء الفتيات الواضح، كانت تافيا أجمل!

وأذكر حتى الآن بوضوح أنني في تلك اللحظة نفسها، ومع كل ما يحدث لتشتيت انتباهي، تعجبت فجأة مندهشاً من أنني تصورت وجه تافيا وهيئتها وليس سانوما تورا. ولك أن تتصور أنني استعدت وعيي بأن استدرت حول نفسي استدارة كاملة، وبعدها كانت سانوما تورا

هي من رأيت، ودون أي عدم ولاء لصداقتي مع تافيا - تلك الصداقة المباركة التي اعتبرها أعلى وأثمن ممتلكاتي.

توجهت الفتيات ناحيتنا بشغف، بمجرد وصولهن إلى الرصيف. صاحت إحداهن: «مرحبًا، أيها المحاربان، في جاستا السعيدة. لا بد أنكما جائعان بعد هذه الرحلة الطويلة. تعالا معنا وستولى إطعامكما. ولكن أولاً، يريد الجد الأعظم تحيتكما والترحيب بكما في مدينتنا؛ فزوار جاستا قليلون».

قادتنا الفتيات على طول الشارع، حيث لاحظت من مظهر المدينة أنها مهجورة. لا توجد أي علامة على الحياة حول أي بناية من المباني التي مررنا عليها، كما لم نرَ أي إنسان آخر. وصلنا إلى ساحة مفتوحة، ترتفع في وسطها بناية جبارة يحيط بها البرج الشاهق الذي رأيناه عندما خرجنا بداية من الغابة. هنا شاهدنا عددًا من الناس، رجالًا ونساء - ينم مظهرهم عن الحزن والكآبة، يتحركون وأكتافهم محنية وأعينهم مُسدلة. تفتقر خطواتهم إلى الحيوية، ويبدو على مجمل سلوكهم اليأس المطلق. ياله من مظهر يناقض تمامًا مظهر الفرح وسعادة الفتيات اللاتي يمشين معنا بمرح نحو المدخل الرئيس لما يُفترض أنه قصر الجد. يقف للحراسة هنا محاربون بدناء، يتسمون ببنية قوية وأجسام ضخمة - لم يعجبني مظهرهم على الإطلاق. وعند اقترابنا منهم، خرج ضابط من داخل المبنى؛ أكثر بدانة حتى من رجاله. ابتسم وانحنى وهو يرحب بنا. صاح: «تحياتي! لينعم الغرباء الذين يدخلون بوابات جاستا بالسلام».

قالت له إحدى الفتيات: «أرسل إلى جرون، الجد العظيم، أننا أحضرنا اثنين من المحاربين، ويرغبان في تقديم الاحترام له قبل الحصول على كرم الضيافة في جاستا».

أرسل الضابط محاربًا لإخطار الجد بحضورنا، وفي الوقت نفسه اصطحبونا إلى داخل القصر. كان الأثاث لافتًا للنظر، يتسم بروعة التصميم والتنفيذ. استفادوا من خشب الغابة الأصلي في صنع قطع جميلة من الأثاث المنحوت، حيث تتألق حبيبات الأخشاب بألوانها الطبيعية المختلفة، ويبرز جمالها بدهان أنيق لبعض القطع وتلميعها الدقيق؛ ولعل الملمح الأكثر إثارة للدهشة في الزخارف الداخلية هو النسيج المرسوم بشكل رائع ويغطي الجدران والأسقف. كان نسيجًا مشرقًا على نحو لا يُصدق، يعطي انطباعًا أنه نسيج من الفضة. كان مغزولًا بعناية بحيث يمكنه - كما عرفت لاحقًا - الاحتفاظ بالمياه، كما كان من القوة التي يستحيل معها تقريبًا تمزيقه.

توجد عليه رسوم بألوان رائعة لأجمل المشاهد التي يمكن أن يتصورها الخيال؛ رسوم لعناكب برؤوس نساء جميلات، ولنساء برؤوس عناكب. توجد أزهار وأشجار راقصة تحت شمس حمراء كبيرة؛ وتوجد سحالي كبيرة، مثل تلك التي التقينا بها داخل الكهف القائم في رحلة هبوطنا من تجاناث. ولا يوجد في جميع الأشكال المرسومة أي شيء مماثل للأشكال الموجودة في الطبيعة؛ كأنما تصور عقل مجنون الأمر برمته.

انتظرنا في قاعة المدخل الكبير لقصر الجِد، ورقصت أربع فتيات للترفيه عنا- رقصة غريبة لم أشهد مثلها أبداً من قبل في برسوم؛ خطواتها وحرركاتها غريبة ورائعة كالزخارف الجدارية لهذه القاعة، ومع كل ذلك يوجد إيقاع وإيحاء مُعينين في تموجات تلك الأجسام الرشيقة التي نقلت إلينا شعوراً بالرفاهية والبهجة.

بلل البادوار السمين للحرس شفتيه السميكتين وهو يشاهدهن. وعلى الرغم من أنه قد شاهدهن يرقصن من قبل دون شك في العديد من المناسبات، فقد بدا أكثر تأثراً منا بكثير. ولكن، ربما ليس لديه فاو أو سانوما تورا تشغل فكره.

سانوما تورا! وقف الجمال المنحوت لوجهها النبل واضحاً أمام شاشة ذاكرتي للحظة وجيزة، ثم بدأ يتلاشى ببطء. حاولت أن أستعيده، أن أرى مرة أخرى الشفاه القصيرة المتعجرفة والنظرة المستوية البارة، لكن الصورة تراجعت إلى أن طُمست وبرز الآن زوج من الأعين العجيبة، المبللة بالدموع، ووجه مثالي، ورأس أشعث الشعر.

وعندئذ عاد المحارب وأبلغنا أن جرون، الجِد، سوف يستقبلنا على الفور. رافقتنا الفتيات فقط، وبقي البادوار السمين؛ رغم أنني أكاد أقسم أن هذا لم يكن باختياره.

تقع الغرفة التي استقبلنا فيها الجِد عند المستوى الثاني من القصر. كانت غرفة كبيرة، وزخارفها أكثر بشاعة حتى من الغرف التي مررنا خلالها؛ إذ كانت ذات أثاث بأحجام وأشكال غريبة لا تنسجم مع أي شيء آخر، على أن النتيجة كانت نوعاً من انسجام التنافر الذي لم يكن

سيئاً على الإطلاق.

جلس الجِد على عرش ضخم من الزجاج البركاني. ربما كان أكثر قطعة أثاث زخرفة وجمالاً رأيتها على الإطلاق، وكانت عينة رائعة من براعة الحرفة في مجمل مدينة جاستا. وإذا كان قد لفت انتباهي حينذاك، فلم يكن سوى للحظة؛ إذ ما من شيء يمكنه أن صرف الانتباه طويلاً عن الجِد نفسه. لقد بدا للوهلة الأولى أشبه بقرد مُشعر منه إلى رجل. كانت بنيته ضخمة، وأكتافه كبيرة وثقيلة ومنحنية، وذراعه طويلاً يغطيها شعر أسود أشعث ربما هو الأكثر بروزاً لأنه لا يوجد في برسوم عرق للرجال المشعرين. كان وجهه عريضاً ومسطحاً، وعينه متباعدتان على نحو يبدو معه أن كل واحدة منهما تقع في إحدى زاويتي وجهه. عندما توقفنا أمامه، التوى فمه إلى ما تصورت حينذاك أن المقصود هو ابتسامة، لكنها جعلته يبدو أكثر بشاعة.

وضعنا سيوفنا أمام قدميه، وفقاً للعادة؛ وذكرنا أسماءنا ومدننا. كرر: «هادرون الهاستوري، نور آن الجاهاري. يرحب بكم جرون، الجِد، في جاستا. قليلون هم الزوار الذين يجدون طريقهم إلى مدينتنا الجميلة. ولذلك يُعتبر حَدثاً أن يشرفنا اثنين من المحاربين اللامعين بالزيارة. نادراً ما تصلنا كلمة من العالم الخارجي. أخبرونا إذن عن رحلتكما وماذا يحدث على سطح برسوم فوقنا».

كانت كلماته وطريقته تنم عن مضيف مهموم، مصمم على تقديم ترحيب واسع وحار بالغرباء. لكنني لم أستطع التخلص من مسحة سلبية

تجاه ملامحه المثيرة للاشمئزاز، على الرغم من أنني لم أتمكن القيام بأقل من دور الضيف الشاكر الممتن.

سردنا قصصنا وأعطيناه أخبار الكثير عن مناطق برسوم المؤلفات لكل منا. وعندما كان نور آن يتكلم، تجولت بعيني في التجمع المحتشد في القاعة الكبيرة. كانت الأغلبية من النساء، وكثيرات منهن شابات وجماليات. وكان الرجال، في معظمهم، أفضاظ المظهر وبدناء، وتبدو حول أعينهم وأفواههم خطوط معينة من القسوة لم تغب عني، وإن حاولت أن أعزوها إلى أول انطباع كئيب أثارته في ذهني المباني السوداء الحزينة والطرق المهجورة.

بعد أن انتهينا من قصصنا، أعلن جرون أن مأدبة عشاء قد أُعدت على شرفنا، وقاد بنفسه الموكب من غرفة العرش إلى أسفل ممر طويل، وصولاً إلى قاعة مأدبة هائلة، توجد في وسطها طاولة كبيرة، امتدت على طولها زخارف رائعة تتألف بالكامل من فواكه وزهور الغابة التي عبرناها. يقع عرش الجد عند أحد طرفي الطاولة، وتقع عروش أصغر عند الطرف الآخر؛ عرش لنور آن وعرش لي. جلست على جانبينا الفتيات اللاتي رحبنا بنا ودخلنا معهن إلى المدينة؛ ويبدو أن مهمتهن الآن كانت الترفيه عنا.

كان تصميم الأطباق المرصوفة على الطاولة يتسق تمامًا وجميع التصميمات الجنونية الأخرى في قصر جرون. لا يوجد صحنان أو كأسان أو طبقان من نفس الشكل أو الحجم أو التصميم، ولا شيء يبدو مناسباً للغرض المقصود منه. قدموا لي النبيذ في صحن فنجان مسطح

قليلاً ومثلث الشكل، بينما حشروا اللحم في كأس طويل نحيل. على أنني كنت جائعاً جداً، وعلى دراية جيدة بآداب بلياقة المجتمع المهذب، بحيث لم أكشف عما شعرت به من استغراب.

كانت الجدران هنا، كما هو الحال في أجزاء أخرى من القصر، مغطاة بالنسيج الفضي الشبيه بخيوط الحرير، الذي جذب انتباهي وأثار إعجابي منذ لحظة دخولي المبنى؛ وكنت مفتوناً به إلى حد أنني لم أمتنع عن الإشارة إلى ذلك للفتاة التي جلست على يميني.

فقلت: «لا يوجد نسيج مماثل في أي مكان آخر على برسوم. إنه مصنوع هنا، وهنا فقط».

قلت: «إنه جميل جداً. يمكن أن تدفع الأمم الأخرى مبالغ كبيرة نظير الحصول عليه».

قالت: «إذا أمكننا إيصاله لهم؛ ولكن ليس لدينا أي اتصال مع العالم فوقنا».

سألتها: «من أي شيء تنسجونه؟».

أجابت: «عندما دخلت إلى وادي هوفر، رأيت غابة جميلة تمتد إلى ضفاف نهر سيل. ورأيت دون شك الفاكهة في الغابة. ولشعورك بالجوع، سعت إلى جمعها، وعندئذ هاجمتك العناكب الضخمة التي تتحرك بسرعة على طول خيوط فضية، أدق من شعر المرأة».

قلت: «نعم، هذا ما حدث تحديداً».

«من هذه الشبكة التي تنسجها تلك العناكب البشعة، ننسج أقمشتنا.

إنها قوية كالجلود، ودائمة كالصخور التي بُنيت منها جاستا».

سألته: «هل تغزل نساء جاستا هذا النسيج الرائع؟».

أجابت: «العبيد، الرجال والنساء».

سألته: «ومن أين تأتون بالعبيد؟ وليس لديكم أي اتصال بالعالم العلوي؟».

«يأتي العديد منهم خلال أسفل النهر من تجانات، حيث ماتوا في 'الهلاك'؛ ويأتي آخرون من أعلى النهر، لكننا لم نعرف أبدًا لماذا يأتون. فهم شعب صامت، لن يخبرنا. وفي بعض الأحيان يأتون من أسفل النهر، لكنهم قليلون وعادة ما يصيبهم الجنون من أهوال رحلتهم بحيث لا نتمكن من استخلاص المعرفة منهم».

«وهل ذهبت من قبل في اتجاه أسفل النهر من جاستا؟»، سألتها لأنني كنت أمل ومعني نور أن شق طريقنا في هذا الاتجاه بحثًا عن الحرية؛ فقد تمنيت في أعماقي أن ننجح في الوصول إلى وادي دور وبحر كوراس المفقود، لاقتناعي بإمكانية الهرب من هناك، كما فعل جون كارتر وتارس تاركاس.

قالت: «قليلاً، ربما، لكننا لم نعرف أبدًا ماذا هناك؛ إذ لم يرجع أحد».

سألته: «وهل أنت سعيدة هنا؟».

أجبرت نفسها على رسم ابتسامة على شفتيها الجميلتين، لكنني أعتقد أن قشعريرة سرت خلال جسدها.

كانت المأدبة رائعة والطعام لذيذ. كان الضحك كثيرًا في أقصى نهاية الطاولة حيث جلس الجد؛ ذلك أن من يجلسون بالقرب منه كانوا يرقبونه عن كثب، وعندما يضحك -وهو ما يفعله دائمًا عندما يطلق النكات- يضحك الآخرون جميعًا بشدة.

مع اقتراب نهاية الوجبة، دخلت فرقة من الراقصات إلى الشقة. انسحبت أنفاسي عندما وقع بصري عليهن؛ فجميعهن، مع استثناء واحد، مشوهات بفضاعة. والاستثناء الوحيد كان أجمل فتاة رأيتهما من قبل - أجمل فتاة رأيتهما من قبل، لكن وجهها أكثر وجه حزين رأيته من قبل. كان رقصها ساحرًا، وتقفز وتزحف حولها تلك المخلوقات المسكينة التعيسة التي كانت كروبها الحزينة تثير التعاطف وليس السخرية، لكن الواضح أن اختيارهن كان لغرض وحيد هو إعطاء الجمهور فرصة للتنفيس عن السخرية عليهن. ويبدو أن مشهدهن كان يثير عند جرون طربًا مسعورًا؛ ولإضافة المزيد إلى متعته وإزعاج الراقصات المساكين المثيرات للشفقة، كان يرشقهن بالطعام والصحون خلال رقصهن حول طاولة الوليمة.

حاولت تجنب النظر إليهن، لكن فتنة ما في تشوهاتهن جذبت بصري نحوهن، وهنا أدركت أن تشوهات غالبيتهن مصطنعة، وأن كسورهن وانحناءتهن كانت بإيعاز عقل خبيث. وعندما توجهت ببصري، على طول لوح الطاولة، إلى وجه جرون الذي تزيد ضحكاته المبهوسة من تشوّهاته، خمنت أنه صاحب فكرة هذه التشوهات.

غادرت الراقصات أخيرًا، وحمل عبد ثلاث كؤوس كبيرة من النبيذ

إلى قاعة المأدبة؛ كأسان من اللون الأحمر والثالث باللون الأسود. وضع
العبد الكأس الأسود أمام جرون، والكأسين الأحمر أمامي وأمام نور آن.
نهض جرون، وحذا الجميع حذوه.

وأعلن: «جرون، الحِجْد، يشرب نخب سعادة ضيوفه الكرام»، ثم
رفع الكأس إلى شفتيه، وشربه دفعة واحدة.

كان من الواضح أن هذه الطقوس تختتم المأدبة، ومن المفترض
أن نشرب أنا ونور آن في صحة مضيفنا: فرفعت كأسي. إنها أول مرة
يقدمون شيئاً في الوعاء المناسب، وأسعدني أن بإمكانني أخيراً أن في
أشرب دون تكبد خطر تساقط معظم محتويات الوعاء.

قلت: «في صحة وقوة الحِجْد العظيم، جرون»، وشربت محتويات
الكأس دفعة واحدة، اتباعاً لمثال مضيفي.

وبعد أن قام نور آن بالمثل، مع إلقاء بضعة كلمات، شعرت بخمول
مفاجئ وأدركت قبل أن أفقد الوعي بلحظات أنهم وضعوا مخدراً في
النبذ.

عندما استعدت الوعي، وجدتني مستلقياً على أرضية عارية في
غرفة غريبة الشكل، توحى أنها جزء من قوس دائرة تقع بين محيط
دائرتين متحدتين المركز. كان طرف الغرفة الضيق منحنيًا إلى الداخل،
والطرف الأوسع منحنيًا إلى الخارج. توجد نافذة وحيدة صغيرة في
الطرف الواسع؛ ولا يظهر باب أو فتحات أخرى في أي من الجدران
المغطاة بالنسيج الفضي نفسه الذي رأيته على جدران وسقوف قصر
الحِجْد. يرقد نور آن إلى جوارِي، ويبدو أنه ما زال تحت تأثير المواد

المُخدرة التي وضعوها لنا في النبذ.

تجولت ببصري ثانية في أنحاء الغرفة. وقفت، وذهبت إلى النافذة. رأيت أسطح المدينة على مسافة بعيدة في أسفل. من الواضح أنهم سجنونا في البرج الشاهق الذي يرتفع من وسط قصر الحد، ولكن كيف أحضرونا إلى الغرفة؟ بالتأكيد ليس من خلال النافذة، التي لا بد أنها ترتفع بحوالي مائتي قدم فوق المدينة. وبينما كنت أفكر في هذه المشكلة المستعصية، استعاد نور آن وعيه. لم يتكلم في البداية، بل ظل راقداً وهو ينظر نحوي بابتسامة حزينة على شفتيه.

سألته: «حسناً؟».

هز نور آن رأسه وقال بفرع: «ما زلنا نعيش. هذا أفضل ما يمكن أن يقوله المرء».

قلت: «نحن في قصر شخص مهووس، نور آن. ليس لديّ أدنى شك. يعيش كل شخص هنا في رعب دائم من جرون؛ ومما شاهدته اليوم، هناك ما يبرر شعورهم بالرعب».

قال نور آن: «مع ذلك، أعتقد أننا لم نشهد سوى القليل أو لم نشهد شيئاً بعد».

أجبت: «لقد رأيت ما يكفي».

قال بعد لحظة صمت: «أولئك الفتيات جميلات جداً. لا أصدق إمكانية وجود مثل هذا الجمال وهذا الخداع معاً».

قلت: «ربما الفتيات أدوات مُجبرة عند سيد قاس».

قال: «أود دائماً أن أعتقد ذلك».

مضى النهار وهبط الليل؛ لم يقترب أحد منا، لكنى في هذه الأثناء اكتشفت شيئاً. اتكأت مصادفة على جدار الطرف الضيق في غرفتنا، وجدته دافئاً جداً، بل شديد الحرارة في الواقع. ومن هنا استنتجت أن أنبوب المدخنة الذي شاهدناه ينفث الدخان يرتفع في وسط البرج، وأن جدار المدخنة يشكل الجدار الخلفي لشقتنا. إنه لاكتشاف؛ لكنه لا يعني لنا أي شيء حالياً.

كانت شقتنا بلا أضواء؛ ولأن القمر كلوروس بمفرده في السماء وعلى الجانب الآخر من البرج، كان سجننا في ظلام دامس تقريباً. كنا نجلس في حالة تأمل قائم لمحتتنا وتدور في ذهن كل منا أفكار غير سعيدة، عندما سمعت خطوات تقترب قادمة من أسفل. زاد اقترابها إلى أن توقفت أخيراً عند شقة مجاورة، وعلى ما يبدو أنها التالية لشقتنا. وبعد لحظة سمعت صوت كشط، وظهر خط من الضوء أسفل أحد الجدران الجانبية، واستمر في الازدياد حتى أدركت أخيراً أن الجدار الفاصل أخذ في الارتفاع بأكمله. رأينا في الفتحة بداية صنادل أقدام محاربين، وشيئاً فشيئاً ظهرت أجسامهم كاملة - اثنان من الرجال الأقوياء، مفتولا العضلات، ومدججان بالسلاح. كان معهما أصفاد، وكبلاً معصمي كل منا خلف ظهره. لم يتكلما، لكن أحدهما وجهنا بإيماءة لمتابعته. وما أن خرجنا من الغرفة، كان المحارب الثاني في أعقابنا. دخلنا صامتين إلى منحدر حلزوني شديد الانحدار، حيث هبطنا إلى الجسم الرئيس للقصر. على أن مرافقينا واصلا الهبوط، فعرفت أننا لا بد متوجهون إلى

الحُفْر تحت القصر.

الحُفْر! ارتجفت داخليًا. كان البرج أفضل كثيرًا، لأن لديَّ رعبًا دائمًا من الحُفْر. ربما هي حُفْر مظلمة تمامًا، ومملوءة قطعًا بالفئران والسحالي.

انتهى المنحدر إلى شقة رائعة الزينة، تضم نفس مجموعة الرجال والنساء الذين شاركونا المأدبة في وقت سابق من اليوم. هنا، أيضًا، يجلس جرون على عرش. لكنه لم يتسم هذه المرة عند دخولنا الغرفة. يبدو أنه لم يدرك وجودنا. كان يجلس مائلًا إلى الأمام، وعيناه مثبتتان على شيء في أقصى نهاية الغرفة، التي تحطم فجأة صمتها القاتل بصرخة ألم حادة. ولم تكن تلك الصرخة إلا مقدمة لسلسلة من صرخات مماثلة من العذاب.

نظرت بسرعة في الاتجاه الذي جاءت منه الصرخات، وهو الاتجاه الذي كان جرون يثبت نظراته نحوه. رأيت امرأة عارية، مقيدة بالسلاسل على شواية أمام نار ساخنة. من الواضح أنهم وضعوها هناك وقت دخولي الغرفة، وكانت أول صرخة عذابها هي التي جذبت انتباهي.

كانت الشواية فوق عجلات، بحيث يمكن تحريكها إلى أي مسافة من الحريق يختارها الجلاد، أو يمكن إدارتها بالكامل لتعريض الجانب الآخر من الضحية إلى الحريق.

تجولت عيناى مرة أخرى بين الجمهور، ورأيت أن معظم الفتيات يجلسن وأعينهم ثابتة برعب على المشهد المروع. لا أعتقد أنهن يستمتعن به؛ بل أعرف أنهن لم يستمتعن به. فهذه الفتيات أيضًا ضحايا

على قدم المساواة لقسوة تقلبات عقل جرون المريض؛ وعاجزات مثلهن مثل المخلوقة الفقيرة عند الشواية.

وإلى جانب التعذيب نفسه، والخيال الشيطاني للعقل الذي يوجهه، كان هناك الصمت المطلق المفروض على جميع المتفرجين في مواجهة صيحات وأنين الضحية التي تتعرض للتعذيب، صمت يتحقق أعلى تأثيره على عقل الجِد المجنون.

كان المشهد مقرزًا. أدت عيني بعيدًا. والآن، أتى واحد من المحاربين اللذين أحضرانا هنا ولمس ذراعي مشيرًا أن أتبعه.

قادنا من هذه الشقة إلى غيرها، حيث رأينا مشهدًا أكثر ترويعًا من شي ضحية بشرية. لا يمكنني وصفه؛ فمجرد التفكير فيه يُعذب ذاكرتي. قبل أن نصل إلى تلك الشقة البشعة بفترة طويلة، سمعنا صرخات ولعنات نزلاتها. وفي صمت تام، قادنا حراسنا داخلها. إنها غرفة الرعب، حيث يصنع جِد جاستا تشوهات غير طبيعية لرقصة المعاقين القاسية.

قادنا في صمت أيضًا خارج هذا المكان المروع، والآن يصعد بنا مرشدنا إلى شقة مفروشة بترف. تجلس على الأريكة فتاتان من الفتيات الجميلات اللاتي رحبن بنا لدخول جاستا.

للمرة الأولى، منذ أن تركنا غرفتنا في البرج، كسر أحد مرافقينا الصمت، وقال: «سوف يشرحن»، مشيرًا إلى الفتاتين، «لا تحاولا الهرب. لا يوجد لهذه الغرفة سوى مخرج واحد فقط. ونحن في الانتظار خارجه»، ثم أزال قيودنا وغادر مع رفيقه الشقة، وأغلق الباب خلفه.

كانت إحدى الفتاتين هي نفسها تلك الفتاة التي جلست على يميني خلال المأدبة. وقد وجدت لها لطيفة وذكية، فتوجهت نحوها.
سألتها: «ما معنى ذلك؟ لماذا أصبحنا سجناء؟ ولماذا أحضرنا هنا؟».

أشارت لي أن آتي إلى الأريكة التي تنكئ عليها؛ وعندما اقتربت، أشارت لي أن أجلس بجانبها.

وقالت: «ما شاهدتماه الليلة يُمثل الحالات الثلاث المطروحة أمامكما. جرون مُعجب بكما، ويترك لكما الاختيار».

قلت: «أنا لا أفهم تمامًا».

سألتني: «رأيت الضحية أمام الشواية؟».

فأجبت: «نعم».

«هل تبغي معاناة هذا المصير؟».

«كلا».

واصلت: «رأيت التعساء، المنحنيات والمكسورات، لرقصة المعاقين».

أجبت: «نعم».

«والآن ترى هذه القاعة الفخمة وتراني. ماذا تختار؟».

فقلت: «لا أعتقد أن البديل الأخير بلا شروط، مما قد يجعله أقل جاذبية مما يبدو الآن، وإلا لما كان هناك سؤال يتعلق بماذا اختار».

قالت: «أنت على حق. هناك شروط».

سألتها: «وما هي؟».

«سوف تصبح ضابطاً في قصر الجِد، وعلى هذا النحو سوف تقوم بعمليات تعذيب مماثلة لتلك التي رأيتها في حُفر القصر. وسوف توجهك أهواء سيدك، مهما كانت».

وقفت ثم قلت: «اختار الحريق».

قالت بحزن: «كنت أعرف، ومع ذلك تمنيت ألا تفعل».

قلت بسرعة: «ليس بسببك؛ لكن الشروط الأخرى لا يمكن أن يقبلها أي رجل شريف».

قالت: «أعرف؛ وإذا كنت قد قبلتها، لكنت احتقرتك في النهاية بمثل ما أحتقر الآخرين».

سألتها: «أنتِ لستِ سعيدة هنا؟».

قالت: «بالطبع. مَنْ غير شخص مجنون يمكن أن يسعد في هذا المكان المروع؟ هناك، ربما، ستمائة شخص في المدينة، ولا يوجد من يعرف السعادة. يُشكل مائة منا بلاط الجِد؛ والآخرون عبيد. على أننا جميعاً عبيد، في واقع الأمر، نخضع لكل نزوة أو هوس مجنون لذلك المعتوه الذي هو سيدنا».

سألتها: «وما من مهرب؟».

«كلا».

قلت: «أنا سوف أهرب».

«كيف؟»

أجبت: «الحريق».

ارتجفت، وقالت: «لا أعرف لماذا أهتم كثيرًا، ما لم يكن إلا لأنني أُعجبت بك منذ البداية. حتى عندما كنت أساعد في إغرائك لدخول مدينة العنكبوت البشري جاستا، وددت أن أحذرك من الدخول، لكنني كنت خائفة، تمامًا كما أخشى من الموت. أتمنى أن أتمتع بشجاعتك للفرار خلال الحريق».

التفت نحو نور آن، الذي كان يستمع إلى حديثنا، وسألته: «هل اتخذت قرارك؟».

فقال: «بالتأكيد؛ فلا يوجد سوى قرار واحد لأي رجل شريف».

قلت صائحا: «جيد!»، ثم التفتُ إلى الفتاة وسألتها: سوف تخطرين جرون بقرارنا؟».

فقلت: «انتظر؛ يمكنك أن تطلب وقتًا للتفكير. أعرف أن ذلك لن يُحدث أي فرق في النهاية، ولكن - أوه، لا تزال داخلي بذرة أمل، لا يمكن حتى لليأس المطلق أن يدمرها».

قلت: «أنتِ على حق. هناك دائمًا أمل. لنجعله يعتقد أنكِ قاربتِ على إقناعنا بقبول حياة الرفاهية واليسر التي عرضها بديلاً عن الموت أو التعذيب، وأنكِ لو لديكِ المزيد من الوقت ربما تنجحين في إقناعنا بالكامل. وفي غضون ذلك، يمكننا إعداد خطة الهروب».

قالت: «هذا مستحيل».

الفصل (٩)

فورتاك من جهاما

عدت مع نور آن ثانية إلى برج المدخنة، وناقشنا كل خطة مجنونة للهرب تبادرت إلى أذهاننا. لسبب ما لم يقيدونا بأغلال جديدة، ما أتاح لنا على الأقل حرية حركة بالقدر الذي توفره شقتنا، ويمكنك أن تتأكد أننا استفدنا منها بالكامل؛ فقد فحصنا بدقة كل بوصة مربعة في الأرضية والجدران إلى المسافة التي أمكننا الوصول إليها. لكن جهودنا المشتركة لم تكشف عن أي وسيلة لرفع الجدار الفاصل الذي يغلق السبيل الوحيد للهروب من سجننا؛ باستثناء النافذة التي لم يكن من الممكن بأي حال استبعادها من خططنا، على الرغم من قضبانها الثقيلة وارتفاعها بحوالي مائتي قدم فوق سطح الأرض.

صمدت القضبان العمودية الثقيلة التي تحمي النافذة أمام جهدنا المشترك عندما حاولنا ثنيها، على الرغم من قوة نور آن وبنيتي العضلية غير العادية التي يشيدون بها دائمًا. كانت القضبان متقاربة بحيث لا تسمح بمرور أجسادنا، لكن إزالة واحد منه سيتيح فتحة كبيرة الحجم؛

وإنما، لأي غرض؟ ربما كانت نفس الإجابة التي تدور في ذهني تدور في ذهن نور آن- عندما ينعدم الأمل ويبقى الحريق في الشواية هو البديل الوحيد، يمكننا على الأقل خداع جرون وإلقاء أنفسنا من هذه النافذة العالية نحو الأرض التي تبعد بمسافة كبيرة.

على أي حال، مهما كان تصور كل منا لنهايته، فقد احتفظ بها لنفسه. وعندما بدأت أحضر في الأسمت أسفل أحد القضبان مستخدمًا إبريم مشبك من عتادي، لم يسألني نور آن أي سؤال لكنه شرع في عمل مماثل في الأسمت العلوي للقضيب نفسه. كنا نعمل في صمت، وخوفنا من الاكتشاف قليل؛ فلم يدخل أحد سجننا منذ حبسونا فيه. يرفعون الحاجز الفاصل مرة واحدة يوميًا لبضع بوصات لإدخال الطعام من تحته، لكننا لم نر الشخص الذي أحضره، ولم يتواصل معنا أي شخص منذ أن اقتادنا الحراس إلى القصر في تلك الليلة الأولى وإلى لحظة نجاحنا الآن أخيرًا في تخفيف الأسمت حول القضيب بحيث يمكن إزالته بسهولة من موضعه.

لن أنسى أبدًا كيف انتظرنا بفارغ الصبر قدوم الليل، حتى يمكننا إزالة القضيب من النافذة وفحص السطح المحيط في البرج؛ فقد تبادر إلى ذهني أنه قد يوفر وسيلة للهبوط إلى الأرض أدناه، أو بالأحرى إلى سطح المبنى الذي يعلوه البرج، حيث نأمل أن نشق طريقنا إلى قمة سور المدينة دون كشفنا. وبالفعل، وضعت خطة في ضوء هذا الاحتمال تتمثل في تمزيق شرائط من النسيج الذي يغطي الجدران ونصنع منها حبلًا نهبط من خلاله إلى الأرض خارج سور المدينة.

ومع اقتراب الليل، بدأت أدرك أنني بنيت آمالاً كبيرة على هذه الفكرة. كانت تبدو إمكانية إنجازها جيدة بالفعل، لا سيما مع أقصى استفادة من إمكانيات الحبل، بما يشمل صنع حبل طويل بما يكفي للوصول من نافذتنا إلى قاعدة البرج. وهكذا يمكن التغلب على كل عقبة. وعند الغسق، شرحت خطتي لنور آن.

قال: «جيد. فلنبدأ على الفور في صنع الحبل. نحن نعرف مدى قوة هذا النسيج، وضمفيرة رقيقة منه ستتحمل وزننا. وهناك ما يكفي على جدار واحد لصنع الحبل الذي نريده».

بدا نجاحنا شبه مؤكد، وبدأنا إزالة النسيج من أحد الجدران الكبيرة. وهنا واجهتنا أول عقبة. كان النسيج مثبتاً من أعلى وأسفل بمسامير ذات رؤوس كبيرة، موضوعة قريبة من بعضها بعضاً، وصمدت أمام كل جهودنا لتفكيكها. بدا هذا النسيج الرائع، الرقيق وخفيف الوزن، غير قابل للإزالة على الإطلاق. نضبت جهودنا، واضطررنا في النهاية إلى الاعتراف بالهزيمة.

سرعان ما هبط ليل برسوم وبمقدورنا الآن، بسلامة نسبية، إزالة القضيب من النافذة والاستطلاع للمرة الأولى خارج الحدود التي تقيد زنزانتنا؛ بيد أن الأمل الذي كان يعتمل في صدورنا قد انخفض الآن. ومع توقع القليل من التشجيع، سحبت نفسي إلى حافة النافذة، وأخرجت رأسي وكتفي من الفتحة.

تقع أدناي المدينة الحزينة الكئيبة، وقد تقلص سوادها ببعض الأضواء الخافتة التي يصدر أغلبها من نوافذ القصر. مررت براحة يدي

على سطح البرج في حدود متناول ذراعي، وهنا غاص قلبي مرة أخرى داخلي. سطح أملس شبيه بالزجاج، من الصخور البركانية المقطوعة والمرصوفة بشكل جميل، دون أي نتوءات يمكن التثبيت بها- وفي الواقع، قد تجد أي حشرة صعوبة في التثبيت بسطح مصقول.

«إنه لأمر ميووس منه تمامًا»، قلت وأنا أسحب رأسي إلى الغرفة خلفي، «البرج أملس كثدي امرأة».

سألني نور آن: «وماذا يوجد أعلاه؟».

انحنيت ثانية نحو الخارج، ونظرت هذه المرة إلى أعلى. يوجد إفريز البرج فوق مباشرة - تقع زنزانتنا في أعلى مستوى للمبنى. شيء ما دفعني للاكتشاف في هذا الاتجاه - دافع مجنون، ربما ولده اليأس. قلت: «أمسك كاحليّ، نور آن. وباسم سلفك الأول، أمسك بإحكام!».

تشبثت بالقضيبين المتبقين ورفعت نفسي إلى وضع وقوف على حافة النافذة، بينما نور آن يمسك بي من الكاحلين بإحكام. همست لنور آن قائلاً إن بإمكان امتداد أصابعي الوصول فقط إلى قمة الإفريز، ثم نزلت ثانية إلى حافة النافذة، وصحت: «سوف أحاول الوصول إلى سطح البرج».

سألني: «لماذا؟».

ضحكت قائلاً: «لا أعرف، لكن شيئاً داخلياً لديّ يدفعني بإصرار». فقال: «إذا وقعت، ستكون نجوت من الحريق- وسوف أتبعك».

حظًا سعيدًا، يا صديقي الهاستوري!». رفعت نفسي مرة أخرى إلى موضع الوقوف على حافة النافذة، ومددت أصابعي إلى أن التفت على حافة السطح الشاهق. سحبت نفسي ببطء إلى أعلى؛ يقع أسفلي، بحوالي مائتي قدم، سطح القصر والموت. أنا رجل قوي جدًا - لا يمكن إلا لرجل قوي جدًا أن يأمل في النجاح؛ فليس لدي في أحسن الأحوال سوى قبضة غير مستقرة على السطح المستوي فوق، لكنني نجحت أخيرًا في رفع كوعي وتثبيتته، ثم سحبت جسدي ببطء فوق الحافة إلى أن تمكنت في النهاية من الاستلقاء لاهثًا على الرصيف البازلتي الذي يغطي قمة البرج النحيل.

استرحت بضع لحظات، ثم وقفت على قدمي. كان القمر ثوريا الانفعالي المجنون يسرع عبر السماء الصافية؛ وقرينه القمر كلوروس البارد يتخذ دائرته المنفصلة في عزلة رائعة. ويقع أسفلي وادي هور مثل دنيا الخيال المسحور القديمة؛ وفوقي يقع نتوء الجرف الكثيب، الذي يحيط بعالم هذا الرجل المجنون.

شعرت فجأة بهواء ساخن يصطدم بوجهي، مما أعاد إلى ذهني عربة التعذيب التي تجري في أسفل، في حُفر جاستا. ارتفعت صرخة خافتة من فم أنبوب المدخنة الأسود ورائي. ارتجفت، لكن انتباهي كان مركزًا الآن على فتحة التثاؤب تلك، واقتربت منها. تصاعدت من فم المدخنة موجات من الحرارة تكاد لا تُحتمل. الدخان قليل والاحتراق مثالي، لكن شيئًا ما انطلق في الهواء بسرعة مذهلة. وبدا كأنني إن أُلقيت نفسي عليه، فسوف يحملني بعيدًا.

وعندئذ تولدت في ذهني فكرة- فكرة تبدو مجنونة ومستحيلة،
إلا أنها تملككتني. سحبت نفسي بحذر إلى أسفل، على حافة البرج
الخارجية، وتمكنت أخيرًا من استعادة الأمان في زنزانتني.

كنت على وشك شرح خطتي المجنونة لنور آن، عندما قاطعتني
أصوات من الغرفة المجاورة؛ وبعد لحظات بدأ الحاجز الفاصل يرتفع.
تصورت أنهم يجلبون لنا الطعام مرة أخرى، لكن الحاجز الفاصل ارتفع
أكثر مما يتطلبه تمرير أوعية الطعام من تحته. وشاهدنا بعد لحظة، أسفل
قاعدة الجدار الآخذ في الارتفاع، كاحلين وساقين لامرأة. انحنت فتاة
ودخلت زنزانتنا. تعرفت عليها في ضوء الغرفة المجاورة- إنها الفتاة
التي اختارها جرون لإغرائني بالخضوع لإرادته. كان اسمها شارو.

أعاد نور آن القضيبي بسرعة إلى موضعه على النافذة، وعندما
دخلت الفتاة لم يكن هناك ما يدل على تغيير أي شيء، أو أن أحدنا
كان خارج الزنزانة. ظل الحاجز الفاصل نصف مرفوع، ما سمح بدخول
الضوء إلى الشقة. لا بد أن الفتاة لاحظت، وهي تحديق في وجهي، أن
نظراتي تتجول في الغرفة المجاورة.

قالت بابتسامة حزينة: «لا تُعلق آمالاً كبيرة. الحراس ينتظرون في
المستوى التالي أدناه».

سألتها: «لماذا أتيت، شارو؟».

أجابت: «جرون أرسلني. لقد نفذ صبره انتظاراً لقرارك».

فكرت بسرعة. أملنا الوحيد يكمن في تعاطف هذه الفتاة، الذي

اتضح ودها على الأقل من موقفها السابق. قلت هامسًا: «لو كان لدينا خنجر وإبرة، يمكننا إعطاء جرون الإجابة في صباح بعد غد».

سألته بعد لحظة من التفكير: «ما السبب الذي يمكنني قوله له عن هذا التأخير؟».

قال نور آن: «قولي له إننا نناجي أسلافنا، وقرارنا يعتمد على مشورتهم».

ابتسمت شارو. سحبت خنجرًا من غمده في جانبها ووضعتة على الأرض، وأخرجت إبرة من جيب حقيبة معلقة على عتاها ووضعتها بجوار الخنجر. وقالت: «سوف أقنع جرون أنه من الأفضل الانتظار. كان قلبي يأمل، هادرون الهاستوري، أن تقرر البقاء معي. لكنني سعيدة لأن تقديري لشخصيتك لم يكن خاطئًا. سوف تموت، يا محاربي، لكنك على الأقل ستموت كما يجب أن يموت رجل شجاع وشريف. وداعًا! إنني أنظر إليك للمرة الأخيرة وأنت حي؛ وإلى أن ألتقي مع أسلافي، ستظل صورتك محفورة في قلبي».

ذهبت، وهبط الحاجز الفاصل، وأصبحنا مرة أخرى في شبه ظلام ليلة يضيئها القمر. لدينا الآن الشيطان اللذان كنت أرغبهما بشدة - الخنجر والإبرة.

«ما فائدتهما؟»، سألتني نور آن وأنا آخذهما من على الأرض.

أجبتة: «سترى»، وبدأت العمل فورًا بأن قطعت النسيج من جدران زنزانتنا، ثم وقفت فوق كتفي نور آن وأزلت أيضًا النسيج الذي يغطي

السقف. كنت أعمل بسرعة لمعرفتي أن الوقت المتاح قليل لإنجاز ما شرعت فيه. كان مخططاً مجنوناً، لكنه يقع داخل نطاق إمكانية التطبيق العملي.

كنت أعمل في الظلام، معتمداً على حاسة اللمس أكثر من البصر؛ ربما بإلهام من قوة عُليا لإنجاز المهمة التي حددتها لنفسي بأي درجة من الكمال.

اشتغلت ومعني نور آن في الفترة المتبقية من هذه الليلة وطوال اليوم التالي دون راحة، إلى أن ابتكرنا حقبة ضخمة من النسيج الذي يغطي جدران وسقف زنزانتنا؛ كما صنعنا حبلاً طويلة من القصاصات التي تبقت. واكتملت مهمتنا مع حلول الليل.

قلت: «فليكن الحظ حليفنا».

قال نور آن: «هذا المخطط جدير بعقل جرون المجنون نفسه؛ لكنه يتضمن إمكانات نجاحه».

قلت: «هبط الليل؛ لسنا بحاجة إلى التأخير لفترة أطول. لكن علينا أن نتأكد من شيء واحد؛ سواء نجحنا أو فشلنا، فإننا سنتجنب الحريق. وفي الحاليتين، أهيّب بأسلافنا النظر بحب ورحمة إلى شارو، التي أتاحت لنا صداقتها إمكانية هذه المحاولة».

أضاف نور آن، تصحيحاً لكلامي: «التي أتاح حبها».

أقدمت ثانية على الصعود المحفوفة بالمخاطر إلى السطح، وأخذت معي أحد حبالنا حديثة الصنع. وعند وصولي إلى القمة ألقيت

بالجبل إلى نور آن، حيث ربط الحقيقة الكبيرة به، وبعدها حصدت ثمار جهدنا وسحبناها بعناية إلى السطح بجواري. كانت الحقيقة خفيفة خف الريشة، لكنها أقوى من جلد زيتيدار^(٥٣) مدبوغ جيداً. أنزلت الجبل بعد ذلك، وساعدت نور آن ليصعد إلى جانبي، ولكن ليس قبل أن يُعيد القضيب الذي أزلناه من النافذة إلى مكانه.

كان عدد من الحبال الطويلة التي تنتهي بأنشوطات مربوطاً في قاع الحقيقة، التي كانت مفتوحة، وقمنا بتمرير أطول حبل صنعاه خلالها - وكان الجبل طويلاً إلى حد تطويق محيط البرج تماماً - عندما ألقيناه أسفل الإفريز الناتئ. قمنا بعملنا بسرعة، مع عقدة منزلقة يمكن فكها على الفور بهزة واحدة.

بعد ذلك، انزلت أنشوطات نهاية الحبال، المعلقة بقاع الحقيقة على طول الجبل الذي يطوق البرج تحت الإفريز، إلى أن استطعنا بمهارة تحويل فتحة الحقيقة مباشرة فوق فم أنبوب المدخنة المؤدي إلى أسفل، إلى فرن الموت في حُفر جاستا. وقفت ونور آن على جانبي أنبوب المدخنة، ورفعت الحقيقة إلى أن بدأت تمتلئ بالهواء الساخن المندفَع من المدخنة. انتفخت الحقيقة بما يكفي للبقاء في وضع مستقيم، فانتقلت فوقها تاركاً نور آن لتثبيتها، ثم قمت بتحريك الأنشوطات إلى أن أصبحت على مسافات متساوية، مما أدى إلى تثبيت

(٥٣) الزيتيدار: حيوان مريخي يشبه الفيل، ويُعتبر من حيوانات البحر الثقيلة حيث يُستخدمه المريخيون غالباً في حمل الأحمال الكبيرة لمسافات شاسعة وجَر المركبات الضخمة. <http://barsoom.wikia.com/wiki/Zitidar> - المترجمة.

الحقيقية فوق مركز أنبوب المدخنة مباشرة. وبعدها قمت بتمرير الحبل الأخير على نحو فضفاض خلال الأنشطةات وربط نهايته معًا. وعلى طرفي الحبل المقابلين، شبكت خطافات الصعود التي تُعد جزءًا من عتاد كل محارب برسومي- ويمكن الغرض الأساسي لهذه الخطافات في خفض أطراف الصعود من سطح سفينة إلى أخرى أدناها مباشرة، لكنها في الممارسة العملية تُستخدم بطرق لا تُحصى في العديد من حالات الطوارئ.

ثم انتظرنا؛ نور آن على استعداد لترك العقدة تنزلق -العقدة التي تمسك الحبل حول البرج تحت الإفريز- وأنا على الجانب الآخر، ومعي خنجر شارو وعلى استعداد لقطع الحبل الموجود على جانبي. رأيت الحقيقية الكبيرة التي صنعناها تمتلئ بالهواء الساخن. تضخمت في البداية على نحو فضفاض، ثم اهتزت وتأرجحت؛ وبعد ذلك انتفخ جانبها وبدأت تجاهد للصعود. امتد نسيجها بإحكام إلى حد أنني تصورت أنها ستنفجر. أخذت تُسحب وتُجر من الحبال التي تقيدها، لكنني انتظرت.

كانت الرياح قليلة أو منعدمة في وادي هوفر أسفلنا، مما سهّل إلى حد كبير تنفيذ مغامرتنا المتهورة.

تضخمت فوقنا الحقيقية الكبيرة، التي أصبح حجمها مماثلاً تقريباً لحجم الغرفة التي حبسونا فيها. جاهدت فوق حبالها بنفاد صبر لترتفع عالياً إلى حد تعجبي من قوة صمودها، ثم أعطيت كلمتي.

وفي الوقت نفسه، ترك نور آن العقدة التي عنده كي تنزلق، وعندئذ

قمت بقطع الجبل على الجانب الآخر. تحررت الحقيقة الضخمة وانطلقت عاليًا، وهي تسحبنا في أعقابها. انطلقت إلى أعلى بسرعة مذهلة إلى أن أصبح وادي هوفر مجرد ثقب صغير في سطح العالم الكبير الذي يقع أسفلنا.

واجهتنا الرياح الآن، ويمكنك أن تطمئن أننا شكرنا أسلافنا عندما أدركنا أننا ننجرف أخيرًا بعيدًا عن مدينة جاستا القاسية. زادت الرياح إلى أن أصبحت تهب سريعًا في اتجاه الشمال الشرقي، لكننا لم نهتم كثيرًا بالمكان الذي تدفعنا إليه، ما دامت تأخذنا بعيدًا عن نهر سيل ووادي هوفر.

بعد أن تجاوزنا فوهة البركان القديم، التي تُشكل قاع الوادي حيث توجد جاستا الكثيفة، شاهدنا أسفلنا، في ضوء القمر، بلدة بركانية قاسية ذات مظهر غريب ومثير للإعجاب من اللاواقعية؛ تشكل الفجوات العميقة وأكوام البازلت المتداعية عائقًا لا يمكن أن يتغلب الإنسان عليه، وهو ما قد يفسر سبب عدم اكتشاف وادي هوفر الذي يقع في هذه الزاوية البعيدة المهجورة من برسوم منذ عصور.

تزايدت الرياح، وحملتنا على ارتفاع كبير بسرعة كبيرة. على أنني أدركت أننا نهبط ببطء شديد مع زيادة برودة الهواء الساخن داخل الحقيقة. ولم أستطع تخمين إلى متى سوف تبقينا الحقيقة في أعلى، لكنني كنت أمل أنها سوف تحملنا إلى ما يتجاوز على الأقل تلك التضاريس الصعبة أسفلنا.

ومع حلول الفجر، كنا نطفو على مسافة بضع مئات من الأقدام

فوق سطح الأرض. أصبحت البلدة البركانية خلفنا الآن، وتمتد أمامنا، بقدر ما يمكننا الرؤية، تلال متموجة جميلة، تتناثر عليها أشجار السكيل المقاومة للجفاف والتي قيل إن حضارة برسوم قامت عليها.

وخلال مرورنا عند قمة تل منخفض، بسرعة خمسين سوفاد تقريبًا، شاهدنا أسفلنا مبنى أبيض لامعًا. كان محاطًا بجدار شاهق، مثله مثل جميع المدن والمباني المنعزلة في برسوم؛ لكن بنيته المعمارية كانت تختلف من نواحٍ أخرى عن النمط البرسومي المعتاد. لم تكن بنيته الأساسية، التي تتكون من عدد من المباني، محاطة بالأبراج والقباب والمنارات المعتادة التي تميز جميع مدن برسوم، ولم تبدأ سوى في العصور الحديثة إفساح الطريق ببطء أمام منصات الهبوط المسطحة للعالم الجوي. يتكون المبنى الذي نراه أسفلنا من عدد من المباني ذات الأسطح المستوية على ارتفاعات مختلفة، دون أن يزيد ارتفاع أي منها على أربعة مستويات. وبين المباني والجدران الخارجية، وفي العديد من الساحات المفتوحة بين المباني، هناك وفرة من الأشجار والشجيرات بالإضافة إلى مرج قرمزي ومسارات جيدة. كان في الواقع مشهداً رائعاً وجميلاً. بيد أننا انخدعنا مؤخرًا، إلى ما كاد أن يصل إلى حد الهلاك، بجمال هوفر وإغراء نسائها الجميلات، ولذا حرصنا على ألا نخدعنا المظاهر الخارجية مرة أخرى. سوف نطفو فوق القصر الساحر، ونرى فرصنا في ذلك البلد المفتوح خلفه.

لكن القدر كان يضمّر لنا شيئاً آخر. خفت حدة الرياح، وأخذنا نهبط بسرعة. رأينا أسفلنا أشخاصاً في حديقة المبنى، وفي الوقت

نفسه، أصابهم الذعر عندما اكتشفونا. هرعوا إلى أقرب مدخل، ولم نشهد أي إنسان عندما انتهى بنا المطاف أخيرًا فوق سطح أحد أقسام المبنى العالية.

بعد أن تخلصنا من الأنشطة التي تربطنا وتحررت الحقيقة الكبيرة من أوزاننا، ارتفعت بسرعة في الهواء لمسافة قصيرة ثم انقلبت تمامًا وسقطت على الأرض خارج الجدار الخارجي مباشرة. لقد خدمتنا جيدًا وتبدو الآن كشيء حي تخلص من حياته لإنقاذنا. لم يكن لدينا وقت للتأسف عليها؛ فعلى الفور ظهر رأس من فتحة صغيرة في السطح الذي نقف فوقه، ثم ظهر الجسم، وكان لرجل يرتدي عتادًا ضئيلًا يجعله عاريًا تقريبًا. كان رجلًا عجوزًا، رأسه مستدير ومُغطى بقليل من خصل الشعر الرمادية.

تندر في برسوم مظاهر سن الشيخوخة، ولذا يجذب وجودها الانتباه على الفور. تصل فترة حياة الإنسان الطبيعية في برسوم إلى ألف سنة تقريبًا، لكن مظهرنا خلالها لا يتغير إلا قليلًا. صحيح أن معظمنا قد يلقي موتًا عنيفًا قبل أن يصل إلى سن الشيخوخة بكثير، لكن هناك البعض الذين يجتازون فترة الحياة تلك، والبعض الآخر الذين لا يهتمون بأنفسهم جيدًا، وهؤلاء القلائل هم من يشكلون العجزة بيننا، وواضح أن هذا العجوز واحد منهم.

عندما رآه نور آن، صاح بسرور من المفاجأة: «فور تاك!».

قال العجوز بصوت عالٍ: «هااا! من الذي أتى من السماء العالية ويعرف فور تاك العجوز؟».

أجاب صديقي: «إنه أنا - نور آن!».

صاح فور تاك: «هااااا! نور آن - أحد حيوانات تول أكستار الأليفة».

«كما كنت أنت ذات يوم، فور تاك».

صرخ العجوز: «لكني لست الآن - لست الآن. لقد عصرتني الطاغية مثل فاكهة شهية، ثم ألقى القشرة الفارغة جانبًا. هااااا! كان يعتقد أنها فارغة، لكنني أصلي يوميًا لجميع أسلافي كي يعيش إلى أن يعرف أنه كان مخطئًا. يمكنني أن أقول لك هذا بأمان، نور آن، لأنك في قبضتي وأعدك أنك لن تحيا كي تنقل مكان وجودي إلى تول أكستار».

أجاب نور آن: «لا تخش، فور تاك؛ فقد عانيت أنا أيضًا من نذالة جيداك جاهار. لقد سمح لك بمغادرة العاصمة في سلام، لكنه صادر جميع ممتلكاتي وحكم عليّ بالإعدام».

صاح العجوز: «هااااا! تكرهه أنت أيضًا إذن».

أجاب صديقي: «الكراهية كلمة ضعيفة لوصف شعوري تجاه تول أكستار».

قال فور تاك: «هذا جيد. عندما رأيتهما تهبطان من السماء، اعتقدت أن أسلافي أرسلوكما لمساعدتي، وأعرف أن هذا كان صحيحًا في الواقع». ثم أضاف، وهو يومئ برأسه العجوز نحوي: «وهل هو محارب آخر من جاهار؟».

أجاب نور آن: «كلا، فور تاك. إنه هادرون الهاستوري، أحد نبلاء هليوم، لكن جاهار ظلمته أيضًا».

صاح العجوز: «جيد! أصبحنا الآن ثلاثة. لم يكن لديّ من يساعدني حتى الآن سوى العبيد والنساء، على أن هدف انتصاري يلوح في الأفق الآن مع وجود شابين من المحاربين المدربين الأقوياء».

تذكرت خلال حديث الرجلين ذلك الجزء من القصة التي رواها لي نور آن في حفر تجاناث، الجزء المتعلق بفور تاك والبندقية التي اخترعها وتؤدي إلى تفكيك الأشعة، وثبتت قوتها المميّنة ضد زورق الدورية فوق هيليوم ليلة اختطاف سانوما تورا. يا لغرابة المصير الذي أحضرني إلى قصر الرجل حامل السر الذي قد يعني الكثير لهيليوم وبرسوم كلها. ويا لغرابة وتعرج المسار الذي قادني إليه مصيري؛ لكنني كنت أعرف أن أسلافي يرشدونني، ولا بد أن كل شيء مرتب لنهاية جيدة.

بعد أن استمع فور تاك إلى جزء من قصتنا، أصر على أننا نشعر قطعاً بالتعب والجوع، وأثبت أنه مضيف جيد؛ حيث قادنا إلى قصره، واستدعى العبيد، وأمرهم بخدمتنا للاستحمام وتناول الطعام، ثم النوم حتى نأخذ قسطاً من الراحة. شكرنا له عطفه ومراعاته، التي سعدنا بالاستفادة منها.

كانت الأيام التي تلت مثيرة ومفيدة. فور تاك، الذي كان محاطاً ببضع من العبيد المخلصين الذين صاحبوه إلى منفاه، كان مسروراً برفقتنا وبالمساعدة التي يمكننا تقديمها لتجربته، التي سوف يشرحها لنا تفصيلاً، بعد أن يطمئن إلى ولائنا.

حكى لنا قصة تجواله بعد مغادرة جاهار، وكيف عثر على هذه

القلعة المهجورة منذ فترة طويلة، التي لم يترك بانيها وقاطنوها أي سجل سوى عظامهم. أخبرنا أن الهياكل العظمية، عندما اكتشف القلعة، كانت تتناثر في الفناء، وتكدست عظام عشرات المحاربين في المدخل الرئيس، بما يشهد على دفاع سكان القلعة الشرس ضد عدو غير معروف؛ في حين وجد هياكل عظمية أخرى - لنساء وأطفال - في العديد من الغرف العلوية.

وقال: «أعتقد أن بعض حشود المحاربين الخُضر الوحشية هاجمت المكان، ولم يتمكن أحد من النجاة. كانت الأعشاب تنمو بإفراط في الساحات والحدائق، وكان المبنى من الداخل مملوءًا بالتراب؛ ولم تكن هناك أضرار أخرى تُذكر. لقد أسميتها جهاما، وأواصل هنا العمل الأساسي في حياتي».

سألته: «وما هو؟».

قال العجوز: «الانتقام من تول أكستار. لقد أعطيته أشعة التفكيك، وأعطيته الطلاء العازل الذي يحمي سفنه وأسلحته من هذه الأشعة؛ والآن سأعطيه في يوم ما شيئًا آخر - شيئًا يُعد ثوريًا في فن الحرب مثل شعاع التفكيك نفسه، شيئًا سوف يلقي أسطول جاهاار محطماً على الأرض، شيئًا سيبحث عن قصر تول أكستار ويدفن الطاغية تحت أنقاضه».

لم يَمُضِ وقت طويل علينا، أنا ونور آن، في جهاما قبل أن نفتنع أن عقل فور تاك مشوش قليلاً من تفكيره لفترة طويلة في الأضرار التي سببها له تول أكستار. فعلى الرغم من ميوله الطبيعية الطيبة، كان مهووساً

برغبة مجنونة في الانتقام من الطاغية مع التجاهل التام لعواقب ذلك على نفسه وعلى الآخرين. كان تفكيره غير عقلاني في هذا الموضوع تحديداً؛ ونظراً لشعوره بالارتياح لأنني ونور آن أصبحنا من بين العوامل المحتملة لتحقيق تصميمه بنجاح، كانت تصيبه نوبة غضب كاملة كلما تطرقت إلى موضوع رحيلنا.

لشعوري بالقلق نتيجة للرغبة التي تدفعني للتوجه إلى جاهار وإنقاذ سانوما تورا، لم أتحمل الصمت عن هذا التأخير القسري، لكن فور تارك كان عنيداً - لن يسمح لي بالرحيل - وولاء عبيده المطلق جعل بإمكانه أن يفرض إرادته. لقد أوضح لهم خلال جلستنا أننا ضيوف، وضيوف كرام ما دمنا لا نبذل أي جهد للرحيل دون أذنه؛ وإنما إذا اكتشفونا في محاولة لمغادرة جهاما خلصة، فإن عليهم تدميرنا.

ناقشت الأمر بالتفصيل مع نور آن. اكتشفنا أن هناك أربعة آلاف هاد من المناطق العسيرة غير الودودة تمتد بيننا وبين جاهار. ونظراً لأننا دون سفينة أو ثوات، فمن غير المحتمل أن نتمكن من الوصول إلى جاهار في الوقت المناسب لإنقاذ سانوما تورا، هذا إن استطعنا الوصول أصلاً. ولذلك اتفقنا على تكريس وقتنا لإقناع فور تارك أننا على استعداد لمساعدته، على أمل أن نحصل في النهاية على معونته ودعمه. وقد نجحنا خلال فترة زمنية قصيرة في الفوز بثقة العالم العجوز، وبدأ يحدونا الأمل في اكتساب مزيد من ثقته ليكشف لنا عن طبيعة أداة التدمير التي يعمل على إعدادها ضد تول أكستار.

يجب أن أعترف أن اهتمامي انصب في الأساس على اختراعه،

لأنني كنت على ثقة بأن استخدام الاختراع ضد تول أكستار يتطلب إيجاد وسيلة لنقله إلى جاهاار، واعتبرتها فرصة لوصولي إلى عاصمة الطاغية.

بقينا في جهاما حوالي عشرة أيام، أظهر خلالها فور تاك علامات التوتر والعصبية الشديدين. أبقانا معه عملياً طوال الوقت الذي لم يغلق فيه على نفسه في أعماق تجاويف مختبراته السرية.

بدا فور تاك خلال وجبة العشاء، في اليوم العاشر، أكثر اضطراباً. كان يتحدث بلا نهاية كالعادة عن كراهيته لتول أكستار، واتخذت ملامحه تعبيراً عن غضب مهووس.

وفي النهاية قال وهو يكاد يصرخ: «لكني عاجز. عاجز لعدم وجود شخص يمكن أن أبوح له بسري، ويتحلى أيضاً بالشجاعة والذكاء لتنفيذ خطتي. أنا عجوز وضعيف لأواجه المشاق التي بمقدور شباب مثلكم تحملها، لكن مواجعتها ضرورية إن أردت تحقيق مهمتي كمنقذ لجاهاار. لو كان بإمكانني فقط الوثوق بكما! لو كان بإمكانني فقط الوثوق بكما!». قلت: «ربما يمكنك، فور تاك».

يبدو أن نبرة كلماتي طمأنته، فصاح: «هااااااا! أتصور ذلك، في بعض الأحيان».

قلت: «لدينا هدف مشترك؛ أو على الأقل أهداف مختلفة تلتقي عند نفس النقطة، جاهاار. دعنا نعمل معاً. نحن نريد الوصول إلى جاهاار. إذا ساعدتنا، سوف نساعدك».

جلس يفكر صامتاً للحظات طوال، ثم قال: «سأفعل. هاااااااااا!!
سأفعل. هيا بنا». ونهض من مقعده وقادنا نحو باب مغلق أمام مدخل
مختبره السري.



الفصل (١٠)

الموت الطائر

يشغل مختبر فور تاك جناحًا كاملاً في المبنى، ويتكون من غرفة واحدة كبيرة جداً، يبلغ ارتفاعها خمسين قدماً. تقع المقاعد والطاولات والأدوات والمقصورات في ركن واحدة، وتبدو تائهة في الغرفة الكبيرة. ويوجد بالقرب من السقف مسار وحيد يحيط بالغرفة، معلق فيه زورق فضائي مُصغر، مدهون باللون الأزرق الشنيع لجاهار. ويوجد على أحد المقاعد جسم أسطواني بطول الذراع تقريباً. هذه هي الملامح الوحيدة الملحوظة للمختبر، علاوة على الفراغ الهائل داخله.

أشار لنا فور تاك بالدخول وأغلق الباب ورائه، وسمعت نقرة القفل الهائل المشؤومة. كان هناك شيء كئيب يوحي به الوضع، ربما معرفتنا بجنون فور تاك وولعه باللغز الغريب في الغرفة الشاسعة.

قادنا إلى مقعد طويل وُضع فوقه الشيء الأسطواني الذي جذب انتباهي. رفع هذا الشيء بعناية وشبه مداعبة من موضع استقراره. وقال: «هذا نموذج للجهاز الذي سوف يدمر جاهار، ويتركز فيه جوهر الإنجاز

العلمي. يبدو من مظهره أنه مجرد أسطوانة معدنية صغيرة، بينما تكمن داخله آلية دقيقة وحساسة كالمنخ البشري، وسوف ترون أنه يعمل تقريباً كأنما يحركه عقل بداخله؛ لكنه آلي تماماً ويمكن إنتاجه بكميات كبيرة على نحو سريع وبتكلفة منخفضة. وقبل أن أشرحه لكما، سوف أعرض مرحلة واحدة من إمكانياته. انظروا!!».

صعد فور تاك والأسطوانة في يده إلى خزانة مسطحة على الجدار وفتحها، فأنكشفت معدات معقدة من مفاتيح التبديل والروافع والأزرار ضاغطة. قال وهو يغلق في الوقت نفسه أحد مفاتيح التبديل: «شاهدوا الآن الطائرة المصغرة المعلقة في المسار القريب من السقف». بدأت الطائرة على الفور تتحرك على طول المسار بسرعة كبيرة. ثم ضغط فور تاك على زر في أعلى الأسطوانة، فانطلقت فوراً من راحة يده المفرودة واستدارت بسرعة في الهواء، ثم اندفعت مباشرة نحو الطائرة المُسرعة. تلاشت المسافة بينهما ببطء؛ انحنت الأسطوانة تدريجياً في اتجاه خط رحلة الطائرة وأصبحت الآن خلفها مباشرة، بحيث تبعد مقدمتها المدببة عدة أقدام قليلة عن مؤخرة السفينة المصغرة. ثم جذب فور تاك رافعة صغيرة على لوحة التبديل، قفزت على إثرها الطائرة إلى الأمام بسرعة شديدة. وعلى الفور زادت سرعة الأسطوانة، وأمكنني ملاحظة أنها تكتسب سرعتها على نحو أكبر بكثير من الطائرة. وفي منتصف الطريق حول الغرفة، اصطدمت مقدمتها بجذع الطائرة بشدة كافية جعلت السفينة تهتز من الجذع إلى المؤخرة؛ ثم ابتعدت الأسطوانة وطارت بلطف نحو الأرض. فتح فور تاك مفتاح التبديل، فتوقفت رحلة الطائرة،

ثم ركض في اتجاه الأسطوانة الآخذة في الهبوط وأمسكها في يده.

«هذا النموذج»، أوضح، عندما عاد إلى حيث وقفنا، «مُصمم بحيث عندما يمس الطائرة، فإنها تطفو بلطف إلى الأسفل على الأرض. ولكن المُنتج النهائي، كما أدركتما تمامًا دون شك، سوف ينفجر عند استخدامه العملي ما إن يمس السفينة. لاحظوا هذه الأضرار الصغيرة التي تغطيها. عندما يماس أي منها بشيء، يتوقف النموذج ويهبط؛ بينما الجهاز في حجمه الكامل وتجهيزه الصحيح، سوف ينفجر، ويدمر تمامًا أي شيء يلمسه. وكما تعلمون، يوجد لكل مادة في الكون معدل اهتزاز ثابت. ويمكن ضبط هذه الآلية بحيث يجذبها معدل اهتزاز أي مادة. فالنموذج يجذبه، على سبيل المثال، الطلاء الأزرق الواقي الذي يغطي الطائرة. تخيلوا أسطولاً من السفن الحربية الجاهزية يتحرك جواً بمهابة في تشكيل حربي. يمكنني أن أطلق، من سفينة العدو أو من الأرض، وعلى مسافة بعيدة لا تتيح لسفن جاها رؤيتها، أكبر عدد ممكن من هذه الأجهزة بقدر سفن الأسطول، مع السماح بانقضاء بضع لحظات بين كل إطلاق. يندفع الطوربيد الأول نحو الأسطول ويدمر أقرب سفينة؛ أما باقي الطوربيدات المصطفة في خط، فيجتذبها تكتل جميع الأغشية الزرقاء الحامية للأسطول بأكمله. تسقط السفينة الأولى على الأرض. وفي حين قد لا يكون طلائها قد تدمر بأكمله، فهي لا تملك القدرة على حرف اتجاه أي من الطوربيدات المتعاقبة، التي تقوم واحدة تلو الأخرى بتدمير أقرب السفن المتبقية إلى أن ينمحي الأسطول تمامًا. وهكذا، أدمر أسطولاً كبيراً دون المخاطرة بحياة رجل واحد من أتباعي».

قال نور آن: «لكنهم سوف يرون الطوربيدات قادمة، ويجهزون وسائل الدفاع. ويمكن أن يؤدي مجرد إطلاق النار إلى وقف العديد من الطوربيدات».

أجاب فور تاك: «هاااااااااا! لكنني فكرت في ذلك»، ثم وضع الطوربيد على المقعد الطويل وفتح خزانة أخرى.

تضم هذه الخزانة عددًا من الآنية، بعضها مُغلق بإحكام والبعض الآخر مفتوح، وكشفت عن محتويات من مدهونة بألوان مختلفة. نتأت من عدد من هذه الآنية مقابض فرش الطلاء. بيد أن أحد المقابض بدا مُعلقًا في الجو، فوق أحد الأرفف ببضع بوصات، بينما يوجد تحته مباشرة جزء من إطار إناء بدا أيضًا غير مستقر على شيء. وضع فور تاك يده المفتوحة أسفل هذا الإطار العائم مباشرة، وعندما أخرج يده من الخزانة، تبعه طافيًا فوقه إطار الإناء وجزء من مقبض فرشاة الطلاء، وظل يحوم فوق أصابعه الممدودة التي اتخذت شكل كأس على نحو يوحي بأنها تمسك بوعاء زجاجي، كأنما في تحليقه يماثل الجزء المعتاد من إطار يشبه ذلك الذي أراه عائمًا على مسافة شبر واحد فوق أصابعه.

ذهب فور تاك إلى المقعد الطويل، حيث وضع الأسطوانة، وتصرف بما يوحي بأنه يضع وعاء عليه. وعلى الرغم من عدم رؤية وعاء، غير الإطار العائم، فقد سمعت بوضوح ضوضاء متطابقة مع الصوت الذي يمكن أن يحدثه قاع وعاء زجاجي عندما يلمس المقعد.

يمكنني أن أؤكد لك شعوري بحيرة هائلة؛ على أن هناك المزيد من الأحداث التي أعقبت ذلك مباشرة. أمسك فور تاك بمقبض فرشاة

الطلاء، وصنع ممراً على مسافة بضع بوصات أعلى الطوربيد المعدني. وعلى الفور اختفى جزء من الطوربيد، يبلغ عرضه حوالي بوصة ويبلغ طوله حوالي ثلاث أو أربع بوصات؛ ثم أخذ يصنع ممراً بعد ممر إلى أن اختفى في النهاية كل سطح الطوربيد. أصبح الموقع الذي كان يستقر عليه فوق المقعد الطويل فارغاً. أعاد فور تاك مقبض فرشاة الطلاء إلى موضعها العائم فوق إطار الوعاء مباشرة ثم التفت نحونا وعلى وجهه تعبير طفولي بالفخر، كأنما يقول «حسنًا، ما رأيكم؟ أأست رائعاً؟». اضطرت بالتأكيد إلى التسليم بأنه رائع، وأنني كنت في حيرة ودهشة تمامًا بما رأيته.

صاح فور تاك: «ها هي، نور آن، الإجابة على انتقادك للموت الطائر».

قال نور آن وتعبيرات وجهه تنم عن الحيرة: «أنا لا أفهم».

صاح فور تاك: «هاااااا! ألم ترني أجعل الجهاز غير مرئي؟».

قال نور آن: «لكنه اختفى».

ضحك فور تاك بصوت عالٍ، قائلاً: «إنه لا يزال هناك، لكنك لا تستطيع رؤيته. إنه هنا»، ثم أمسك بيد نور آن ووجهها نحو الموضع الذي كان فيه الجهاز.

رأيت أصابع نور آن تتحسس سطح شيء على ارتفاع عدة بوصات أعلى الطاولة. صاح: «باسم سلفي الأول، لا يزال الجهاز هنا!».

صحت: «هذا رائع. أنت حتى لم تلمسه؛ صنعت ممرات فحسب

فوقه بمقبض فرشاة الطلاء، فاختنفى».

قال فور تاك بإصرار: «لكنني ألمسه. كانت الفرشاة هناك، لكنك لم ترها لأنها كانت مغطاة بمادة تجعل الموت الطائر غير مرئي. انظر إلى هذا الإناء الزجاجي الشفاف الذي أحتفظ فيه بتركيبة التخفي، وكل ما يمكنكم رؤيته منه هو ذلك الجزء من الإطار الذي لم يُطل، مصادفة، بالتركيبة».

قلت صائحًا: «رائع! وحتى الآن، على الرغم من أنني شاهدته بعيني، بالكاد ما يمكنني إدراك إمكانية هذه المعجزة».

قال فور تاك: «إنها ليست معجزة؛ بل مجرد تطبيق لمبادئ لعلمية أعرفها جيدًا منذ مئات السنين. لا شيء يتحرك في خطوط مستقيمة: الضوء، البصر، القوى الكهرومغناطيسية، كلها تتبع خطوطًا منحنية. تنحني تركيبة التخفي ببساطة خارج الضوء المنعكس الذي، عندما يدخل أعيننا ويمس أعصابنا البصرية، يسفر عن ظاهرة نسميها الرؤية، ولذا يمرون حول أي كائن مطلي بالتركيبة. عندما بدأت تطبيق التركيبة على 'الموت الطائر'، انحرف خط بصرك حول الأجزاء الصغيرة المطلوبة. لكنني عندما طليت كامل سطح الطوربيد، مر منحني بصرك بالكامل حول جانبيه، وبالتالي أمكنك أن ترى بوضوح المقعد الطويل الذي كان يستقر فوقه تمامًا كما لو أن الجهاز ليس فوقه».

أدهشتني بساطة التفسير الواضحة؛ ورأيت كجندي، بطبيعة الحال، ميزة هائلة في نقل حياة هذين السرين العلميين إلى البلد الذي يمكنه السيطرة عليهما. تحقيقًا للأمان؛ نعم، فمن أجل وجود هيلوم، يجب

أن أحصل عليهما؛ وإذا تعذر ذلك، يجب تدمير فور تاك قبل أن ينتقل سر هذه القوة الجهنمية إلى أي أمة أخرى. ربما يمكنني ببراءة إقناع فور تاك العجوز بتسليم هذه الأسرار إلى هيليوم مقابل حصوله على مساعدة هيليوم في انتقامه من تول أكستار.

قلت: «فور تاك، يوجد في قبضتك سران؛ ولو وضعتهما في أيدي قوة رحيمة وكريمة، يمكن أن يحل السلام الأبدي في برسوم».

صاح: «هااااااااااا لا أريد السلام. أريد الحرب. الحرب! الحرب!». قلت موافقاً: «جيد جداً»، لأنني أدركت أن اقتراحي لم يكن متمشياً مع الأفكار المجنونة التي تدور في عقله المهووس، «فلنحارب إذن؛ وما البلد الأفضل تجهيزاً من هيليوم في برسوم لشن الحرب؟ إذا كنت تريد الحرب، عليك بالتحالف مع هيليوم».

صاح: «لا أحتاج إلى هيليوم. ولا أحتاج إلى تحالفات. سوف أشن الحرب - سوف أشن الحرب بمفردي. باستخدام 'الموت الطائر' الخفي، يمكنني تدمير جميع الأساطيل، جميع المدن، وأمم بأكملها. وسوف أبداً بجاهار، وتول أكستار هو أول من سيشعر بوزن قواي المدمرة. وعندما يسقط أسطول جاهار على أسطح مباني جاهار وتسقط جدران جاهار أمام تول أكستار؛ سأوجه لتدمير تجاناث. وستعرفني هيليوم بعدهما. سوف ترتعش هيليوم الفخورة الجبارة، وتنحني تحت أقدام فور تاك. سوف أصبح جيداًك جميع الجيداًك، حاكم العالم». كان صوته يرتفع وهو يتحدث إلى أن وصل إلى صرخة خارقة، وارتعش في قبضة الهستيريا التي تملكته.

يجب تدميره؛ ليس من أجل هيلوم وحدها، بل من أجل برسوم كلها؛ يجب التخلص من هذا العقل المجنون إذا وجدت من المستحيل توجيهه أو إقناعه بغاياتي. ومع ذلك، فقد عقدت العزم على عدم تجاهل أي تضحية قد تسهم في تحقيق نتيجة مُرضية لهذه المغامرة الغريبة. كنت أعرف أن العقول المجنونة تكون أحياناً عقولاً متقلبة، وتمنيت أن يكشف أمامي فور تاك في لحظة جنون عن سر 'الموت الطائر' وتركيبه التخفي. وكان هذا الأمل مهلته المؤقتة من الموت؛ وتحقيق هذا الأمل هو بمثابة العفو عنه. لكنني كنت أعرف ضرورة أن أعمل بحذر - فعند أدنى إحياء بالخداع، سوف تُثار شكوك فور تاك وعندئذ سأكون أنا أول من يدمره فور تاك.

استلقيت تلك الليلة لفترة طويلة على سرير وفراء النوم، وأنا في حالة مضطربة من التفكير والتخطيط. شعرت أنني يجب أن أمتلك تلك الأسرار؛ ولكن كيف؟ أعرف أنها لا توجد سوى داخل عقله فقط؛ لأنه أخبرني بعدم وجود صيغة أو خطط أو مواصفات مدونة لأي سر منهما. يجب أن أستخرجها من عقله على نحو ما من خلال تملقه، وأفضل طريقة للبدء هي مدهنته ببراعة. وتحقيقاً لهذه الغاية، لا بد لي من تعزيز خطته بقدر ما أستطيع.

قبل النوم، عادت أفكارني إلى سانوما تورا والمهمة العاجلة التي دفعتني إلى الدخول في ما تطور إلى أغرب مغامرة في حياتي المهنية. شعرت بوخزة لوم ذاتي عندما أدركت فجأة أن سانوما تورا لم تشغل موقع الصدارة في ذهني وأنا راقد أضع الخطط المستقبلية. على أنني

الآن، مع تذكرها، فكرت في خطة قد لا تقتصر على إنقاذها فحسب، بل تقربني أيضًا بصورة جيدة من فور تاك، وهكذا نمت مرتاحًا.

في فترة متأخرة من الصباح التالي، عندما وجدت فرصة التحدث مع المخترع العجوز، تطرقت فورًا إلى هذا الموضوع الذي يشغل ذهني. قلت: «فور تاك، أعتقد أن ما يُكبلك هو الافتقار إلى معرفة الأوضاع في جاهاار وحجم الأسطول وموقعه. سوف نذهب أنا ونور آن إلى جاهاار للحصول على المعلومات التي يجب أن تعرفها لنجاح خططك. وبهذه الطريقة، سنوجه أنا ونور آن ضربة أيضًا إلى تول أكستار لأننا سنكون في وضع يسمح لنا الاهتمام بتلك الأمور التي تتطلب وجودنا في جاهاار». سألت فور تاك: «ولكن كيف ستصلون إلى جاهاار؟».

سألته: «هل تسمح لنا بأخذ طائرة؟».

أجاب فور تاك: «ليس لدي أي طائرة. ولا أعرف أي شيء عن الطائرات. لست مهتمًا بها. ولا يمكنني حتى بناء واحدة».

أصابني قوله هذا بالدهشة والصدمة، على أقل تقدير. ولكن، إذا كنت تشككت مسبقًا في أن عقل فور تاك قد تطور بشكل غريب، فقد تلاشت شكوكي مع إقراره أنه لا يعرف أي شيء عن الطائرات؛ إذ يصعب ألا يعرف أي رجل أو امرأة أو طفل، في أي أمة على برسوم، كيفية بناء طائرة من نوع ما.

«ولكن كيف تتوقع دون طائرات نقل 'الموت الطائر' إلى منطقة على مقربة من أسطول جاهاار؟ كيف تتوقع تدمير قصر تول أكستار، أو

تحويل مدينة جاهر إلى أنقاض؟».

«الآن، بوجودك أنت ونور آن هنا لمساعدتي، يمكنني توجيه عبيدي للعمل تحت قيادتكما بحيث تستطيعون بسهولة إنتاج دزينة من الطوربيدات يوميًا. وعند إكمالها، سوف أطلقها على الفور، وستجد طريقها في النهاية إلى جاهر والأسطول. ما من شك في ذلك؛ وحتى لو استغرق الأمر سنة، ستجد الطوربيدات فرائسها في النهاية».

قلت: «هذا إن لم يصادفها أي شيء في طريقها؛ وحتى مع ذلك، ما المتعة التي ستجنيها من انتقامك إذا كنت غير قادر على مشاهدة أي جزء منه؟».

أجاب فور تاك: «هاااااا! لقد فكرت في ذلك، لكن المرء لا يحصل على كل شيء».

قلت: «بل يمكنك».

سألني: «وكيف؟».

أجبت: «بأن تضع طوربيداتك على متن سفينة فضائية، وتطير إلى جاهر».

صاح بعناد: «كلا، سأفعلها بطريقتي الخاصة. بأي حق تتدخل في خططي؟».

قلت بنبرة استرضائية، في محاولة لتهديته: «لا أريد سوى مساعدتك».

قال نور آن: «هناك فكرة أخرى تشير إلى أنه قد يكون من المناسب

اتباع خطط هادرون».

قال فور تاك: «أنتما الاثنان ضدي».

قال نور آن لطمأنته: «كلا على الإطلاق. بل رغبتنا الشديدة على مساعدتك هي ما تدفعنا لهذا الاقتراح».

سأل العجوز: «حسنًا، وما هي إذن؟».

أوضح نور آن: «تتوخى خطتك تدمير أساطيل تجاناث وهيليوم بعد سقوط جاهر. لكنك قد لا تأمل في إنجاز ذلك على الأقل بالنسبة لقوات هليوم البحرية؛ لأن المسافة كبيرة جدًا ولا تعرف عدد السفن التي يتعين تدميرها، ولا ما إذا كانت طوربيداتك سوف تنجذب بالمثل إليها كما تنجذب إلى سفن جاهر؛ لأن سفن تلك الأمم الأخرى لا يحميها طلاء جاهر الأزرق. ولذلك، سيكون من الضروري أن تقترب من تجاناث ولاحقًا إلى هيليوم. ومن أجل حمايتك، سوف تستخدم طلاء جاهر الأزرق على سفينتك، لأنك لن تتأكد أبدًا إلا إذا كنت على الأرض في وقت تدميرك لأساطيل جاهر، أو كل بنادقهم ذات أشعة التفكيك».

فكر فور تاك، ثم قال: «هذا صحيح».

«وعلاوة على ذلك»، واصل نور آن، «إذا أرسلت عددًا من الطوربيدات أكبر من العدد اللازم، فإن الطوربيدات التي ستظل طليقة سوف يجذبها بالتأكيد الطلاء الأزرق لسفنك، وهنا سوف تُدمرك أجهزتك».

صرخ فور تاك: «أنت تدمر جميع خططي، لماذا فكرت على هذا النحو؟».

قال نور آن لتذكيره: «إن لم أفكر على هذا النحو، كنت لتدمر نفسك».

«حسنًا، ماذا أفعل حيال ذلك؟ ليس لديّ سفينة. ولا يمكنني بناء سفينة».

قلت: «نحن يمكننا».

«كيف؟».

أوحت لي المحادثة بين نور آن وفور تاك بخطة، وشرحتها لهما بوجه عام. تحمس نور آن للفكرة، لكن فور تاك لم يكن متحمسًا بوجه خاص. لم أفهم أسباب اعتراضه، وفي الحقيقة لم تكن تهمني كثيرًا منذ أقر أخيرًا أنه مضطر إلى العمل وفقًا لاقتراحي.

توجد ورشة للآلات متاخمة لمختبر فور تاك ومجهزة بشكل جيد. مارست ونور آن فيها عملنا الشاق لأسابيع بالاستعانة بخدمات دزينة من العبيد، إلى أن نجحنا في بناء ما أنا على يقين أنه المنطاد الذي يتمتع بأروع مظهر وقع عليه بصري. كان باختصار على شكل أسطوانة مدببة من الطرفين وتشبه إلى حد كبير نموذج 'الموت الطائر'. يوجد داخل غلافها الخارجي أسطوانة أخرى صغيرة؛ ووضعتنا خزانات الطفو بين جداريهما. اخترقت منافذ مراقبة الخزانات وجانبي الغلافين الخارجيين للأسطوانتين، وعلى طول كل جانب من جوانب السفينة ومقدمتها

ومؤخرتها. ويمكن تغطية هذه المنافذ تمامًا بمصاريح معلقة من الخارج لكنها تعمل من الداخل. كما يوجد بابان مسحوران في عارضة السفينة وبابان مماثلان أعلاههما، يؤديان إلى ممر ضيق على طول الجزء العلوي من الأسطوانة. وضعنا في الأبراج، الأمامية والخلفية، بندقتين من بنادق أشعة التفكيك. ووضعنا منظارًا فوق لوحات التحكم، ليرسل صورة لكل ما يندرج في نطاقه إلى لوح زجاجي على الأرض أمام الطيار. قمنا أولاً بطلاء مجمل السفينة من الخارج باللون الأزرق المروع الذي سيحميها من بنادق أشعة التفكيك في جاهار، بينما وضعنا فوقه طلاء تركيبة التخفي. كما قمنا بطلاء مماثل للمصاريح التي تغطي المنافذ، بحيث بإغلاقها تصبح السفينة خفية كلية تقريبًا، والنقطة الوحيدة التي تظل مرئية هي عين المنظار الصغيرة.

ونظرًا لعدم امتلاكنا المعرفة التقنية الكافية لتمكيننا من بناء أحد المحركات من النوع الجديد، فلم يكن أمامي سوى الرضى بأحد الأنواع القديمة الأقل كفاءة بكثير.

انتهينا أخيرًا من العمل. لدينا سفينة تستوعب أربعة أشخاص بسهولة؛ وكان غريبًا أن ندرك هذه الحقيقة، ولا نقدر في الوقت نفسه على رؤية أي شيء إلا عين المنظار الصغيرة عند تغطية المنافذ. ولم تكن حتى عين المنظار مرئية إلا إذا أدركناها في اتجاه المراقب.

كنت قد لاحظت مع اقتراب انتهاء العمل أن طريقة فور تاك أصبحت أكثر توترًا وعصبية. كان يجد خطأ في كل شيء، وكاد في عديد من المناسبات أن يوقف العمل في بناء السفينة.

وأخيرًا، أصبحنا الآن على استعداد للإبحار. كانت السفينة مليئة بالذخيرة والمياه والإمدادات. وقمت في اللحظة الأخيرة بتركيب بوصلة التحكم في الاتجاه، التي سئدين لها لاحقًا بكل شكر وامتنان.

اعترض فور تاك عندما اقترحت المغادرة فورًا، دون أن يعطي أي سبب لاعتراضه. على أن صبري قد نفذ، وقلت للعجوز إننا ذاهبون على أي حال سواء أعجبه ذلك أو لم يعجبه.

لم يستشظ غضبًا كما كنت أتوقع بل ضحك، وكان في ضحكه شيء يبدو أكثر ترويعًا من الغضب.

قال: «كنتما تعتقدان أنني أحمق، وسوف أترككما ترحلان ومعكما أسراري إلى تول أكستار، لكنكما مخطئان».

قاطعته: «أنت أحمق، لأنك تخطئ حين تتصور أننا نخونك، وتخطئ أيضًا في تصورك أن بإمكانك منع رحيلنا».

قال: «هااااا! لست بحاجة إلى منع رحيلكما، لكنني أستطيع منع وصولكما إلى جاهار أو أي مكان أخرى. أنا لم أكن عاطلاً خلال عملكما على هذه السفينة، بل شيدت 'الموت الطائر' بحجم كامل. وهو مجهز للبحث عن هذه السفينة. فإذا غادرتما ضد رغبتني، سوف يتبعكما ويدمركما. هاااااا! ما رأيكما؟».

صحت بغضب: «أعتقد أنك أحمق عجوز. لديك فرصة لكسب ولاء اثنين من المحاربين الشرفاء كمساعدين، لكنك تختار تحويلهما إلى أعداء».

أجاب: «أعداء غير قادرين على الإضرار بي. فحياتكما بين يديّ. لقد أخفيتما أفكاركما عني، وإنما ليس بشكل جيد. فقد قرأت ما يكفي منها لمعرفة أنكما تعتقدان أنني مجنون؛ كما تكون لديّ انطباع أيضاً أن ما من شيء سوف يوقفكما للحيلولة دون استخدامي لقوتي ضد هيليوم. ليس لديّ شك في أنكما سوف تساعداني ضد جاهار وربما ضد تجانات أيضاً. لكن هيليوم، أكثر إمبراطوريات برسوم فخراً وقوة، هي هدفي الحقيقي. سوف تعلن هيليوم أنني جيداك كل الجيداك، إذا كان لا بد لي من تدمير عالم لإنجاز تصميمي».

سألته: «إذن كل ما قمنا به من عمل كان من أجل لا شيء؟ ألن نستخدم السفينة التي بنيناها؟».

قال: «قد نستخدمها، ولكن بشروطي».

سألته: «وما هي؟».

«يمكنك أن تذهب وحدك إلى جاهار، لكنني سأحتفظ بنور آن هنا كرهينة. وإذا خنتني، سيموت».

لا يوجد ما يمكن أن يؤثر عليه؛ ولا أي حجة كان يمكنها تغيير قراره. حاولت إقناعه بأن رجلاً واحداً لا يمكنه أن ينجز إلا القليل، بل قد لا يتمكن على الإطلاق من إنجاز أي شيء، لكنه كان مُصرّاً - إما أن أذهب بمفردي أو ألا أذهب على الإطلاق.



(الفصل ١١)

«فلتكن النيران حامية!»

عندما حلقت في تلك الليلة البرسومية الرائعة التي تضيئها النجوم، كانت قلعة فور تاك البيضاء تبدو كجوهره جميلة أدناي تتحطم في ضوء القمر ثوريا الناعم. كنت بمفردي؛ ظل نور آن رهينة لدى العالم المجنون. وبسببه يجب أن أعود إلى جهاما. لم يطالبني نور آن بأي وعد، لكنه يعرف أنني سوف أعود.

على بعد ألفين وخمسمائة هاد شرقاً تقع جاهار وسانوما تورا. وعلى بعد ألف وخمسمائة هاد إلى الجنوب الغربي تقع تجانات وتافيا. أدت مقدمة طائرتي نحو هدف المهمة، نحو المرأة التي أحبها؛ وأسرعت بطائرتي غير المرئية في اتجاه جاهار البعيدة.

بيد أنني لم أستطع التحكم في أفكاري. فعلى الرغم من كل جهد لإبقاء تفكيري مركزاً على غرض مغامرتي، فقد استمر يتجول في سجن البرج، إلى الرأس العنيد أشعث الشعر، والكتفين المستديرين اللذين ضماني مرة. هززت نفسي للتخلص من الرؤية وأنا أسرع خلال الليل،

لكنها كانت تعود باستمرار وفي أعقابها تتابني أفكارًا مروعة حول مصير تافيا في غيابي.

حددت مؤشر بوصلة التحكم في الاتجاه عند جاهار، عند الموضع الدقيق الذي أخبرني به فور تاك، وبالتالي أعفيت نفسي من ضرورة البقاء باستمرار أمام لوحات التحكم، وانشغلت بأشياء في داخل السفينة. فحصت ذخيرة بنادق أشعة التفكيك، وقمت بإعادة ترتيبها وفقًا لما ارتأيته.

أمدني فور تاك بثلاثة أنواع من الأشعة؛ واحدة لتفكيك المعادن، وأخرى لتفكيك الخشب، والثالثة لتفكيك اللحم البشري. كما أحضرت أيضًا شيئًا رفض فور تاك منحه لي عندما طلبته منه. ضغطت جيب الحقيبة للتأكد من أن القنينة لا تزال حيث وضعتها، وأعتقد أن قيمة محتوياتها لا تُقدر بثمن بالنسبة لي.

رفعت جميع مصاريع المنافذ وضبطت أجهزة التهوية؛ ففي أحسن الأحوال يبدو داخل هذه السفينة الغريبة مغلقًا وخانقًا لمن اعتاد على السطح المفتوح لطائرات هيليوم الاستطلاعية السريعة. فرشت حريز وفراء النوم واستلقيت للراحة، مع معرفتي أن بوصلة التحكم في الاتجاه ستوقف السفينة عند الوصول إلى جاهار وسوف يوقظني جهاز التنبيه إن كنت نائمًا، لكن النوم يأبى أن يأتي. كنت أفكر في سانوما توراً. تخيلت جمالها البارد الجليل، لكنَّ عينيها المتعجرفتين كانتا تذوبان دائماً في عيني تافيا المتألقة بفرحة الحياة واللطفية بضوء الصداقة.

كنت بعيداً عن جهاما عندما قررت أن أقوم من تحت حريز وفراء

النوم. ذهبت إلى لوحات التحكم، وأوقفت بوصلة التحكم في الاتجاه، ثم بدورة واحدة سريعة تأرجحت مقدمة الطائرة في اتجاه تجاناث.

كان الموت وارداً. شعرت بأنني يجب أن أعاني من الندم والبغض الذاتي، لكنني لم أشعر بأيّ منهما. استمتعت بالتفكير في أنني أسرع لخدمة صديقة، وكنت أعرف في أعماق قلبي أن من بين الاثنين، كانت تافيا أكثر حرصاً على صداقتي من سانوما تورا، التي لم أحصل منها في أحسن الأحوال سوى على مجاملة محدودة.

لم أحاول النوم مرة أخرى. ولم أشعر برغبة في النوم؛ بل بقيت عند لوحات التحكم، ورأيت المشهد المهجور يمر أسفلني خلال طيراني السريع. مع حلول الفجر، شاهد تجاناث أمامي مباشرة. ومع اقترابي من المدينة، كان يصعب أن أدرك أن بإمكانني القيام بذلك في ظل حصانة تامة، وأن سفيتي كانت غير مرئية على الإطلاق في ظل إغلاق منافذها. أتحرك ببطء الآن، محلّقاً فوق قصر هاج أوسيس. كشفت أجزاء القصر ذات الأسطح المسطحة عن حراس نائمين. ولا يوجد في الحظيرة الرئيسة سوى حارس واحد يراقب.

طرت فوق البرج الشرقي؛ تخيلت صورة تافيا، في أسفل، متدثرة في حرير وفراء النوم. كم ستُفاجأ إذا عرفت أنني أُحلق بالقرب منها في أعلى.

أخذت أهبط وأنا أُحلق فوق البرج، إلى أن توقفت أمام نوافذ غرفة احتجاز تافيا. أدّرت السفينة بحيث تصبح أحد منافذها في مواجهة النافذة، واقتربت بما يكفي للإلقاء نظرة على داخل الغرفة. بقيت هناك

لبعض الوقت، لكنني لم أتمكن من رؤية أي شخص؛ ما أقنعني في النهاية بأنهم نقلوا تافيا إلى مكان آخر. شعرت بخيبة أمل؛ لأن هذا سيؤدي بالضرورة إلى تعقيد خططي لإنقاذها. لم أتوقع صعوبة تذكر في نقل تافيا ليلاً من خلال نافذة البرج إلى الطائرة؛ والآن يجب أن أضع خطة جديدة. يتوقف كل شيء، بطبيعة الحال، على قدرتي على تحديد موقع تافيا. وبديهيًا يتطلب القيام بذلك أن أدخل القصر. سوف تهددني أخطار كثيرة ما إن أتخلى عن الطابع الخفي لطائرتي؛ كما أن العتاد الذي أرتيه من تصميم وصنع عبيد فور تاك، ولا بد أن يثير شك أول شخص يراني.

يجب أن أدخل القصر؛ ويتطلب ذلك أن أتكرر، تحقيقاً لأي درجة من السلامة.

جميع منافذي مغلقة الآن، والمنظار هو عيناى فقط. أدت المنظار ببطء خلال محاولتي وضع خطة إجرائية تشتمل في داخلها على بذرة نجاح صغيرة.

عندما بدأت البانوراما تنكشف ببطء على الزجاج الأمامى، ظهرت حظيرة القصر الرئيسة والمحارب الوحيد الذي يتولى المراقبة. وهنا أوقفت حركة المنظار، حيث يوجد هنا أحد مداخل القصر، ويوجد هنا تنكر.

أدركت سفيتتي ببطء في اتجاه الحظيرة، وهبطت بها قريباً من سطح هذا المبنى. كان ينبغي أن أسعد بإرساء السفينة على السطح، وإنما لا توجد أي وسيلة هنا في تناول اليد. يجب أن أعتمد على وزنها، وأمل

ألا تهب رياح عالية فتجرفها.

ومع إدراكي أنني سأصبح مرئياً تماماً بمجرد خروجي من الطائرة، انتظرت أراقب من خلال المنظار إلى أن أدار المحارب على السطح أدناي مباشرة ظهره؛ ثم خرجت بسرعة من السفينة، عبر إحدى البوابات العلوية، ونزلت إلى السطح على الجانب الأقرب إلى المحارب. كنت على بُعد حوالي أربعة أقدام من حافة السطح، وكان يقف أدناي تقريباً وظهره نحوي. إذا استدّار، سيكشفني على الفور ويطلق إنذاراً قبل أن أتمكن من مهاجمته. ولذلك، كان أُملي الوحيد في النجاح يتمثل في إسكاته قبل أن يدرك أنه مهدد.

لقد تعلمت من تجارب جون كارتر أن الأفكار الأولى غالباً ما تكون مصدر إلهام، بينما قد يؤدي التفكير الرزين اللاحق إلى الفشل، أو قد يؤخر التصرف بما يقود إلى إبطال أي تأثير له.

ولذلك تصرف في هذه الحالة بناء على الإلهام. لم أتردد. صعدت بسرعة إلى حافة السطح، وألقيت نفسي مباشرة على أكتاف الحارس العريضة. كان في يدي خنجر صغير.

جاءت النهاية سريعاً. وأعتقد أن الزميل المسكين لم يعرف ماذا حدث له. سحبته جثته إلى داخل الحظيرة وجردته من عتاده. وفي الوقت نفسه، لاحظت تلقائياً السفن الموجودة داخل الحظيرة. وكانت جميع السفن، باستثناء واحدة -زورق دورية- تحمل الشارات الشخصية لجِدِ تجاناث. كانت جميعها سفن الملك - سفينة حربية مزخرفة ومدججة بالسلاح، طائرات صغيرتان للمتعة، طائرة استطلاعية

تسع رجلين، وطائرة استطلاعية تسع رجلًا واحدًا. ليس عددًا كبيرًا، بطبيعة الحال، مقارنة بسفن هيليوم؛ لكنني على يقين بأنها أفضل ما يمكن أن تنتجه تجانات على الإطلاق. بيد أنني، ومعني سفيتي، لم أكن مهتمًا بهذه السفن بشكل خاص بأكثر من اهتمامي الدائم بالسفن من جميع الأوصاف.

على مسافة غير بعيدة مني، يقع مدخل السلم الحلزوني المؤدي إلى القصر. ولإدراكي أن الجرأة هي فقط مفتاح النجاح، توجهت مباشرة إلى فتحة السلم ودخلت. وعند المنعطف الأول، أفرعني أن السلم يمر مباشرة من خلال غرفة الحرس. رأيت عشرات المحاربين يتمددون على الأرض متدثرين في حرير وفراء النوم.

لا أجرؤ على التوقف؛ يجب أن أواصل. ربما يمكنني المرور دون إثارة فضولهم. كنت قد ألقيت نظرة سريعة على الغرفة قبل دخولها، وخلال تلك اللحظة لم أشهد سوى رجال نائمين، وبعد أن خرجت رأيت أنها لا تضم سوى من رأيتهم بداية. لا يوجد بالغرفة أحد مستيقظ، لكنني سمعت أصواتًا في غرفة مجاورة. أسرع في خطواتي عبر الشقة، ودخلت السلم الحلزوني على الجانب الآخر.

أعتقد أن قلبي توقف وأنا أخطو بصمت عبر تلك الغرفة بين أولئك الرجال النيام؛ فلو كان أحدهم قد استيقظ، لعرف حتمًا أنني لست من زملائه أفراد الحرس.

لا بد أن يقل الخطر كلما نزلت عبر مستويات القصر؛ ذلك أن عدد الخدم في القصر كبير جدًا بحيث لا يمكن أن يتعرف عليهم أحد بمجرد

النظر، بحيث أصبح من المعتاد رؤية وجوه غريبة وغير مألوفة كما هو الحال في طرقات المدينة.

تمثلت خطتي في محاولة الوصول إلى غرفة البرج التي تُحتجز فيها تافيا؛ فقد كنت على يقين أنني لم أتمكن من موقعي في الطائرة من رؤية داخل الغرفة بالكامل، ومن المحتمل أن تافيا كانت هناك.

لم يكن بمقدوري، نظرًا لبنية السفينة، أن أجذب انتباه تافيا دون فتح كوة صغيرة والمخاطرة بكشف وجودي؛ بما سيعرض فرص تافيا للهرب إلى خطر كبير لا يبرر قيامي بفتح الكوة.

ربما يجب أن أنتظر حلول الليل؛ وربما كان قلقي مفرطًا، ولحماسي قد أواجه مخاطر أكبر بكثير من الضروري. فكرت في هذه الأمور، وربما وبخت نفسي؛ لكنني مضيت بعيدًا في هذا المسار بحيث لا يمكنني التراجع الآن. اتخذت خطوات صحيحة، مهما كان ما سيعترب عليها.

واصلت الهبوط على السلم الحلزوني إلى مستويات مختلفة، وحاولت اكتشاف بعض العلامات المألوفة التي قد تقودني إلى البرج الشرقي. وعندما وصلت إلى ممر أحد المستويات، رأيت أمامي مباشرة بابًا تعرفت عليه فورًا - إنه باب مكتب يو سينو، حارس المفاتيح.

قلت في ذهني: «جيد! لقد قادني مصيري إلى هنا».

توجهت إلى الباب وفتحته، ودخلت الغرفة بسرعة وأغلقت الباب ورائي. كان يو سينو يجلس على مكتبه. وكان بمفرده. لم ينظر. كان

أحد أولئك الرجال المتغترسين - رجل ضئيل يتمتع بسلطة محدودة - الذين يحبون إظهار وممارسة الأهمية على من هم أدنى منهم. ولذلك، كانت طريقته بلا شك هي تجاهل الزائرين للحظة أو لحظتين. لكنه كان على خطأ هذه المرة. فبعد أن أغلقت الباب ورائي بهدوء، توجهت إلى الباب الذي يقع في الجهة المقابلة من الغرفة، وأغلقتة أيضًا.

وعندئذ كان يو سينو مضطربًا دون شك، بدافع الفضول، أن ينظر. لم يتعرف عليّ في البداية، وسأل بخشونة: «ماذا تريد؟».

قلت: «أريدك أنت، يو سينو».

تثبتت عيناه نحوي للحظة باندعاش متزايد، ثم اتسعت عيناه وقفز على قدميه صارخًا: «أنت؟ باسم إيسوس، كلا! أنت ميت!».

قلت: «لقد عدت من القبر، يو سينو. عدت لملاحقتك».

سألني: «ماذا تريد؟ قف جانبًا! أنت مقبوض عليك».

سألته: «أين تافيا؟».

سألني: «وكيف لي أن أعرف؟».

«أنت حارس المفاتيح، يو سينو. من يعرف أفضل منك أماكن السجناء؟».

قال: «حسنًا، ماذا لو أعرف؟ لن أقول».

حذرته قائلاً: «سوف تقول، يو سينو، أو تموت».

خرج من وراء مكتبه ولم يكن يقف بعيدًا عني؛ ودون سابق إنذار وبسرعة أكبر مما تصورت أنه يملكها انتزع سيفه الطويل من غمده وهاجمني.

اضطرت للتراجع بسرعة لتجنب ضربته الأولى؛ وعندما تأرجح سيفه للمرة الثانية، كنت أمتشق سيفي مستعدًا. أثبت يو سينو أنه ليس خصمًا ضعيفًا. كان ماهرًا في استخدام السيف، ويعلم أنه كان يقاتل من أجل حياته. تعجبت في البداية لماذا لم يستدع المساعدة، ثم استنتجت عدم وجود محاربين في الغرفة المجاورة التي كانوا فيها عند زيارتي السابقة لمقر يو سينو. تقاتلنا بصمت، في ما عدا قعقة تصادم معادن السيفين التي تعكس المعركة المميتة.

كنت في عجلة من أمري للانهاء منه. وعندما كنت أضغط عليه عن كذب، لجأ إلى حيلة كادت أن تثبت فشلي. تمكنت أن أجعله يقف وظهره قبالة مكتبه، وتصورت أنه بذلك لن يتمكن من الفرار. لم أتمكن من رؤية يده اليسرى خلفه، ولا المزهرية الثقيلة التي كان يتلمس طريقها؛ على أنني خلال لحظة رأيت ذلك الشيء يطير مباشرة نحو رأسي، كما رأيت الفتحة التي صنعها يو سينو عندما كان يلقي قذيفته، إذ كان شديد الانشغال بهدفه إلى حد أنه ترك سيفه يسقط. انحنيت تحت المزهرية قافزًا إلى موقع قريب واخترق سيفي قلب يو سينو.

لم أستطع أن أمنع شعورًا بالغبطة وأنا أمسح الدم من سيفي على شعر ضحيتي، فقد تمكنت بيدي من الإجهاز على الشخص الفاسق الذي تحرش بفاو والانتقام لشرف صديقي نور آن.

على أي حال، ما من وقت الآن للتأمل. سمعت خطوات تقترب في الممر بالخارج، فأسرعت في الاستيلاء على عتاد الجثة ثم سحبتها تجاه اللوح الذي يخفي مدخل الممر السري الذي يقود إلى الغرفة في

البرج الشرقي - ذلك الممر المألوف الذي أمضيت فيه لحظات سعيدة مع تافيا بمفردنا.

وبتسرع أكثر منه تبجيل، ألقيت جثة يو سينو في الجزء الداخلي المظلم وأغلقت اللوح خلفي، ثم أخذت أتلمس طريقي خلال الظلام نحو غرفة البرج وقلبي يحدوه الأمل أن أجد تافيا هناك.

مع اقترابي من اللوح الذي يقع في نهاية ممر البرج، شعرت بضربات قلبي تتسارع - إحساس لم أكن معتادًا عليه، ولم أتمكن من تفسيره. كنت على يقين بأن حالتي البدنية ممتازة؛ وفي حين أنه ليس من غير المعتاد على الإطلاق أن يتسبب الخطر المفاجئ أو الوشيك في تسارع نبضات قلوب بعض الرجال، على الرغم من تمتعهم بشجاعة استثنائية، إلا أنني لم أشعر من قبل بمثل هذا الإحساس، ويجب أن أعترف أنه أثار حيرتي للغاية.

على أن توقعي لرؤية تافيا ثانية سرعان ما دفعني إلى نسيان هذا الإحساس غير السار. وعندما توقفت خلف اللوح، كان ذهني منشغلًا تمامًا بتفكير ممتع لما آمل أنه في انتظاري - التوق إلى جمع الشمل مع أفضل صديقة.

كنت على وشك الإمساك بالمزلاج وفتح اللوح عندما جذبت انتباهي أصوات من الغرفة خلفه. سمعت صوت رجل وامرأة، لكني لم أتمكن من فهم أي كلمة. فتحت اللوح بحذر، بما يكفي لرؤية ما بداخل الشقة.

ارتفعت دماء القتال الحارة في عروقي من المشهد الذي التقت به

عيناي. رأيت تافيا في وسط الغرفة في قبضة محارب شاب يرتدي أغطية مزخرفة ويسحبها عبر الغرفة نحو المدخل. كانت تافيا تضربه وتقاومه. قال لها الرجل مزمجرًا: «لا تكوني حمقاء. هاج أوسيس منحك لي. سوف تعيشين كعبدتي حياة أفضل من الحياة التي تعيشها أغلب النساء الأحرار».

أجابت تافيا: «أنا أفضل السجن أو الموت».

كانت فاو تقف عاجزة على الجانب، وعيناها مملوءة بالشفقة تجاه تافيا. كان من البديهي أنها لا تستطيع أن تفعل أي شيء للدفاع عن صديقتها؛ فقد كانت أغطية المحارب توضح رتبته العالية، التي لم أتبينها حينذاك لعدم اهتمامي بها. قفزت إلى وسط الغرفة وأمسكت المحارب بخشونة من كتفه، وألقيت به إلى الخلف بشدة، فسقط ممددًا على الأرض. سمعت شهقات تنم عن الذهول من جانب فاو وتافيا، ونطقت تافيا اسمي بنعومة.

وجهت سيفي نحو المحارب الذي نهض بسرعة إلى قدميه، لكنه لم يمتشق سيفه وصرخ: «أحمق! أبله! وغدا! ألا تدرك ما فعلت؟ ألا تعرف من أكون؟».

قلت له بصوت منخفض: «بعد لحظة سوف تصبح من كنت». استعداد!.

«كلا»، صاح وهو يتراجع، «أنت ترتدي عتاد ومعادن محارب من الحرس. ولا تجرؤ على رفع سيفك ضد ابن هاج أوسيس. تراجع أيها

الزميل، أنا الأمير هاج ألت».

أجبت: «كنت لأدعو من إيسوس أن تكون هاج أوسيس نفسه، لكن مكافأتي على الأقل هي معرفتي أنني دمرت ابنه. استعد، يا أحمق، إلا إن كنت تريد الموت رغبةً في أن تموت مثل سوراك»^(٥٤).

استمر يتراجع، ثم نظر حوله وكل دلائل الرعب بادية على ملامحه الضعيفة. لمح باب اللوح الذي تركته سهوًا مفتوحًا، وانطلق فيه قبل أن أتمكن من منعه وأغلقه خلفه. قفزت لمطاردته، لكن القفل أُغلق ولم أكن أعرف أين يمكنني إيجاد الآلية اللازمة لفتحه.

صحت: «أسرعي، فاو، أنت تعرفين سر اللوح. افتحيه من أجلي. يجب ألا نسمح لهذا الزميل بالهروب وإلا سيدق جرس الإنذار ونضيع جميعًا».

ركضت فاو بسرعة إلى جانبي ووضعت إبهامها على زر مخفي بذكاء في نحت مزخرف في الألواح الخشبية التي تغطي الجدار. انتظرت في توقع لاهث، لكن اللوح لم يفتح. ضغطت فاو بشكل محموم مرارًا وتكرارًا، ثم التفتت نحوي بإيماءة تنم عن العجز والهزيمة.

وقالت: «لقد عبث بالقفل من الجانب الآخر. إنه وغد ذكي، وكان سيفكر في ذلك».

قلت: «يجب أن نتبعه»، ورفعت سيفي الطويل وضربت اللوح

(٥٤) سوراك: هو مخلوق صغير الحجم جدًا من ست أرجل، وتحتفظ به نساء المريخ كحيوان أليف
<http://barsoom.wikia.com/wiki/Sorak> - المترجمة.

ضربة قوية كان من شأنها أن تحطم ألواحًا أكثر سُمكًا، لكنها لم تسفر سوى عن خدش وتمزيق قطعة صغيرة لا يزيد سمكها عن ظفر الإصبع. على أن الندبة التي أحدثتها كشفت عن الحقيقة المروعة - أن اللوح مصنوع من الفوراندس^(٥٥) وهو أقوى وأخف معدن معروف في برسوم. ابتعدت قائلاً: «لا جدوى من محاولة اختراق الفوراندس بالصُّلب البارد».

تحركت تافيا ناحيتنا ووقفت صامتة، تنظر إلى وجهي. امتلأت عينها بالدموع، ورأيت شفيتها ترتعشان، وقالت لاهثة: «هادرون! لقد عدت من بين الأموات. أوه، لماذا جئت، لن يخطئوا هذه المرة».

قلت لها: «تافيا، أنت تعرفين لماذا جئت».

«أخبرني»، قالت بصوت ناعم ومنخفض.

أجبتها: «من أجل الصداقة، تافيا؛ لأفضل صديقة يمكن للمرء أن يفوز بها».

بدت مندهشة في البداية، ثم ظهرت ابتسامة صغيرة غريبة على شفيتها، وقالت: «صداقة هادرون الهاستوري أفضل عندي من أي هدية أخرى قد يهبها العالم لي».

كان قولاً جميلاً منها وأقدره بالتأكيد، لكنني لم أفهم ابتسامتها الصغيرة. مع ذلك، لم يكن لديّ وقت لحل الألغاز؛ فمشكلة سلامتنا

(٥٥) فوراندس: أقوى وأخف معدن، ولا يوجد سوى على المريخ. يستخدم في صنع الدروع والأسلحة، وأحياناً في المباني - <https://barsoom.fandom.com/wiki/Forandus> - المترجمة.

هي الأهم. وعندئذ فكرت في القنينة الموجودة في جيب حقيتي. نظرت بسرعة حولي في الغرفة. لمحت في ركن كومة من حرير وفراء النوم؛ هناك شيء قد يحقق غرضي؛ فمحتويات القنينة قد تمنحنا جميعاً الحرية إذا توفر لدينا وقت كافٍ. ركضت في أنحاء الغرفة، وبحثت سريعاً إلى أن عثرت على ثلاث قطع من القماش كانت، على الأقل، أكثر ملائمة لغرضي من أي شيء آخر. فتحت جيب حقيتي وأخرجت القنينة، وفي اللحظة نفسها سمعت صوت أقدام تركض وقعقة الأسلحة.

فات الأوان! إنهم عند الباب بالفعل. أغلقت جيب حقيتي، وانتظرت. دار في ذهني بداية الهجوم عليهم وقتالهم بمجرد دخولهم، لكنني طرحت هذه الفكرة جانباً لأنها أسوأ من عدم الجدوى؛ فلن تقود إلا إلى موتي، في حين قد يسفر الوقت عن فرصة لاستخدام محتويات القنينة.

تأرجح الباب مفتوحاً، وكشف عن خمسين محارباً في الممر بالخارج. دخل بادوار الحرس متبوعاً برجاله، وقال آمراً: «استسلم!». فقلت: «أنا لم أمتشق سيفي. تعال وخذني».

سألني: «هل تعترف أنك المحارب الذي هاجم الأمير هاج ألت؟». أجبت: «نعم».

«وما علاقة هؤلاء النساء بالأمر؟».

«لا شيء. أنا لا أعرفهم. لقد تابعت هاج ألت إلى هنا لأنني اعتقدت أنها الفرصة التي كنت أسعى إليها لقتله».

سألني البادوار: «ولماذا تريد قتله؟ ما شكواك ضد الأمير؟».

أجبتة: «لا شيء. أنا قاتل محترف، استأجرتني آخرون».

سألني: «ومن هم؟».

ضحكت، لمعرفتي أنه يعرف جيدًا عدم توجيه مثل هذا السؤال إلى قاتل محترف في برسوم؛ ذلك أن أعضاء هذه الأخوية القديمة يسترشدون بقواعد أخلاقية يلتزمون بها بدقة، ونادرًا ما يمكن إقناع أو إجبار أي منهم بالكشف عن من كلفه بالمهمة.

رأيت عيني تافيا متجهة نحوي، ويبدو عليهما تعبيرات متسائلة؛ لكنني على يقين أنها تعرف أنني أكذب لحمايتها هي وفاو.

أخرجوني من الغرفة؛ وخلال اقتيادي على طول الممرات وأسفل سلالم القصر، استجبوني البادوار في محاولة لمعرفة هويتي الحقيقية. شعرت براحة كبيرة لاكتشافي أنهم لم يتعرفوا عليّ، وتمنيت أن أتمكن من مواصلة تجنب معرفتهم بهويتي، ليس لأن ذلك سيحدث أي فارق في مصيري - فأنا مُدرك أن الضرر سيقع على من حاول اغتيال أمير بيت هاج أو سيس - لكنني كنت أخشى أنهم إذا تعرفوا على هويتي قد يتهمون تافيا بالتواطؤ في الاعتداء على هاج ألت، وبالتالي تتعرض للمعاناة بناء على ذلك.

وجدت نفسي الآن في الحُفر مرة أخرى، وبالمصادفة في الزنزانة نفسها التي كنت محبوسًا فيها من قبل مع نور آن. أحسست بمشاعر العودة للوطن، وإن كان بشكل مختلف. أصبحت وحدي مرة أخرى،

مُقيّدًا إلى جدار حجري. وكان أُملي الوحيد يتمثل في القنينة التي أغفلوها، ولا تزال مستقرة في الجزء السفلي من جيب حقيتي. بيد أن هذا ليس الوقت أو المكان المناسب لاستخدام محتوياتها، كما أن المطلوب ليست في تناول يدي حتى لو كنت غير مُقيّد.

لم يمضِ وقت طويل في الحفر هذه المرة قبل أن يأتي المحاربون ويفكوا أغلالي، ثم يقتادوني إلى قاعة العرش العظيم في القصر، حيث يجلس هاج أو سيس على المنصة ويحيط به كبار الضباط والموظفين من جيشه وحاشيته.

كان الأمير هاج ألت حاضرًا؛ واستشاط غضبًا عندما شاهدني وهم يقتادوني نحو العرش. أوقفوني أمام الحد، الذي التفت إلى ابنه وسأله: «هل هذا هو المحارب الذي هاجمك، هاج ألت؟».

أجاب الشاب: «هذا هو الوغد. لقد هاجمني على حين غرة، وكاد أن يطعنني في ظهري لو لم أنجح في خداعه».

سأل هاج أو سيس: «هل وجّه سيفه ضدك - ضد شخص الأمير؟».

«نعم، وكان يمكن أن يقتلني به، كما قتل يو سينو الذي وُجدت جثته في الممر المؤدي من مكتب يو سينو إلى البرج».

عثروا إذن على جثة يو سينو. حسنًا، لن يقتلوني مرتين. سوف أُقتل لتهديدي حياة الأمير، وعندئذ لن يقتلوا شخصًا ميتًا لارتكابه جريمة قتل يو سينو.

وهنا هرع ضابط إلى قاعة العرش مسرعًا. كان تنفسه سريعًا وهو

يتوقف أمام العرش. كان يقف بجانبه مباشرة ورأته يلتفت وينظر نحوي بسرعة، وعينه تتحركان صعودًا وهبوطًا بسرعة بين رأسي وقدمي؛ ثم خاطب الرجل الجالس على العرش.

قال: «هاج أوسيس، جد تجانات، لقد جئت مسرعًا لأخبرك أننا عثرنا على جثة محارب من حرس الحظيرة داخل حظيرة طائرات الجد. وكان بلا عتاده وأسلحته، في حين وجدنا بجوار جثته عتادًا غريبًا وأسلحة غريبة. وعندما أتيت إلى العرش، هاج أوسيس، تعرفت على عتاد محاربي الميت على جسم هذا الرجل هنا»، وأشار نحوي بإصبع اتهام.

أخذ هاج أوسيس يتفحصني بعناية فائقة. وبدأت في عينيه نظرة غريبة لم تعجبني. كانت تدل أنه يقترب من التعرف عليّ، وفجأة رأيت تعرّفه الكامل؛ وعندئذ أقسم جد تجانات يمينًا بصوت عالٍ دوى خلال قاعة العرش العظيم.

صاح: «يا للهول، باسم إيسوس! انظروا إليه! ألا تعرفونه؟ إنه الجاسوس الذي أتى من جاهاار ويطلق على نفسه اسم هادرون الهاستوري. لقد مات في 'الهلاك'. رأيتُه بعيني، لكنه هنا مرة أخرى في قصري، يقتل شعبي ويهدد ابني، لكنه سيموت هذه المرة»، نهض هاج أوسيس عن عرشه وهو يرفع يديه كأنما يחדش الهواء فوقه بمخالبه، حيث بدا مثل كورفال^(٥٦) بشع يُطلق لعنة على ضحيته، «ولكن علينا

(٥٦) كورفال: روح شريرة يعتقد سكان بعض مدن المريخ أنها تطارد سراديب الموتى في مدينتهم وتسعى إلى امتلاك جثثهم، وبالتالي يقومون بتحنيط أجسادهم بعد موتهم حتى لا تستخدمهما هذه الروح الشريرة - <https://barsoom.fandom.com/wiki/Corphal> - المترجمة.

أولاً أن نعرف مَنْ الذي أرسله هنا. فهو لم يأتِ برغبته لقتلي وقتل ابني؛ بل خلفه عقل خبيث يتوق إلى تدمير جدِ تجاناث وأسرته. أحرقوه ببطءٍ، ولكن دون أن يموت حتى يكشف لنا عن الاسم. خذوه بعيداً! فلتكن النيران حامية، وإنما ببطء».



الفصل (١٢)

عباءة التخفي

ما إن أعلن هاج أوسيس، جد تجانات، الحكم بالإعدام ضدي، حتى أدركت أن أي شيء أريد أن أفعله لإنقاذ نفسي يجب أن يتم في الحال؛ إذ بمجرد أن يمسك بي الحراس ثانية، سيتلاشى أمني النهائي لأنهم سيشرعون في التعذيب والموت على الفور.

اصطف على بعد عدة خطوات خلفي المحاربون الذين يشكلون الحرس الذي اصطحبني من الحُفر. كانت المنصة التي وقف عليها هاج أوسيس ترتفع فوق أرضية قاعة العرش بحوالي ثلاثة أقدام. ولا يوجد أحد بيني وبين جد تجانات؛ إذ تقدم من عرشه إلى حافة المنصة عندما أعلن حكمه ضدي.

لم يتأخر الإجراء الذي اتخذته، ما دام استغرق مني وقتًا لسرده. ولو كنت تأخرت، لم أكن لأستطيع سرده وإلا لهاجمني الحراس. فما إن سقطت آخر كلمة من فمه، حتى كانت خطتي جاهزة، وقفزت فورًا كالقط إلى المنصة، وهجمت على هاج أوسيس، جد تجانات. كان هجومي مفاجئًا وغير متوقع، لدرجه أنه لم يكن هناك أي دفاع. أمسكته

من رقبتة بإحدى يديّ، وانتزعت باليد الأخرى خنجره من غمده ورفعته
عاليًا وأنا أُطلق صيحات تحذيرية بصوت يسمعه الجميع.

صحت: «تراجعوا، وإلا يموت هاج أوسيس!».

كانوا قد بدأوا يندفعون نحوي، لكنهم توقفوا ما إن أدركوا مغزى
تهديدي.

قلت: «إما حياتي، أو حياتك، هاج أوسيس، إلا إذا فعلت ما أقوله
لك».

سألني، ووجهه يتخذ اللون الأسود من الرعب: «ماذا تريد؟».

سألته: «هل توجد غرفة انتظار خلف العرش؟».

فأجاب: «نعم. ماذا عنها؟».

قلت: «خذني إلى هناك، بمفردك. وأصدرُ أمرًا إلى رجالك بالتنحي
جانبًا».

سألني وهو يرتعش: «وأتركك تقتلني عندما تنفرد بي هناك؟».

أجبت: «سوف أقتلك الآن إن لم تفعل. اسمع، هاج أوسيس، أنا
لم آت هنا لقتلك أو قتل ابنك. فما قلته لبادوار الحرس كان كذبًا. لقد
جئت لغرض آخر، تتجاوز أهميته بالنسبة لي حياة هاج أوسيس أو حياة
ابنه. قم بما أطلبه منك، وأعطيك وعدًا بعدم قتلك. قل لرجالك إننا
سنذهب إلى غرفة الانتظار، وإني تعهدت بعدم إلحاق الأذى بك إذا
تركانا بمفردنا لمدة خمس زات (حوالي خمس عشرة دقيقة)».

تردد هاج أوسيس. قلت: «عليك أن تسرع، ليس لديّ وقت

أُضيّعه»؛ ووضعت سن خنجره بحيث يلمس رقبته.

صرخ بخوف: «لا! سوف أفعل كل ما تقوله. تراجعوا جميعاً!»،
صاح بقومه، «سأذهب إلى غرفة الانتظار مع هذا المحارب، وأمركم،
وإلا أصابكم ألم الموت، بعدم الدخول إلينا لمدة خمس زات. وعند
نهايتها، تدخلون؛ ولكن ليس قبل ذلك».

شدت قبضتي على عتاد هاج أوسيس بين كتفيه وأبقيت الخنجر
لامساً جسمه أسفل كتفه الأيسر، وتبعته إلى غرفة الانتظار؛ بينما تراجع
كل من تزدهم بهم المنصة خلف العرش، ليفسحوا ممراً لطريقنا.
توقفت عند المدخل واستدرت نحوهم.

وقلت: «تذكروا، خمس زات كاملة، وليس تالاً واحداً قبلها».

دخلنا غرفة الانتظار وأغلقت الباب. عبرت الغرفة، وأنا أدفع هاج
أوسيس أمامي، ثم أحكمت إغلاق الباب الآخر الذي يقع في نهايتها.
دفعت الجِد إلى أحد جوانب الغرفة.

وقلت: «تمدد هنا، على وجهك».

قال باكيًا: «لقد تعهدت بألا تقتلني».

«لن أقتلك إلا إذا دخلوا قبل نهاية الخمس زات، وعليك أن تفعل
ما أطلبه منك حتى لا تؤخرني. سوف أُفيدك، دون أن يصيبك ذلك بأي
ألم».

رقد بهدوء على بطنه، وقمت بتقييد ذراعيه معاً في عتاده خلف
ظهره؛ ثم عصبت عينيه، وتركته راقداً.

كنت قد تفحصت بلمحة سريعة واحدة محتويات الغرفة عندما دخلتها، ورأيت بدقة الأشياء التي أحتاجها. والآن بعد أن تخلصت من هاج أوسيس، أسرعت إلى إحدى النوافذ ومزقت جزءًا من الستائر الحريرية التي تغطيها. كانت قطعة كاملة من الحرير الخفيف الناعم وعريضة جدًا؛ ذلك أن المقصود من استخدامها أن تحمل ثنانيا رقيقة تُعلق بها ستائر أثقل. استخدمت في عملي المكتب المزخرف الذي يُوقَّع عليه جد تجاناث مراسيمه. أخرجت القنينة أولاً من جيب حقيتي، وأزلت السدادة التي تغلقها؛ ثم حولت الحرير على شكل كرة، وتمكنت بفضل صفائه الرائع ضغطه بين يديّ الاثنين. قمت بربط شرائط حريرية، مزقتها من ستارة أخرى، بكرة الحرير بحيث أصبحت كتلة مضغوطة فضفاضة تتدلى منها تلك الشرائط؛ ثم أخذت أصب ببطء محتويات القنينة فوقها مع تدوير الكرة بسن خنجر هاج أوسيس. تذكرت تحذير فور تاك، ولذا حرصت على ألا تمس محتويات القنينة جسدي، وأدركت بسهولة لماذا يجب أن يتوخى المرء الحذر، عندما شاهدت كرة الحرير تختفي أمام عيني.

ومع معرفتي أن تركيبة الإخفاء تحف بسرعة ما إن يتشربها الحرير، لم أنتظر سوى لحظات وجيزة بعد إفراغ حوالي نصف محتويات القنينة على الكرة. أخذت أألمسها بأصابعي، ووجدت الأشرطة التي تحافظ على شكلها الكروي وقطعتها، ثم هززت الحرير بقدر استطاعتي. كان معظمها خفيًا، باستثناء بقعة أو بقعتين لم تصل إليها التركيبة، فأسرعت برشها بالسائل المتبقي في جيب حقيتي.

يتوقف الكثير على نجاح تجربتي، لدرجة أنني كنت أخشى من اختبارها. بيد أن اختبارها كان ضروريًا، وليس أمامي سوى قدر ضئيل من فترة الزات المتفق عليها قبل أن يقتحم محاربو هاج أوسيس غرفة الانتظار.

استعنت بحاسة اللمس لأضع الحرير فوق رأسي، بحيث يسقط كاسيًا جسمي كله. وتمكنت من خلال شبكاته الدقيقة الرقيقة من رؤية الأشياء على مسافة قريبة بما يكفي لشق طريقي. ذهبت إلى هاج أوسيس وأزلت العصابة عن عينيه، مع تراجعني بسرعة في الوقت نفسه. نظر حوله في عجالة وخوف.

وسأل: «مَن فعل ذلك؟»، ثم قال لنفسه: «لقد ذهب». ظل صامتًا للحظة، وعيناه تدوران في جميع الاتجاهات، باحثتين في كل زاوية وركن من الشقة؛ ثم ظهر في عينيه تعبيرٌ ينم جزئيًا عن الأمل وجزئيًا عن الارتياح.

«أسرعوا!»، صاح بصوت عالٍ، «يا حراس! لقد هرب!».

تنفست الصعداء - إذا كان هاج أوسيس لا يستطيع رؤيتي، فلن يستطيع غيره - لقد نجحت خطتي.

لم أجرؤ على العودة إلى قاعة العرش، وهربت بهذه الطريقة على طول الممرات المألوفة لي، وكنت أسمع بالفعل اندفاع الأقدام نحو باب غرفة الانتظار. كما كنت أدرك جيدًا أنهم يستطيعون الشعور بي على الرغم من أنهم لا يستطيعون رؤيتي؛ ومما لا شك فيه أن عباءة التخفي التي أرتديها قد تتمزق، أو على الأقل جزء منها، خلال هذا

الاندفاع المحموم، مما يعني دون شك موتي.

ركضت مسرعاً نحو المدخل الآخر وفتحته، ثم نظرت خلفي إلى هاج أوسيس. كانت عيناه موجّهتين نحو المدخل وتتسعان في تشكك ورعب. لم أدرك السبب للحظة، ونظرت بسرعة إلى الخلف لمعرفة ما إذا كان بإمكانني رؤية ما تسبب في هلع هاج أوسيس، ثم أدركت الأمر وابتسمت. فقد رأى وسمع حركة المزلاج ثم فُتح الباب وكأنه يحدث بأيدي شبحية.

لا بد أنه أحس باشتباه غامض بالحقيقة، لأنه التفت بسرعة نحو الباب الآخر وأطلق صرخة تحذير عالية. صاح: «لا تدخلوا إلى أن تنتهي الخمس زات. أنا - هاج أوسيس، الجِد - مَنْ يصدر هذا الأمر». أغلقت الباب خلفي وما زلت مبتسمًا، وأسهرت على طول الممر بحثًا عن سلم يحملني إلى المستويات العليا من القصر، حيث يمكنني بسهولة تحديد غرفة الحرس والحظيرة التي تركت فيها سفيتي.

قادني الممر الذي دخلته إلى الشقق الملكية مباشرة.

وجدت صعوبة في البداية على تعويد نفسي على حالة الخفاء؛ فعندما دخلت فجأة إلى شقة تضم العديد من الأشخاص، كان الفرار هو أول ما طرأ في ذهني، على أنني خطوت مباشرة أمام أحد شاغلي الغرفة، على مسافة تزيد قليلاً على خمسة أو ستة أقدام، دون أن أجذب انتباهه، على الرغم من أن عينيه كانتا موجّهتين نحوي مباشرة، وهذا ما أعاد لي الثقة. واصلت سيري في أنحاء الغرفة بلا مبالاة كما لو أنني في مسكني في هيليوم.

بدأت الشقاق الملكية بلا نهاية. وعلى الرغم من بحثي المستمر عن وسيلة للخروج منها إلى أحد ممرات القصر الرئيسة، كنت أجد دومًا أماكن لا يهمني الوجود فيها لأنني لا أحتاج إليها في شيء. وكنت أشعر أحيانًا بالحرج؛ مثلًا عندما دخلت شقة خاصة مريحة تخص النساء، في لحظة لا يتوقعن فيها دخول رجل غريب.

بيد أنني لم أعد أدراجي، فلم يكن لديّ وقت أضيعه، ومررت بالغرفة ومنها إلى ممر قصير آخر لأجد نفسي كأنما أقفز من المقلاة إلى النار - فقد دخلت الشقة المحرمة، شقة الجديارة نفسها. من حسن حظ الملكة أنني من دخل فجأة دون توقع وليس هاج أوسيس؛ لأن وضعها كان فاضحًا، ومن عتاده أدركت أن رفيقها حسن المظهر كان عبدًا. تراجعت في اشمئزاز، فلم يكن بالشقة مخرج آخر. والآن، وجدت مصادفة أحد ممرات القصر الرئيسة - ممر مزدحم، مملوء بالعبيد والمحاربين وأفراد الحاشية، علاوة على رجال ونساء وأطفال يتحركون جيئةً وذهابًا لأداء مهامهم، أو ربما يجلسون على المقاعد المنحوتة التي تصطف على طول الجدران.

لم أكن معتادًا بعد على حالة التخفي الجديدة والمثيرة للدهشة. بإمكانني أن أرى الناس حولي، وبدائي أنهم لا بد وأنهم يرونني. ترددت للحظة عند المدخل الذي قادني إلى الممر. اقتربت فتاة أمة خلال الممر، واستدارت فجأة نحو المدخل حيث أقف. كانت تنظر نحوي مباشرة، على أن نظراتها بدأت وكأنها تمر خلالي تمامًا. اعتراني الذعر للحظة، ثم أدركت أنها على وشك الاصطدام بي، فتحركت بسرعة جانبًا. مرت

بجانبي، وإن كان من الواضح أنها شعرت بوجودي؛ لأنها توقفت ونظرت حولها بسرعة وفي عينيها تعبير ينم عن الدهشة ثم دخلت عبر المدخل وعندئذ شعرت بارتياح هائل. لم ترني، لكنها سمعت خطوتي دون شك عندما تنحيت جانباً. والآن، مع تجدد شعوري بالثقة، انضمت إلى حشد غفير في الممر، وشققت طريقي بين الناس على نحو يجنبني التماس معهم، وأخذت أبحث بجدية عن مدخل لسلم يؤدي إلى أعلى. وقد اكتشفته الآن، ووصلت بعد فترة قصيرة إلى الطابق العلوي للقصر. وبعد بحث قصير، وصلت إلى غرفة الحرس أسفل السلم المؤدية إلى الحظائر الملكية.

تسكنت في غرفة الحرس، حيث كان المحاربون الذين في فترة راحتهم يشاركون في أنشطة مختلفة. كان بعضهم يقوم بتنظيف عتادهم وتلميع معادنهم؛ وكان اثنان يلعبان الجيتان^(٥٧)، بينما يُدحرج آخرون كرات صغيرة مُرقمة في اتجاه مجموعة مرقمة من الثقوب - لعبة حظ رائعة، تُسمى يانو، وأعتقد أنها لعبة قديمة بمثل قدم حضارة برسوم. كانت الغرفة تضحج بضحكات المقاتلين وأصواتهم وهم يقسمون اليمين في ألعابهم. يا لتشابه المحاربين في أنحاء العالم كافة! أما من حيث عتادهم ومعادنهم، فهم يختلفون عن حرس القصر في هيليوم.

مشيت بينهم وصعدت السلم إلى السطح حيث توجد الحظائر. وقف محاربان في الخدمة أعلى السلم، بما يحول دون تقدمي. المسافة

(٥٧) جيتان: لعبة في برسوم تشبه إلى حد كبير لعبة الشطرنج على كوكب الأرض - <http://barsoom.wikia.com/wiki/Jetan>

الترجمة - [wikia.com/wiki/Jetan](http://barsoom.wikia.com/wiki/Jetan)

بينهما ضيقة جدًا لأسير خلالها، وخشيت اكتشاف أمري. توقفت، وعندئذ سمعت حديثهما.

قال أحدهم: «أقول لك إنه ضُرب من الخلف، ولم يُعرَف أبدًا من قتله»؛ وهنا عرفت أنهما يتحدثان عن الحارس الذي قتله.

سأل الآخر: «ولكن من أين أتى القاتل؟».

«يعتقد البادوار أنه ربما زميل من أفراد الحرس. هناك تحقيق، وسوف يستجوبوننا جميعًا».

قال الآخر: «لست أنا. لقد كان أفضل صديق لي».

«ولست أنا أيضًا».

«لديه أسلوب مع النساء. ولعل ...»

تشتت انتباهي، وأنهت أصوات محارب يركض أعلى السلم حديثهما. أصبح موقعي الآن أكثر خطورة. السلم ضيق، ويمكن أن يصطدم بي بسهولة الرجل القادم من الخلف. ولذا يجب أن أمر بين الحارسين فورًا وأشق طريقي إلى السطح. توجد مساحة بالكاد كافية بين المحارب على يساري والجدار الجانبي للسلم تتيح مروري إذا لم يتراجع المحارب خطوة إلى الوراء. ومع أقصى قدر أستطيعه من التسلل، أدخلت نفسي ببطء خلفه؛ ولك أن تظمن أنني تنفست الصعداء عندما نجحت في المرور.

أما المحارب الذي كان يصعد السلم، فقد وصل الآن إلى الحارسين. وقال: «أمكن اكتشاف قاتل حارس الحظيرة».

«إنه ليس سوى ذلك الجاسوس من جاهار الذي يسمى نفسه هادرون الهاستوري، وهو ومع الجاسوس الآخر نور آن هما من صدر ضدهما الحكم بالموت في 'الهلاك'. لكنه هرب بمعجزة وعاد إلى قصر هاج أوسيس. كما قتل يو سينو، بالإضافة إلى حارس الحظيرة، وأمسكوا به بعد مهاجمته الأمير هاج ألت. والآن هرب مرة أخرى وهو موجود في القصر. وقد أرسلني بادوار الحرس لتوجيهكم بمضاعفة المراقبة. وهناك مكافأة كبيرة لمن يقبض على هادرون الهاستوري، حيًّا أو ميتًا».

قال أحد الحراس: «باسم معادني، أود أن أراه يحاول الهرب من هذا الطريق».

«لن يأتي إلى هنا أبدًا في النهار».

ابتسمت وأنا أسرع نحو الحظيرة. كان الوصول إلى السطح دون أن أخلع رداء التخفي صعبًا، لكنني نجحت أخيرًا. يمتد أمامي السطح الفارغ؛ لم تكن السفينة ظاهرة؛ لكنني ابتسمت مرة أخرى لأنني أعرف جيدًا أنها موجودة. بحثت عن عين المنظار التي ستكشف عن مكان الطائرة، لكنني لم أرها. بيد أن ذلك لم يشغلني كثيرًا لأنني أدركت أنها ربما تحولت إلى الاتجاه المعاكس. لا يتطلب الأمر سوى أن أسير في المكان الذي غادرت منه السفينة، وفعلت ذلك وأنا أتحسس أمامي يديَّ الممتدتين.

مشيت على السطح من جانب إلى آخر، لكنني لم أعثر على السفينة. وبديهيًا أنني شعرت بالحيرة. أعرف عن يقين أين تركت السفينة، لكنها

لم تُعد هناك. ربما أزعجتها الرياح قليلاً. وبأخذ هذه الفكرة في الاعتبار، بحثت في قسم آخر من السطح، لكنني لم أصل إلا لخيبة أمل مماثلة. انتابني الآن شعورٌ بالخوف، فشرعت في بحث منتظم للسطح إلى أن غطيت كل قدم مربع؛ وكنت مقتنعا بما لا يدع مجالاً للشك أن أسوأ الكوارث قد أصابتنى - سفيتي ذهبت؛ ولكن إلى أين؟ هناك عيوب، بطبيعة الحال، في تركيبة الإخفاء. ربما توجد السفينة على مسافة قريبة مني، لكنني غير قادر على رؤيتها. كانت رياح لطيفة تهب من الجنوب الغربي. إذا ارتفعت السفينة أعلى السطح، فسوف تنجرف في اتجاه الشمال الشرقي؛ ولذا أجهدت عيني نحو هذا الاتجاه لكنني لم أجد عين المنظار الصغيرة.

يجب أن أعترف أنني للحظة شعرت بإحباط شديد. يبدو دائماً أن النجاح عندما يكاد أن يكون في متناول يدي، ينتزعه مني مصير خبيث؛ لكنني الآن نفضت عني هذا اليأس الضعيف وقررت مواجهة المستقبل، أيّاً كان ما قد يجلبه.

أخذت أفكر لبضع لحظات في وضعي من جميع جوانبه، وأسعى إلى اكتشاف أفضل حل لمشكلتي. يجب أن أنقذ تافيا، لكنني شعرت بأنه ما من جدوى لمحاولة إنقاذها دون وجود سفينة، ولذلك يجب أن أحصل على سفينة، وكنت أعرف أن السفن في المستوى الأدنى مباشرة، في الحظائر الملكية. وهذه الحظائر تُغلق ليلاً، وتخضع لمراقبة الحراس في الصفقة. فإذا أردت سفينة، يجب أن أحصل عليها الآن، مع الاعتماد في نجاحي على سرعتي وجراتي.

من المعروف أن الطائرات الملكية تتسم عادة بالسرعة. وإذا لم تكن سفن هاج أوسيس استثناء لهذه القاعدة العامة في برسوم، فقد آمل في مطاردة إذا تمكنت من تجاوز حارس الحظيرة.

كنت على يقين من شيء واحد، أنني لا أستطيع إنجاز ما أريد ببقائي على سطح الحظيرة فبدأت أنزل بحذر. اخترت لحظة توجه خلالها اهتمام الحراس إلى مكان آخر، لأنني كنت أخشى دائماً أن ينحسر ردائي جانباً ويكشف عن أطرافي.

وما إن وصلت إلى السطح ثانية، حتى أسرع نحو الحظيرة وألقيت نظرة على السفن. اخترت سفينة كنت على يقين أنها تسع أربعة أشخاص بسهولة، كما دلت خطوطها على سرعتها الكبيرة.

صعدت إلى سطح السفينة واتخذت مكاني أمام لوحات التحكم. بدأت أرتفع بالسفينة تدريجياً، ثم أدّرت جهاز السرعة.

وقف الحراس أمامي مباشرة على الجانب الآخر، خلال المداخل المفتوحة في الحظيرة. وعندما انطلقت السفينة في ضوء الشمس، أطلقوا صرخة مفاجئة وفي الوقت نفسه إنذاراً. انطلقوا مثل المحاربين الشجعان بسيوفهم الطويلة، واستطعت أن أرى أنهم سيحاولون إنزال السفينة قبل أن أتمكن من التحليق على ارتفاع كبير. لكن أحدهم توقف الآن جانباً واتسعت عيناه.

صاح: «باسم دماء أسلافنا الأوائل! لا يوجد أحد أمام لوحات التحكم».

ويبدو أن الرجل الثاني اكتشف ذلك في الوقت نفسه؛ لأنه انكمش جانباً أيضاً. ومع دوران المروحة، انطلقت إلى الأعلى من حظيرة جد تجاناث الملكية.

غرق الحارسان في الدهشة لمجرد لحظة؛ حيث سمعت على الفور صراخ صفارات الإنذار ورنين الأجراس الكبيرة، ورأيت بلمحة خلفي أن طائرة انطلقت بالفعل لمطاردي. كانت طائرة تسع رجلين، وأدركت على الفور أنها أسرع من الطائرة التي اخترتها. ومما زاد من سوء الوضع، أنني رأيت زوارق الدورية ترتفع من حظائر الطائرات الموجودة في أماكن أخرى على سطح القصر. انضح أنها جميعاً رأت سفيتي وتسعى للاقتراب مني. يبدو الهروب مستحيلاً؛ ففي كل طريق أتجه إليه أجد زورق دورية يقترب. دفعوني بالفعل إلى دوامة تصاعدية، وتركزت عيناى بحثاً عن سبيل للهروب قد يفتح أمامي.

يا له من موقف يائس! سفيتي بطيئة للغاية؛ والمطاردون كثيرون جداً.

اعتقدت أن الأمر لن يطول، لكنني في تلك اللحظة تحديداً رأيت شيئاً أمام مقدمة سفيتي، على ارتفاع أكبر قليلاً، منحني أعظم إثارة شعرت بها من قبل في حياتي. كانت عيناً صغيرة مستديرة من الزجاج، لكنها تعني لي الحياة وأكثر من الحياة؛ لأنها قد تعني أيضاً الحياة والسعادة لتافيا- وطبعاً سانوما تورا.

كان أحد قوارب الدورية قادمة نحو في اتجاه قطري من أسفل، وعلى وشك أن مهاجمتي؛ على أنني وجهت طائرتي تحت العين

العائمة، مع حساب المسافة جيداً بحيث تمكنت من إيجاد مكان لرأسي تحت عارضة سفيتي التي تصورت أنني فقدتها. وبعد أن حددت موقع إحدى الكوات، التي كانت مُصممة بحيث تُفتح من الداخل أو الخارج، أسرع إلى داخل جهاما، كما أسماها فور تارك.

أغلقت الفتحة وتوجهت إلى لوحات التحكم، ثم ارتفعت بسرعة بعيداً عن الخطر المباشر. وقفت جانباً، لمشاهدة المطاردين السابقين.

قرأت الذعر في وجوههم عندما وصلوا إلى الطائرة الملكية التي كنت قد سرقتها، وأدركوا أنها بلا طيار. ولأنهم لم يروني ولم يروا سفيتي، كانوا في وضع صعب، ولا يجدون أي نوع من التفسير لهذه الظاهرة.

وجدت خلال مشاهدتي لهم أنني من الضروري أن أغير موقعي باستمرار، نظراً لعدد زوارق الدورية والطائرات الأخرى التي كانت تحتشد. لا أرغب في مغادرة المنطقة المجاورة للقصر؛ لأنني أعتزم البقاء هنا حتى حلول الظلام بحيث يمكنني محاولة أخذ تافيا وفاو على متن جهاما. كما كان في ذهني استطلاع البرج الشرقي خلال النهار، ومحاولة التواصل مع تافيا إن أمكن. كان الزود الخامس قد حل بالفعل، وسوف تغرب الشمس خلال خمسين زات (ثلاث ساعات).

وددت أن أشرع في خطة الإنقاذ بعد حلول الظلام مباشرة قدر الإمكان، فقد علمتني التجربة أن تنفيذ الخطط ليس بسلسلة التفكير فيها.

صعد محارب من إحدى سفن الدورية على متن الطائرة الملكية،

التي كنت قد سرقتها، وكان يُعيدها إلى الحظيرة. تبعته بعض السفن، وعادت السفن الأخرى إلى محطاتها. ظل قارب دورية واحد يتجول؛ وفجأة أدركت خلال مشاهدتي أن ضابطاً شاباً يقف على سطح القارب قد لمح عين منظاري. رأيته يشير نحوه، وبعدها مباشرة غير القارب مساره واتجه نحوي مباشرة. لم يكن هذا جيداً، ولم أضع أي وقت؛ انتقلت إلى جانب آخر وأدركت عين منظاري بعيداً عنهم حتى لا يتمكنوا من رؤيتي أو متابعتي.

تحركت لمسافة قصيرة بعيداً عن مسارهم، ثم أدركت منظاري نحوهم مرة أخرى. ولدهشتي اكتشفت أنهم أيضاً غيروا مسارهم ويتبعونني.

ارتفعت سريعاً الآن واتخذت اتجاهاً جديداً. وعندما نظرت ثانية وجدت الطائرة تلاحقني، ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل تصوب بندقية نحوي.

ماذا حدث؟ يبدو أن شيئاً ما خاطئاً قد حدث، وأن اختفائي لم يُعدّ تاماً. وأياً ما كان، فات أوان تدارك الأمر حتى إذا كان بإمكانني. ليس أمامي سوى ملاذ وحيد، وتوسلت إلى سلفي الأول ألا يكون الوقت قد فات لوضعه موضع التنفيذ. إذا أطلقوا عليّ النار، سأضيع.

أوقفت جهاما تماماً، وانطلقت بسرعة إلى مؤخرة السفينة، حيث توجد البندقية الخلفية مثبتة على منصة داخل برج قصير.

في تلك اللحظة، فرحت بالبصيرة التي دفعتني إلى إعادة ترتيب القذائف بشكل صحيح في حال ضرورة استخدامها الفوري في حالات

طارئة مثل هذه. اخترت قذيفة، ووضعتها في التجويف وأغلقت الحاجز خلفها.

استجاب البرج إلى لمستي، رغم بدائيته وتشبيده باستعجال؛ وبعد لحظة كانت نطاق رؤيتي يغطي سفينة الدورية المقتربة. وشاهدت من خلال الفتحة الصغيرة المخصصة للرؤية أثر أول طلقة أقذفها من بندقية فور تارك ذات الأشعة التفكيكية.

استخدمت قذيفة تفكيك المعادن، وكانت النتيجة مروعة.

أحب السفن، وتمزق قلبي لرؤية هذه الطائرة القوية تنهار في الجو مع اختفاء أجزائها المعدنية من جراء أشعة التفكيك.

وهذا ليس كل شيء؛ إذ عندما غرق الخشب والجلد والنسيج نحو الأرض بفعل زيادة السرعة، اندفع المحاربون الشجعان نحو الموت. كان الأمر مروعاً.

صحيح أنا ابن برسوم، وأسعد في المعارك، والنزاع المسلح من حقي، والحرب هدف طموحي، لكن هذه لم تكن حرباً؛ بل كانت قتلاً. لم أفرح بانتصاري كما فرحت عندما هزمت يو سينو في قتال مميت. وزاد تصميمي الآن، أكثر من أي وقت، على ضرورة حظر هذا السلاح التدميري المخيف إلى الأبد في برسوم. إنه لشيء رهيب التفكير في حرب باستخدام سلاح خفي تماماً بتركيبة الإخفاء. يمكن محو أساطيل ومدن وأمم كاملة في معركة واحدة باستخدام هذا السلاح. وأحلام فور تارك المجنونة قد تتحقق بسهولة، ويتمكن هذا المهووس من حُكم كل برسوم.

على أن الوقت غير مناسب الآن للتأمل والتفلسف؛ فأمامي عمل
يجب أن أنجزه. وعلى الرغم من أنه قد يقتضي إبادة تجاناث كلها، فقد
كنت مستعدًا للقيام بذلك.

انطلقت مرة أخرى صفارات وأجراس الإنذار؛ واحتشدت ثانية
زوارق الدورية. شعرت أنني يجب أن أغادر إلى أن يحل الظلام، حتى
لا أضطر ثانية إلى توجيه هذه البندقية المميتة ضد الرجال في ظل غياب
أي بديل آخر.

عندما بدأت العودة إلى لوحات التحكم، سقطت عيني مصادفة
على أحد المنافذ بمؤخرة السفينة، ولدهشتي رأيت بابه مرفوعًا. لا
أعرف كيف حدث هذا؛ ظل الأمر غامضًا، لكنني أدركت على الأقل
كيف تمكن قارب الدورية من متابعتي. من المؤكد أن الثقب المستدير
للمنفذ أثار استغرابهم وهو يتحرك في الهواء، لكنه كان في الوقت نفسه
سببًا يتبعونه. وعلى الرغم من عدم فهمهم له، فقد اتبعوه كأى محاربين
شجعان يؤدون واجبهم.

أسرعت بإغلاقه؛ وبعد أن فحصت الأبواب الأخرى ووجدتها
جميعًا مغلقة، تيقنت أنني غير مرئي تمامًا باستثناء عين منظاري
الصغيرة، ومن ثم لا توجد ضرورة فورية لمغادرة المنطقة المجاورة
للقصير، ويمكنني بسهولة إبقاء السفينة خارج مسار زوارق الدورية التي
تتجمع مرة أخرى بالقرب من الحظيرة الملكية.

أعتقد أنهم كانوا في ضيق شديد لما حدث، ومن الواضح أنه لا
يوجد بينهم توافق في الرأي بشأن ما ينبغي عمله. كانت سفينة الدورية

تحوم، ويبدو أنها تنتظر الأوامر، ولم تبدأ في البحث المنتظم فوق المدينة إلى بعد حلول الظلام؛ كما لم يمضِ وقت طويل قبل أن أفهم أوامرهم، كأنما قرأتها بنفسي. كانت السفن السفلية تطير على ارتفاع لا يزيد على خمسين قدمًا فوق المباني؛ وكان الصف الثاني يطير أعلاها بحوالي مائتي قدم. تحركت سفن كل مستوى في سلسلة من دوائر متحدة المركز وفي اتجاهين متعاكسين، وبالتالي أخذت تمشط الهواء فوق المدينة عن كثب بحيث لا تستطيع أي سفينة عدو من الاقتراب. كانت ألف عين تراقب الهواء أدناه؛ فعند كل نقطة مميزة، وقف الحراس للمراقبة، وظهرت بنادق - كأنما بفعل السحر - فوق أسطح جميع المباني العامة.

بدأت أتخوف تمامًا من إمكانية اكتشافهم حتى لعين منظاري الصغيرة، ولذا انخفضت قليلًا بسفينتي إلى فتحة بين بعض أشجار شاهقة تنمو داخل القصر والحديقة، وانتظرت على ارتفاع حوالي عشرين قدمًا فوق سطح الأرض، ومنظاري محجوب تمامًا وغير مرئي. وبالتالي، بقيت غير مرئي إلى أن هبط ليل برسوم على تيجانات؛ فارتفعت ببطء من ملاذي المحاط بأوراق الشجر.

توقفت أعلى الأشجار لإلقاء نظرة من خلال المنظار. على مسافة بعيدة في أعلى، تتلألأ أضواء زوارق الدورية المحلقة؛ ومن ألف نافذة في القصر تضيء أنوار أخرى. وترتفع أمامي ظلال الخطوط الداكنة للبرج الشرقي في مواجهة السماء المرصعة بالنجوم.

ارتفعت ببطء وحلقت فوق البرج إلى أن وصلت بالسفينة جهاما أمام نافذة تافيا.

سفيتي بلا أضواء، بطبيعة الحال، ولم أشعل أي أضواء داخل مقصورتها؛ ولذا شعرت أن بإمكانني فتح باب أحد الكوات العلوية بأمان، وهذا ما فعلته. تقع جهاما بسطحها العلوي على مسافة قدم أو قدمين تحت عتبة نافذة تافيا. وقبل أن أغامر، خلعت عباءة التخفي.

لا يوجد ضوء في غرفة تافيا. وضعت أذني بالقرب من القضبان الحديدية لأستمع. غرق قلبي داخلي. هل نقلوها إلى جزء آخر من القصر؟ هل جاء هاج ألت وأخذها؟ ارتجفت لمجرد الفكرة، ولعنت الحظ الذي أتاح له تجنب نصلي.

مع كل تلك الأعين والأذان التي تجتهد خلال الظلام، خشيت إصدار أذن صوت، مع أنني شعرت أن احتمالات مشاهدة الكوة المفتوحة ضئيل في الظلام المحيط؛ لكنني يجب أن أتأكد من وجود تافيا أو عدم وجودها داخل تلك الغرفة. انحنيت بالقرب من القضبان، وهمست اسمها. لا توجد أي استجابة.

«تافيا!»، همست بصوت أعلى هذه المرة، وبدأ لي أن صوتي يدوي نحو السماء العالية بنبرات يمكن أن يسمعها الموتى.

سمعت ردًا الآن من داخل الغرفة، يبدو كلهات، ثم سمعت شخصًا يتحرك - يقترب من النافذة. الظلام حالك في الداخل لا يتيح رؤية أي شيء، لكنني أسمع الآن صوتًا بالقرب مني.

«هادرين! أين أنت؟».

لقد تعرفت على صوتي. ولسبب ما أسعدني ذلك للغاية. قلت: «أنا

هنا، عند النافذة، تافيا».

اقتربت أكثر، وسألتني: «أين؟ لا أستطيع رؤيتك».

نسيت رداء التخفي. قلت: «لا يهم. لا يمكنك مشاهدتي، وسوف أشرح ذلك لاحقًا. هل فاو معك؟».

«نعم».

«هل معكما أي شخص آخر؟».

«كلا».

«سوف آخذك معي، تافيا أنتِ وفاو. يجب أن تقفا جانبًا، بعيدًا عن النافذة، حتى لا يصيبكما أي ضرر خلال إزالتي للقضبان. وبعد ذلك، استعدا للصعود على متن سفيتني فورًا».

قالت: «سفيتتك! أين هي؟».

«لا تهتمي الآن. توجد هنا سفينة. عليك فقط أن تفعلني ما أقوله لك. هل تثقين بي؟».

همست: «بحياتي، هادرون، إلى الأبد».

غنى شيء في داخلي. كان أكثر من مجرد التشويق؛ لا يمكنني شرحه؛ ولا أفهمه، لكنني أفكر الآن في أشياء أخرى.

«قفي جانبًا بسرعة، تافيا، وأخبري فاو أن تبتعد عن النافذة حتى أنادي عليكما مرة أخرى. بالكاد ما أمكنني رؤيتها للحظة، ثم رأيتهما تبتعد عن النافذة. عدت إلى لوحات التحكم، وأحضرت البرج الأمامي للسفينة أمام النافذة، وصوبت البندقية نحو القضبان. حشوتها ثم ضغط

على الزر. لم أتمكن من مشاهدة النتيجة خلال فتحه الرؤية الصغيرة وبسبب الظلام، لكنني كنت أعرف تمامًا ما حدث. انخفضت بالسفينة مرة أخرى، وذهبت إلى سطحها لأجد أن القضبان قد اختفت تمامًا. قلت: «أسرعي، تافيا. هيا!».

اقتربت من جدار البرج، مع أحد أقدامي على سطح السفينة والأخرى على عتبة النافذة، وبقدر استطاعتي وضعت عباءة التخفي على الفتاتين كمظلة لحمايتهن من الانكشاف خلال صعودهن على متن جهاما.

كان عملاً شاقاً ومحفوفاً بالمخاطر. تمنيت لو كان لديّ خطافات، لكنها لم تكن موجودة، ولذا يجب أن أتصرف بأفضل ما يمكنني. أمسكت العباءة بيد، وساعدت تافيا باليد الأخرى لتصعد إلى عتبة النافذة.

«لا توجد سفينة»، قالت بلهجة خائفة قليلاً.

قلت: «هناك سفينة، تافيا. لا تفكري سوى في أنكِ تثقين بي وافعلي ما أطلبه». أمسكت بها بحزم من أحزمة عتاها على ظهرها. قلت: «لا تخافي»، ثم جذبتها خلال الكوة وأنزلتها بلطف إلى داخل جهاما.

كانت فاو خلفها، ويجب أن أفخر بأنها كانت بمثل شجاعة تافيا. لا بد أنها كانت تجربة مرعبة للفتاتين، أن تشعرا بإنزالهما في الهواء على مسافة مائة قدم فوق سطح الأرض، دون أن يشاهدا أي سفينة - بل مجرد حفرة قاتمة في ظلام الليل.

وبمجرد صعودهما على متن سفيتي، تبعتهما وأغلقت الكوة خلفي.

جلسن في الظلام على أرضية المقصورة، ضعيفتين ومنهكتين من هذه المحنة القصيرة التي مررن بها للتو. على أنني لم أستطع أخذ الوقت الكافي للإجابة على التساؤلات التي أعرف أنها تملأ رأسيهما. إذا نجحنا في تجاوز المراقبين على الأسطح وزوارق الدورية في أعلى، سيكون لدينا متسع من الوقت للأسئلة والإجابة. وإذا لم ننجح، فلن توجد حاجة إلى ذلك.



الفصل (١٣)

نساء تول أكستار

تحر كنا ببطء وصمت من البرج، ومراوح سفينتنا تمنحنا ما يكفي فقط لتقدمنا. لم أجرؤ على الارتفاع إلى مستوى الطائرات المحلقة خشية اصطدام حتمي، نظرًا لمحدودية نطاق الرؤية الذي يتيح المنظار. ولذا اتخذت مدارًا لسفينتي فوق سطح الجزء السفلي من القصر حتى وصلت إلى شارع واسع يقود في اتجاه الشرق إلى جدار المدينة الخارجي. حافظت على ارتفاعي أسفل أسطح المباني، تجنبًا لأي احتمال ضئيل لمواجهة طائرة أخرى. أصبح خطر اكتشافنا الوحيد الآن، وإن كان احتمالًا ضئيلًا، يتمثل في أن يسمع المراقبون على الأسطح صوت مروحتنا؛ على أن همهمة وأزيز مراوح السفن فوق المدينة تفوق أي صوت طفيف لريشات مروحتنا التي تدور ببطء. وصلنا أخيرًا إلى البوابة في نهاية الشارع، فارتفعت فوق أسوارها، وخرجنا من تجانث إلى ظلام الليل. وأخذت أضواء المدينة وزوارق الدوريات المحلقة تخفت تدريجيًا ونحن نبتعد عنها ونتركها خلفنا.

حافظنا على صمت مطلق خلال فرارنا من المدينة. وما إن تأكدنا من نجاح هروبنا، حتى فتحت تافيا أبواب فيضان فضولها. كان سؤال فاو الأول يتعلق بنور آن. تنهدت في ارتياح يؤكد حبها له بمثل ما يمكن أن تؤكد الكلمات. استمعت الفتاتان باهتمام مبهور إلى قصة معجزة هروبنا من 'الهلاك'. ثم رغبنا في معرفة كل شيء عن جهاما، وتركيبه التخفي، وأشعة التفكيك التي أذابت القضبان من نافذة سجنهما. ولم نبدأ في مناقشة خططنا التالية إلا بعد إشباع فضولهما.

قلت: «أشعر أنني يجب أن أذهب في الحال إلى جاهاار».

«نعم»، قالت تافيا بصوت منخفض، «هذا واجبك. عليك أن تذهب أولاً إلى هناك لإنقاذ سانوما تورا».

«لو هناك مكان حيث يمكنني أن أتركك أنت وفاو بأمان، لكنك شعرت أن بإمكانني مواصلة مهمتي بقدر كبير من راحة البال؛ لكني لا أعرف أي مكان آخر غير جهاما، وأتردد في العودة إلى هناك حتى لا يعرف فور تاك أنني لم أذهب إلى جاهاار مباشرة كما نويت. والرجل مجنون تماماً. يصعب التنبؤ بما يمكن أن يفعله إذا عرف الحقيقة؛ كما أنني لست على يقين أنكما ستنعمان بالأمان هناك تحت سلطته. فهو لا يثق إلا في عبيده، وقد تتملكه بسهولة هلاوس أنكما جاسوسيتين».

قالت تافيا: «أنت لا تحتاج إلى التفكير فيّ على الإطلاق؛ وحتى إذا وجدت مكاناً لنا، أنا لن أمكث فيه. مكان الأمة هو أنها مع سيدها».

«لا تقولي ذلك، تافيا. أنت لست أمتي».

أجابت: «أنا أمة. يجب أن أكون أمة لشخص ما، وأفضل أن يكون أنت».

لمسني ولاؤها، لكني لا أحب التفكير في تافيا كأمة؛ على أنها، ورغم كراهيتي للفكرة، كانت أمة. قلت: «أعطيك حريتك، تافيا».

ابتسمت. «أنا لا أريدها؛ والآن وبعد أن تقرر أنني سأبقى معك قامت باتخاذ جميع القرارات)، أود أن أعرف كل ما يمكنني عن الحركة في جهاما، فقد أستطيع مساعدتك بهذه الطريقة».

معرفة تافيا بالملاحة الجوية جعلت مهمة تعليمها بسيطة؛ ولم يكن لديها في الواقع أي مشكلة على الإطلاق في التعامل مع هذه الطائرة.

أبدت فاو اهتمامًا أيضًا، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تأخذ دورها أمام لوحات التحكم؛ بينما أصرت تافيا على التعرف على جميع أسرار بندقية أشعة التفكيك.

قبل أن نشاهد أبراج عاصمة تول أكستار بفترة طويلة، رأينا طائرة تسع رجل واحد مطلية باللون الأزرق المروع في جاها، ثم رأينا على بعد يمينًا ويسارًا طائرات أخرى. كانت تحلق ببطء على ارتفاع كبير. كان تقديري أنها طائرات استطلاعية لمراقبة قدوم أي أسطول لعدو متوقع. طرنا تحتها، ثم شاهدنا لاحقًا الصف الثاني من سفن العدو. كانت جميعها زوارق استطلاع، تحمل كل منها ما يتراوح بين عشرة إلى خمسة عشر رجلًا. اقتربت من إحداها، ورأيت أنها محملة بأربع بنادق أشعة التفكيك: اثنتان في الأمام واثنتان في الخلف. وبقدر ما يمكنني الرؤية في أي من الاتجاهين، كانت هذه السفن واضحة. وإذا كانت

تُشكل، كما افترضت، دائرة حول جاهر بالكامل، فلا بد أنها عديدة.

وبعد أن تجاوزنا هذه المجموعة، شاهدنا الآن الصف الثالث من السفن الجاهارية. هنا تتمركز سفن حربية ضخمة، تحمل أطقماً من ألف رجل وأكثر، ومحملة إلى حد ما ببنادق كبيرة.

وفي حين لم يكن أي من هذه السفن يمثل ضخامة السفن الكبرى في هيليوم، فقد كانت تُشكل قوة هائلة ومن الواضح أن عددها كبير.

ما رأيته قد أثار إعجابي بالفعل، من زاوية أن تفكير تول أكوستار لإخضاع كل برسوم ليس حلاً خاملاً. وبجزء صغير من السفن التي رأيتهما فعلاً، أضمن أنه سوف يحول برسوم كلها إلى خراب، علاوة على أن سفنه مسلحة ببنادق أشعة التفكيك؛ وشعرت عن يقين أنني لم أشهد سوى جزء ضئيل من التسليح الهائل لدى تول أكوستار.

ملأني مشهد كل هذه السفن بنذير مباشر للكارثة. إذا لم يكن أسطول هيليوم قد وصل ودُمّر بالفعل، فبالأكيد سوف يُدمّر عند وصوله. ما من قوة على الأرض يمكنها إنقاذه. أفضل ما يمكنني أن أتمناه، إذا كان الأسطول قد وصل فعلاً، هو أن يكون لقاءه مع الصف الأول من بنادق أشعة التفكيك بمثابة تحذير كافٍ ليتراجع الجزء الباقي من الأسطول.

رأيت وراء صف السفن الحربية أبراج جاهر ترتفع على مسافة. وعندما وصلنا إلى المناطق المحيطة بالمدينة، لمحت أسطولا من سفن أكبر مما رأيته من قبل على الإطلاق، يستقر على الأرض خارج سور المدينة. لا بد أن هذه السفن، التي تطوق سور المدينة تماماً، قادرة

على استيعاب ما لا يقل عن عشرة آلاف رجل. ومن بنيتها وأسلحتها الخفيفة، افترضت أنها وسائل نقل. لا شك أنها هي التي سوف تحمل جحافل محاربي جاهاار الجياع عند التخطيط لأي حملة نهب وسلب بعد تدمير أي عالم.

دفعني تأمل هذا الأسطول الهائل إلى التخلي عن جميع الخطط الأخرى والإسراع في الحال إلى هيليوم، لنشر التحذير ووضع الخطط لإحباط طموحات تول أكستار المجنونة. كان عقلي مشتعلًا من المطالب المتضاربة. لقد خاطرت بحياتي لمرات لا تُحصى للوصول إلى جاهاار لتحقيق هدف واحد؛ والآن بعد أن وصلت، مطلوب مني أن أعود لإنجاز هدف آخر - هدف أكبر، وربما أكثر أهمية، لكنني مجرد إنسان. ولذا، استدرت كي أنقذ أولاً المرأة التي أحبها، ثم أكرس نفسي فورًا بكل إخلاص لمتابعة المغامرة الأخرى التي يتطلبها واجبي ونزوعي. جادلت نفسي أن أقل تأخير ينتج عن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى تهديد قضية أكبر؛ بينما إن تخليت الآن عن سانوما تورا، فمن الأقل ترجيحًا أن أتمكن على الإطلاق من العودة إلى جاهاار لإنقاذها.

كنا فوق جدران المدينة، وخلفنا أسطول ضخّم مطلي باللون الأزرق المروع الي يميز جاهاار. تحركنا في اتجاه قصر الجيداك.

وضعت خططي بشكل جيد. وناقشتها مرارًا وتكرارًا مع تافيا، التي ترعرعت في قصر تول أكستار.

وبناء على اقتراحها، سوف نظير بجهما إلى نقطة تقع مباشرة فوق قمة برج نحيل، لا توجد عليه مساحة لهبوط الطائرة، وإنما يمكنني

الدخول من خلاله إلى القصر عند نقطة قريبة من مساكن النساء.

ونظرًا لأننا اجتزنا الصفوف الثلاثة من سفن جاهار، تحت حماية طلاء تركيبة التخفي، فقد نجحنا في المرور عبر حراس سور المدينة، وعبر المحاربين الذين يتولون مراقبة الأبراج، وفوق متاريس قصر الأبراج، وفوق متاريس قصر الجيداك. ودون وقوع أي حادث جدير بالملاحظة، أوقفت جهاما فوق قمة البرج مباشرة الذي أشارت إليه تافيا.

قلت لتافيا: «سيحل الظلام خلال عشرة زات (حوالي ثلاثين دقيقة). فإذا وجدت من غير المناسب الاستمرار في البقاء هنا، يمكنك التحرك والعودة عند هبوط الظلام، فبغض النظر عن نجاحي في العثور على سانوما تورا، لن أحاول العودة إلى جهاما إلى أن يهبط الليل».

قالت لي إن مساكن النساء يُحتمل أن تكون مغلقة عند غروب الشمس، ولهذا السبب سأدخل القصر الصيفي في ضوء النهار، على الرغم من أنني كنت أفضل عدم المخاطرة إلى أن يهبط الليل. كما أكدت لي تافيا أيضًا أنني بمجرد دخولي مساكن النساء، لن أجد أي صعوبة في مغادرتها حتى بعد إغلاقها؛ حيث يمكن فتح الأبواب من الداخل؛ لأن احتياطات التأمين لا تُتخذ خوفًا من مغادرة النزيلات للسكن، وإنما لحمايةهن من أخطار القتلة وغيرهم الذين يقصدون الشر.

قمت بضبط رداء عباءة التخفي حولي، ورفعت كوة العارضة الأمامية، وهي تقع مباشرة فوق قمة البرج الذي كان يُستخدم يومًا ما كنقطة مراقبة في عصر قديم قبل أن تجعله الأجزاء الأحدث والأعلى

من القصر عديم الفائدة في هذا الغرض.

همست تافيا: «وداعاً، وحظاً سعيداً. أتمنى عند عودتك أن تكون معك سانوما تورا. وفي أثناء غيابك، سوف أدعو أسلافي أن تنجح في مهمتك».

شكرتها، ثم نزلت من خلال الكوة إلى قمة البرج، حيث يوجد باب مسحور صغير.

فتحت هذا الباب، ورأيت أدناي قمة سلم قديم كان يستخدمه المحاربون الذين قُتلوا منذ زمن بعيد، ومن الواضح أنه الآن نادراً ما يُستخدم، إن استُخدم أصلاً، ويشهد على ذلك التراب الذي يغطي درجاته. نزلت السلم وقادني إلى غرفة كبيرة في المستوى العلوي من هذا الجزء من القصر - غرفة كانت في الأصل، دون شك، غرفة للحرس، لكنها وعاء الآن لبقايا غريبة متنوعة من مهملات تضم الأثاث والستائر والزينات. امتلأت الغرفة بعينات من منتجات الحرف الجاهارية القديمة، إلى جانب بنود حديثة الصنع نسبياً. يا لها من غرفة، لكان من المثير اكتشافها؛ على أنني مررت خلالها باحثاً بلمحة واحدة عن أعداء أحياء. اتباعاً لتعليمات تافيا، نزلت سلمين حلزونيين، حيث وجدت نفسي في رواق مزين بالنقوش، ويفتح على شقق نساء تول أكستار. كان الرواق طويلاً، يمتد لمسافة ألف سوفاد إلى نافذة كبيرة مقوسة في أقصى نهايته، رأيت من خلالها أوراق الشجر مرفرفة.

تصطف على جانبي الممر العديد من الأبواب التي لا حصر لها مفتوحة أو مواربة؛ ذلك أن الممر نفسه كان محظوراً على الجميع إلا

النساء وعبيدهم، باستثناء تول أكستار. أما السلم الوحيد الذي يؤدي إليه من المستوى الأدنى، فكان تحت حراسة رجال مُختارين، من الخصيان على وجه الحصر. وأكدت لي تافيا أن أي روح مغامرة تسعى إلى استكشاف تلك المناطق العلوية، تتعرض لضرورة تقديم اعتراف قصير بالإثم. بيد أنني هنا، رجل وعدو، أتحرك بأمان داخل المنطقة المحظورة.

عندما نظرت حولي في محاولة لتحديد من أين أشرع في بحثي، خرجت العديد من النساء من إحدى الشقق واقتربن مني على طول الممر. نساء جميلات وشابات ويرتدين أغطية ثرية، لكنني أدركت من حواراتهن الخفيفة وضحكاتهن أنهن لسن تعيسات. شعرت بوخز الضمير لإدراكي تلك الفرصة الوضيعة التي حصلت عليها لرؤيتهن، ولكنني لا أقدر على تجنبها، ولذا انتظرت واستمعت على أمل أن أنتزع من بعض أحاديثهن ما يساعدني في بحثي عن سانوما تورا؛ لكنني لم أعرف خلالهن أي شيء سوى أنهن يتحدثن عن تول أكستار باحتقار ويشرن إليه بوصفه الزيتيدار العجوز. وكانت بعض إشاراتهم إليه شخصية للغاية ولم تتضمن أيُّ منها مدحًا.

تجاوزتني النساء، ودخلن غرفة كبيرة في نهاية الممر. وخرجت بعد ذلك مباشرة نساء أخريات من الشقق الأخرى، وذهبن إلى الشقة نفسها التي دخلت فيها المجموعة الأولى.

سرعان ما أدركت أنهن يتجمعن هناك، ورأيت أنها ربما أفضل طريقة لبدء بحثي عن سانوما تورا - ربما أجدها بين المتجمعات أيضًا.

وعلى ذلك، سرت خلف إحدى المجموعات، وتبعتهن خلال المدخل الكبير ثم إلى ممر قصير يفتح على قاعة كبيرة رائعة التجهيز والزينة على نحو يوحي أنها قاعة عرش الجيداك. وقد اتضح، في واقع الأمر، أن هذا جزء من غرضها، حيث ارتفع في أحد أطرافها عرش هائل ومنحوت بدرجة كبيرة.

كانت أرضيتها من خشب مصقول جيداً، يقع في منتصفه حوض كبير للمياه. امتدت على طول جانبي الغرفة مقاعد واسعة ومريحة، مكدسة بالوسائد والحرير الناعم والفراء. هنا كان تول أكستار يعقد أحياناً جلسات فريدة، ولا تحيط به سوى النساء. وهنا يرقصن له؛ وهنا يلقين بأنفسهن في مياه الحوض الشفافة لتسليته؛ وهنا تمتد الولايم والموسيقى الصاخبة لفترة طويلة ليلاً.

بحثت حولي في النساء اللاتي تجتمعن بالفعل ولم أجد سانوما تورا بينهن، فاتخذت مكاناً بالقرب من المدخل حتى يمكنني التدقيق في وجه كل امرأة تدخل.

تأتي النساء الآن بأعداد كبيرة. وأعتقد أنني لم أشهد أبداً من قبل هذا العدد من النساء متجمعات. حاولت خلال بحثي عن سانوما تورا أن أحصي عدد النساء، لكنني سرعان ما فقدت الأمل. مع ذلك، وعندما انتهى دخولهن، كان تقديري أن عددهن وصل إلى ألف وخمسمائة امرأة محتشدات في القاعة الكبيرة.

جلست النساء على المقاعد المتناثرة حول الغرفة التي امتلأت بخليط من الأصوات النسائية. هناك نساء من جميع الأعمار ومن كل

نوع، ولا توجد بينهن امرأة غير جميلة. لا بد أن عملاء تول أكستار السريين قاموا بتمشيط العالم للحصول على مثل هذا التجمع من الجمال.

فُتح باب عند أحد جانبي العرش ودخل طابور من المحاربين. اندهشت في البداية لأن تافيا قد أخبرتني أنه غير مسموح لأي رجل، غير تول أكستار، أن يصل إلى هذا الطابق؛ لكنني رأيت الآن أن هؤلاء المحاربين هم نساء يرتدين عتاد الرجال، وشعرهن قصير، ووجوههن مطلية على نمط مقاتلي برسوم. وبعد أن اتخذن أماكنهن على جانبي العرش، دخل أحد الحاشية من الباب نفسه - وكان امرأة أخرى تتنكر في زي رجل.

صاحت: «قدموا الشكر! قدموا الشكر! الجيداك قادم!».

ونفضت النساء على الفور، وبعد لحظة دخل تول أكستار، جيداك جاهار، إلى القاعة، وخلفه مجموعة من النساء متنكرات في زي رجال الحاشية.

بعد أن جلس تول أكستار بحجمه الضخم على العرش، أوماً إلى النساء في الغرفة كي يجلسن، ثم تحدث بصوت منخفض إلى المرأة التي تقوم بدور أحد الحاشية إلى جانبه.

خطت المرأة إلى حافة المنصة، وأعلنت بلهجة رسمية: «يعتزم الجيداك العظيم تكريمكن منفردات بناء على مشاهدته الملكية. سوف تسيرون على يساري أمامه، واحدة تلو الأخرى. لقد تحدثت، باسم الجيداك».

نهضت على الفور أول امرأة في اليسار وسارت ببطء أمام العرش. توقفت أمام تول أكستار لفترة كافية، ثم أدارت نفسها دورة كاملة، وبعدها سارت ببطء في أنحاء الشقة وخرجت من المدخل الذي كنت أقف بجواره. تبعثها النساء الأخريات، واحدة تلو الأخرى، في تعاقب سريع. لم يكن لهذا الإجراء بأكمله أي معنى بالنسبة لي. لم أفهمه عندئذ.

مرت ربما مائة امرأة أمام الجيداك، ثم تحركن على طول القاعة نحوي عندما جذب انتباهي شيء في إحداهن وهي تقترب مني، وخلال لحظة تعرفت فيها على سانوما تورا. لقد تغيرت، وإن لم يكن كثيرًا، ولذا أدركت سبب عدم اكتشافني لوجودها في الغرفة من قبل. لقد وجدتها! بعد كل هذه الأشهر الطوال، وجدتُها - وجدت المرأة التي أحبها. لماذا لا يشعر قلبي بأي انفعال؟

خرجت من مدخل القاعة الكبيرة، وسرت خلفها على طول الممر إلى شقة بالقرب من نهايته، وعندما دخلت، دخلت وراءها. لا بد أن أتحرك بسرعة أيضًا؛ لأنها استدارت على الفور وأغلقت الباب خلفها. كنا وحدنا في غرفة صغيرة، أنا وسانوما تورا. يوجد حرير وفراء النوم في أحد الأركان؛ ويوجد بين نافذتين طاولة منحوتة، فوقها أدوات التزين الضرورية لأي امرأة في بر سوم.

لم تكن شقة جيدارة؛ بل كانت غرفة أفضل قليلًا من زنزانة أمة. سارت سانوما تورا في الغرفة بفتور نحو مقعد أمام طاولة الزينة وظهرها نحوي. أزلت رداء التخفي عني.

وقلت بصوت منخفض: «سانوما تورا!».

ذهلت، والتفتت نحوي. صاحت: «هادران الهاستوري! أم أنني أحلم؟».

«أنتِ لا تحلمين، سانوما تورا. إنه هادران الهاستوري».

«لماذا أنت هنا؟ وكيف وصلت إلى هنا؟ هذا مستحيل. غير مسموح لأي رجل، باستثناء تول أكستار، أن يوجد في هذا الطابق».

«أنا هنا، سانوما تورا، وقد جئت لأعيدك إلى هيليوم - إن كنتِ ترغبين في العودة».

صاحت: «أوه، باسم سلفي الأول، ليت بإمكانني أن أمل في ذلك».

طمأنتها قائلاً: «يمكنك أن تأملي، سانوما تورا. أنا هنا، ويمكنني أن أعود بك».

قالت: «لا أستطيع أن أصدق. لا أستطيع أن أتخيل كيف أمكنك الدخول هنا. ومن الجنون التفكير في أن بإمكاننا نحن الاثنين أن نغادر دون أن نكتشفونا».

ألقيت العباءة حولي. صاحت سانوما تورا: «أين أنت، هادران الهاستوري؟ ماذا حل بك؟ ما الذي حدث؟».

أوضحت لها: «هذا كيف تمكنت من الدخول، وكيف سنلوذ بالفرار؟ ثم أزلت العباءة عني».

قالت: «ما هذا السحر المُحرّم؟»؛ فشرحت لها بأفضل ما أمكنني في كلمات قليلة تركيبة التخفي وكيف استخدمتها في الوصول إلى هنا.

وسألتها: «كيف حالك هنا، سانوما تورا؟ وكيف يعاملونك؟».

فأجابت: «لم أتعرض لسوء المعاملة، لا يهتم بي أحد هنا». شعرت في لهجتها بغرورها المبرح. أضافت: «لم أكن قد رأيت تول أكستار حتى هذه الليلة. لقد عدت تورا من القاعة التي يجلس فيها بين نساءه».

قلت: «نعم، أعرف. فقد كنت هناك، وتبعتك إلى هنا».

سألتني: «متى يمكنك أن تأخذني؟».

أجبتها: «بأسرع ما يمكن الآن».

فقلت: «أخشى أن علينا التحرك بأقصى سرعة».

سألتها: «لماذا؟».

«عندما مشيت أمام تول أكستار، أوقفني للحظة وسمعته يتحدث إلى أحد الحاشية بجانبه. طلب منها أن تتأكد من اسمي ومكان سكني. وأخبرتني النساء ما يحدث بعد أن يضع تول أكستار عينه على واحدة منا، وأنا خائفة؛ ولكن ما الفرق، فأنا مجرد أمة».

يا له من تغيير طرأ على سانوما تورا المتعجرفة! هل هي تلك الجميلة المتغترسة نفسها التي رفضت يدي؟ هل هي سانوما تورا التي كانت تطمح أن تكون جدارة؟ لقد أصبحت ذليلة الآن - قرأت ذلك في تدلي كتفيها، في رجفة شفيتها، في الضوء الذي يغلفه الخوف وهو يشرق من عينيها.

امتلاً قلبي بالشفقة نحوها، على أن عدم إحساسي بأي شعور آخر هو ما أدهشني وأفرعني. ففي آخر مرة رأيت فيها سانوما تورا، كنت

مستعدًا أن أمنح روعي لأتمكن من ضمها بين ذراعي. هل غيرتني المصاعب التي خضتها؟ هل لا أرغب في سانوما تورا العبدة بمثل ما كنت أرغب في سانوما تورا الثرية ابنة تور هاتان؟ كلا؛ أعرف أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا. لكنني تغيرت، ومما لا شك فيه أنه مجرد تغيير مؤقت ناجم عن الضغط العصبي الذي أعانيه بسبب المسؤولية الملقاة على عاتقي والتي فرضتها ضرورة إيصال كلمة إلى هيليوم في الوقت المناسب لإنقاذها من التدمير على يد تول أكستار - ليس لإنقاذ هيليوم وحدها، بل عالم بأكمله. يالها من مسؤولية جسيمة. كيف يمكن لشخص مثقل بهذه الهموم أن يجد وقتًا للتفكير في الحب؟ لا، أنا لست نفسي؛ وأعرف أنني ما زلت أحب سانوما تورا.

ومع إدراكي ضرورة الإسراع، فحصت الغرفة سريعًا واكتشفت إمكانية إنقاذ سانوما تورا بسهولة من خلال النافذة، تمامًا كما أخرجت تافيا وفاو من البرج الشرقي في تجاناث.

شرحت لها خطتي بإيجاز، وإن كان بعناية، وطلبت منها الاستعداد خلال ذهابي؛ حيث لا يمكننا أن نتأخر عند عودتي لاصطحابها إلى متن جهاما.

قلت: «والآن، سانوما تورا، وداعًا لبضع لحظات! وسوف تسمعين صوتًا عند نافذتك، لكنك لن تري أي شخص أو أي سفينة. وعندئذ عليك إطفاء النور في غرفتك والصعود إلى عتبة النافذة. سوف أمسك بيدك. ضعي ثقتك فيّ، ثم افعلي ما أطلبه منك».

وقالت «وداعًا، هادرون! لا أجد الآن كلمات كافية للتعبير عما

أشعر به من امتنان، لكن سأمنحك عند عودتنا إلى هيليوم، ليس فقط عن طيب خاطر وإنما بكل سرور، أي شيء يمكن أن تطلبه مني».

رفعت أصابعها إلى شفتي ثم استدرت نحو الباب، عندما وضعت سانوما تورا يدها على ذراعي لتوقفني، وقالت: «انتظر! هناك شخص قادم».

وضعت عباءة التخفي على عجل وخطوت إلى أحد جوانب الغرفة. كان الباب المؤدي إلى الممر مفتوحًا، وكشف عن امرأة من حاشية تول أكستار ترتدي عتاد رائع. دخلت المرأة الغرفة وخطت إلى أحد جوانب المدخل الذي لا يزال مفتوحًا.

وأعلنت: «الجيداك! تول أكستار، جيداك جاهار!».

وفي لحظة دخل تول أكستار الغرفة، متبوعًا بنصف دزينة نساء من حاشيته. كان رجلًا فظًا وملامحة غليظة تعكس مزيجًا من القوة والضعف، من الغطرسة والعجرفة، من الفخر والشك - شك فطري في قدراته.

وقفت حاشيته النسائية خلفه عندما أصبح في مواجهة سانوما تورا. كان مظهر نساء حاشيته ذكوريًا، ويبدو أن هذا هو سبب اختيارهن. كان مظهرهن جيدًا، من زاوية ذكورية، كما أظهرت بنيتهن الجسدية أنهن يتسمن بالفاعلية كحارسات شخصيات للجيداك.

ظل تول أكستار يتفحص بعينه سانوما تورا لعدة دقائق. اقترب منها، وكان في طريقته ما لم يعجبني. وبالكاد ما تمكنت من كبح جماح

نفسى عندما وضع يده على كتفها.

قال: «لم أكن مخطئًا. أنتِ رائعة. منذ متى وأنتِ هنا؟».

ارتجفت، لكنها لم ترد.

«أنتِ من هيليوم؟».

ما من إجابة.

ضحك قائلاً: «سفن هيليوم في طريقها إلى جاهر. أخبرني طائراتي الاستطلاعية أنهم سرعان ما يصلون هنا. سوف يلقون ترحيبًا حارًا من الأسطول العظيم لدى تول أكستار»، ثم التفت إلى حاشيته وقال: «اذهبن! ولا ترجع أيُّ منكن إلا عندما استدعيها».

انحنين، ثم خرجن وأغلقتن الباب خلفهن. وضع تول أكستار يده مرة أخرى على كتف سانوما تورا العاري.

وقال: «تعالَي! أنا لن أخوض حربًا ضد هيليوم كلها - معك، سوف أمارس الحب. باسم سلفي الأول، أنتِ جديرة بحب الجيداك».

سحبها نحوه. كان دمي يغلي - وكان غضبي حارًا إلى حد الغليان بحيث تركت عباءتي تسقط عني دون تفكير في العواقب.



الفصل (١٤)

أكلة لحوم البشر في يوجور

عندما تركت عباءة التخفي تسقط بجانبني، امتشقت سيفي الطويل؛ وسمع تول أكستار صوت سحبه من غمده، فالتفت وواجهني. ولما رأي، اندفع دمه الجبان إلى قلبه، وترك وجهه شاحبًا. كاد أن يصرخ، لكنني لمست رقبته بسيفي مُنذرًا.

قلت هامسًا: «صمتًا!».

سألني: «مَن أنت؟».

«صمتًا!».

وضعت خططي في لحظة. جعلته يستدير بحيث يصبح ظهره نحوي وجردته من سلاحه، ثم قمت بتقييده بحزم وتكميمه.

سألتها: «أين يمكنني أن أخفيه، سانوما تورا؟».

قالت: «توجد هناك خزانة صغيرة»، وأشارت إلى باب صغير في أحد جوانب الغرفة، ثم توجهت نحوها وفتحتها، بينما قمت بسحب

تول أكستار خلفها وألقيته في الخزانة - وليس بلطف شديد، يمكنني أن أوكد لك.

أغلقت باب الخزانة والتفت لأجد سانوما تورا بيضاء وترتعش. وقالت: «أنا خائفة. إذا عادت النساء ووجدنه هكذا، سوف يقتلنني». قلت لتذكيرها: «حاشيته لن تعود إلى أنه يستدعيهن. لقد سمعته يقول لهن إن هذه رغبته - بل أوامره». أومات.

قلت لها: «هذا خنجره. إذا حدث شيء سيئ يمكنك صددهم بالتهديد بقتل تول أكستار»؛ لكن الفتاة بدا عليها الهلع وارتعشت جميع أطرافها. وكنت أخشى من أن تفشل إذا اضطرت إلى التصرف. لكم تمنيت أن تكون تافيا هنا. أعرف أنها لن تفشل؛ وباسم سلفي الأولى، يتوقف الكثير على النجاح!

«سأعود بسرعة»، قلت وأنا أضع عباءة التخفي، «اتركي هذه النافذة الكبيرة مفتوحة، وكوني مستعدة عندما أعود».

للفت العباءة حولي. رأيته ترتجف إلى حد أنها لم تتمكن من الرد. كانت تواجه في الواقع صعوبة في الإمساك بالخنجر، الذي توقعت للحظة أن أراه يسقط من أصابعها الواهنة؛ ولكن، ليس أمامي أي شيء يمكنني أن أفعله سوى الإسراع إلى جهاما ومحاولة العودة قبل فوات الأوان.

وصلت إلى قمة البرج دون وقوع أي حادث. تتلأأ فوق نجوم

ليل برسوم الرائعة، بينما يقع فوق القصر مباشرة كوكب رائع، كوكب جاسوم (أي كوكب الأرض).

كانت السفينة جهاما غير مرئية، بطبيعة الحال؛ لكن ثقتي في تافيا كانت كبيرة، بحيث عندما تمتد يدي إلى أعلى، أعرف أنني سأشعر بعارضة السفينة، وقد فعلت ذلك بكل ثقة. طرقت بلطف ثلاث مرات على الكوة الأمامية- وهي الإشارة التي اتفقنا عليها قبل قد دخولي القصر. فُتحت الكوة على الفور، وفي لحظة صعدت على متن السفينة. سألتني تافيا: «أين سانوما تورا؟».

فقلت: «لا أسئلة الآن. علينا أن نعمل بسرعة. كوني مستعدة لتولي مسؤولية لوحات التحكم بمجرد أن أتركهم».

اتخذت مكانها في صمت بجواري، لمس كتفها الناعم ذراعي؛ وبصمت هبطت بالسفينة جهاما إلى مستوى النوافذ في مساكن النساء. كنت أعرف بشكل عام موقع شقة سانوما تورا، وتحركت ببطء مع توجيه المنظار نحو النوافذ. رأيت الآن هيئة سانوما تورا على الزجاج الأرضي أمامي. اقتربت بالسفينة جهاما إلى حافة النافذة، بحيث سطحها العلوي أسفل الحافة مباشرة.

قلت: «قفي بالسفينة هنا، تافيا»، ثم فتحت الكوة العلوية بضع بوصات، وناديت على الفتاة داخل الغرفة.

ارتعدت عندما سمعت صوتي إلى حد أن الخنجر كاد أن يسقط من يدها، على الرغم من أنها كانت تعرف أنني قادم وأنها في انتظاري.

همست لها: «أغلقي ضوء غرفتك». رأيته تسير مرتبكة نحو زر في الجدار، وفي الحال كان الظلام يلف الغرفة. فتحت الكوة وخطوت إلى عتبة النافذة. لم أرغب في أن تزعجني طيات عباءة التخفي، ولذا طويتها ووضعتها في عتادي بحيث تكون جاهزة للاستخدام على الفور عند حدوث أي طارئ. وجدت سانوما تورا في الظلام، وكانت ضعيفة لشعورها بالرعب إلى حد أنني اضطررت إلى حملها بين ذراعيّ إلى النافذة؛ وتمكنت بمساعدة فاو من سحبها خلال الكوة المفتوحة إلى الداخل. وبعد ذلك عدت إلى الخزانة التي تركنا فيها تول أكستار مقيداً ومكمماً. توقفت، وقطعت القيود المحيطة بكاحليه.

قلت له: «عليك أن تفعل بالدقة ما أقوله لك، تول أكستار، وإلا سيجد سيفي طريقه إلى قلبك؛ إنه عطش لدمك، تول أكستار، وأجد صعوبة في كبح جماحه؛ فإذا لم تخذلني، ربما أتمكن من الإبقاء على حياتك. يمكنني استخدامك، تول أكستار، حياتك تتوقف على فائدتك بالنسبة لي؛ لأن موتك ليس له أي قيمة عندي».

جعلته ينهض ويسير إلى النافذة، وهناك ساعدته على الصعود إلى عتبة النافذة. كان مذعوراً عندما حاولت أن أجعله يخرج إلى الفضاء، كما كان يعتقد؛ لكنه عندما شاهدني أصعد إلى سطح السفينة جهما أمامه وأني أبدو عائماً في الهواء، تشجع قليلاً، ونجحت أخيراً في الحصول عليه على متن السفينة.

أغلقت الكوة خلفه، وأضأت نوراً خافتاً داخل هيكل السفينة. استدارت تافيا نحوي انتظاراً لأوامري.

قلت لها: «احتفظي بالسفينة حيث هي، تافيا».

يوجد مكتب صغير في مقصورة جهاما، من المفترض أن يحتفظ فيه ضابط السفينة بسجله، ويهتم بأي سجلات أو تقارير أخرى من الضروري إعدادها. هنا توجد مواد للكتابة، أخرجتها من الدرج واستدعيت فاو لتأتي إلى جانبي.

قلت لها: «أنت من جاهار. هل يمكنك الكتابة بلغة بلدك؟».

أجابت: «بالطبع».

فقلت لها: «اكتبي إذن ما أملكه عليك».

استعدت لتنفيذ تعليماتي.

أملت عليها ما يلي: «إذا تم تدمير سفينة واحدة من هيليوم، سوف يموت تول أكستار. والآن ضعي التوقيع: هادرون الهاستوري، بادوار من هيليوم».

نظرت تافيا وفاو نحوي ثم إلى السجين، واتسعت أعينهم في دهشة لأنهما لم يتعرفا على السجين في ضوء السفينة الداخلي الخافت.

شهقت تافيا غير مُصدقة: «تول أكستار من جاهار! تان هادرون الهاستوري، لقد أنقذت هيليوم ورسوم الليلة».

لاحظت سرعة بديتها، وكيف أدركت على الفور الاحتمالات التي تقع في حوزة شخص تول أكستار، جيداك جاهار.

أخذت الرسالة التي كتبها فاو، وعُدت بسرعة إلى غرفة سانوما تورا ووضعت الرسالة على طاولة ملابسها. وفي لحظات كنت في

كابينة جهاما ثانية، وأسرعنا في الارتفاع فوق أسطح جاهاار.

وجدنا الصباح خارج أبعد صف من سفن جاهاار، التي مررنا تحتها واسترشدنا بأضوائها - اتضح لي ضعف ضباط الأسطول؛ فأني رجل مُدرب، يتوقع عدوًّا مسلحًا، لن يضيء الأنوار على متن سفينته ليلاً. نسرع الآن في اتجاه هيليوم، متبعين المسار الذي آمل أن يتيح لنا اعتراض أسطول أمير الحرب، في حال كان متجهًا بالفعل إلى جاهاار كما أعلن تول أكستار.

بدأت سانوما تورا تستعيد اتزانها وسيطرتها على أعصابها. لمستني بعمق الرعاية اللطيفة التي أحاطتها بها تافيا. لقد تمكنت من تهدئتها وتسكينها مثلما يمكن أن تفعل لشقيقة أصغر سنًا، على الرغم من تافيا نفسها كانت أصغر سنًا من سانوما تورا. بيد أن الغطسة القديمة عادت إلى سانوما تورا مع استعادتها الثقة، ولم تُظهر سوى امتنان محدود لتافيا ورعايتها لها. لكنني أدركت أن هذه هي طريقة سانوما تورا، التي وُلدت بها، ولا شك أنها تكن في أعماق قلبها تقديرًا وامتنانًا. على أي حال، يجب أن أعترف أنني تمنيت أن تُظهر ذلك مع الوقت بكلمة بسيطة أو موقف بسيط. طرنا بسلاسة، أعلى قليلًا من الارتفاع المعتاد للسفن الحربية. وكانت بوصلة التحكم في الاتجاه توجه مسار جهاما؛ وبعد كل ما مررت به، شعرت بالحاجة إلى النوم. نالت فاو قسطًا من الراحة في وقت سابق من الليل بناء على اقتراحي؛ ونظرًا لأن كل المطلوب كان الحفاظ على مراقبة دقيقة للسفن، فقد عهدت بهذه المهمة إلى فاو، وذهبت أنا وتافيا إلى حرير وفراء النوم، وسرعان ما نمنا.

كنت وتافيا في منتصف السفينة تقريباً، وكانت فاو في المقدمة عند لوحات التحكم وتُحرك المنظار جيئةً وذهاباً باستمرار بحثاً عن أي سفن في السماء. وعندما ذهبت للراحة، كانت سانوما تورا تقف عند أحد منافذ الميمنة تنظر خلال الليل، بينما يرقد تول أكستار في مؤخرة السفينة. كنت قد أزلت الكمامة عن فمه منذ فترة طويلة، لكنه كان يبدو مرتعباً تماماً حتى للتحدث معنا، ورقد هناك في صمت عابس، أو ربما كان نائماً، لا أعرف.

كنت شديد الإرهاق، ولا بد أنني نمت تماماً بمجرد أن استلقيت، إلى أن أيقظني فجأة تأثير جسم فوقى. وعندما كافحت لتحرير نفسي، غضبت لاكتشافى أن يدي قُيدتا بمهارة خلال نومي، وهو العمل الذي أمكن إنجازَه بسهولة لأن من عادتي أن أنام ويدي أمام وجهي.

كانت ركبة رجل على صدري، وتضغط عليّ بشدة، وتُمسك إحدى يديه برقبتي. رأيت في ضوء المقصورة الخافت أنه تول أكستار وأنه يمسك بخنجر في يده الأخرى.

همس قائلاً: «صمتاً! إذا أردت أن تعيش، لا تُصدر أي صوت»، ثم لزيادة التأكيد قام بتكميمي وتقييدي من الكاحلين. أسرع بعد ذلك إلى تافيا وقيدها، وخلال قيامه بذلك تحركت عيني بسرعة نحو المقصورة بحثاً عن مساعدة. رأيت فاو على الأرض بالقرب من لوحات التحكم، مُقيدة ومكمنة مثلي. أما سانوما تورا، فقد زحفت نحو الجدار وتبدو مرتعبة. لكنها لم تكن مُقيدة أو مُكمنة، لماذا لم تحذرني؟ لماذا لم تأت لمساعدتي؟ لو كانت تافيا هي التي ظلت دون قيود، وليس سانوما تورا،

لكانت نتيجة محاولة تول أكستار للحرية والانتقام قد اختلفت .

كيف حدث كل ذلك؟ كنت على يقين أنني قيدت تول أكستار بقوة بحيث لا يتمكن من تحرير نفسه، وإنما لا بد أنني أخطأت، ولعنت نفسي للإهمال الذي قلب كل خططي، والذي يمكن أن يسفر بسهولة في النهاية عن فناء هيليوم.

بعد أن انتهى تول أكستار مني ومن فاو وتافيا، انطلق نحو لوحات التحكم، متجاهلاً سانوما تورا وهو يمر بجوارها. ونظرًا للرعب الواضح الذي أظهرته، يمكنني أن أفهم بسهولة لماذا لم يعتبرها تهديدًا لخططه - كانت غير مؤذية له سواء حرة أو مقيدة.

أدار تول أكستار السفينة إلى الخلف في اتجاه جاها ر. وعلى الرغم من أنه لم يفهم آلية بوصلة التحكم في الاتجاه ولم يستطع إيقافها، فلم يحدث ذلك أي فارق ما دام ظل عند لوحات التحكم؛ والتأثير الوحيد على البوصلة لإعادة السفينة إلى مسارها هو التخلي عن لوحات التحكم خلال حركة السفينة.

التفت الآن نحوي وقال: «كان يجب أن أدمرك، هادرون الهاستوري، لو لم أكن أعطيتك كلمة جيداك أنني لن أفعل».

تساءلت متعجبًا لمن أعطى كلمته أنه لن يقتلني، لكن ذهني كان مزدحمًا بأفكار أخرى أكثر أهمية بحيث أزاح كل شيء آخر إلى الخلفية. وكانت على قمة هذه الأفكار بطبيعة الحال، خطط استعادة السيطرة على جهاما، ثم مخاوفي بشأن مصير تافيا وسانوما تورا وفاو.

واصل كلامه قائلاً: «عليك تقديم الشكر لشهامة تول أكستار، الذي لم يفرض عقوبة على إهانتك له. وبدلاً من العقوبة، سوف أطلق سراحكم»، ثم ضحك وقال: «الحرية! سوف أهبط بكم في إقليم يوجور!».

كان هناك شيء بغيض في نبرة صوته، جعلت الوعد أشبه بتهديد. لم أسمع من قبل عن يوجور، لكنني أعرف مدى صعوبة أو استحالة شق الطريق عبر بعض الأقاليم النائية إلى جاهاً أو هيلوم. كنت واثقاً من شيء واحد- أن تول أكستار لن يطلق سراحني في أي مكان يمكنني خلاله أن أشكل تهديداً له.

تحركت جهاماً في صمت لساعات. لم يكن تول أكستار يتمتع باللياقة أو الإنسانية ليزيل كماماتنا. كان منشغلاً بلوحات التحكم؛ أما سانوما تورا، التي كانت جاثمة على جانب المقصورة، فلم تتحدث على الإطلاق، ولم تدر عينيها ناحيتي أبداً ولا حتى لمرة واحدة. تُرى ما الأفكار التي كانت تدور في ذلك الرأس الجميل؟ هل كانت تحاول وضع خطة تمكنها من قلب المائدة ضد تول أكستار، أم كانت مجرد منسحقة أمام توقعات يائسة- احتمال إعادتها إلى العبودية في جاهاً؟ لا أعرف، ولا يمكنني التخمين؛ كانت لغزاً بالنسبة لي.

لم أعرف المسافة التي قطعناها، ولا في أي اتجاه. انتهى الليل منذ فترة طويلة وارتفعت الشمس عالياً عندما أدركت أن تول أكستار يهبط بالسفينة. توقف الآن صوت المحرك، وتوقفت السفينة. ترك تول أكستار لوحات التحكم وسار إلى حيث أرقد.

وقال: «لقد وصلنا إلى يوجور. وهنا سوف أطلق سراحك، ولكن عليك أن تعطيني أولاً الشيء الغريب الذي جعلك غير مرئي في قصري».

عبادة التخفي! كيف عرف بها؟ من الذي أخبره؟ لا يوجد سوى تفسير واحد، لكن كل خلية في كياني انكششت حتى من مجرد التفكير في هذا التفسير. كنت قد طويت العبادة إلى كرة صغيرة وحشرتها في قاع جيب حقيتي؛ إذ يتيح حريرها الشفاف إمكانية ضغطها إلى حجم متناه الصغر. أزال الكمامة عن فمي.

قلت له: «عندما تعود إلى قصرك في جاهار، ابحث على الأرض أسفل نافذة الشقة التي كانت تشغلها سانوما تورا. وقد يمكنك العثور عليها هناك. وفي ما يخصني، فقد حققت أغرضها جيداً».

سألني: «ولماذا تركتها هناك؟».

«كنت في عجلة من أمري عندما تركت القصر، وقد تقع أحداث».

أعترف أن هذه الكذبة لم تكن ذكية، لكن تول أكستار لم يكن ذكياً أيضاً وقد انطلت عليه.

فتح متدمراً إحدى الكوات بعارضة السفينة وألقاني منها بفجاجة. ومن حسن الحظ أن السفينة كانت قريبة من الأرض، فلم أعرض للضرر. وبعد ذلك، أنزل تافيا إلى جانبي ثم نزل هو نفسه إلى الأرض. انحنى، وقطع الأربطة التي تُقيد معصمي تافيا.

وقال: «سأحتفظ بالأخرى. فهي لطيفة». عرفت أنه يقصد فاو، ثم

أضاف: «أما هذه، فهي تشبه الرجال؛ وأقسم أن إخضاعها يماثل إخضاع البانث. أنا أعرف هذا النوع. وسوف أتركها معك». كان من الواضح أنه لم يتعرف على تافيا كإحدى النساء اللاتي شغلن سابقاً مساكن النساء في قصره، وهو ما أسعدني.

دخل جهاما مرة أخرى، لكنه تحدث معنا ثانية قبل أن يغلق الكوة: «سوف أُلقي لك أسلحتك، عندما نصل إلى حيث لا يمكنك استخدامها ضدي؛ ويمكنك أن تشكر جدارة جاهار المستقبلية على رأفتي بك!». ارتفعت جهاما ببطء. أزال تافيا الحبال التي تُقيد كاحليها، ثم انحنى وأخذت تعمل على إزالة قيودي. كنت في حالة شديدة من الذهول، مسحوقاً بصدمة إدراكي أن سانوما تورا، المرأة التي أحببتها، قد خانتني. لقد أدركت تماماً الآن ما كان يمكن أن يخمنه أي شخص، إلا إن كان غيباً - أن تول أكستار قدم لها رشوة على شكل وعد بأن تُطلق سراحه في مقابل أن يجعلها جدارة جاهار.

حسناً، سوف يتحقق حلمها؛ وإنما بتكلفة بشعة. وإذا عاشت لألف عام، لن تنظر إلى نفسها أو موقفها إلا بكل ازدراء واشمئزاز، ما لم يكن انحطاطها أكثر كثيراً مما يمكنني تصوره. كلا؛ سوف تعاني، أنا على يقين من أنها ستعاني؛ لكن هذه الفكرة لم تسعدني. لقد أحببتها، ولا أتمنى لها التعاسة حتى بعد ما فعلته.

جلست على الأرض ورأسي ينحني في بؤس. شعرت بذراع ناعم يربت على كتفي، وبصوت رقيق يتحدث بالقرب من أذني: «هادرون المسكين!».

هذا كل ما قالته؛ على أن هذه الكلمات القليلة جسدت ثروة من التعاطف والتفهم خففت، كالبلسم المعجزة، من ألم قلبي المُعذَّب.

ما من شخص يقول هذه الكلمات سوى تافيا. استدرت وأخذت إحدى يديها الصغيرتين في يدي، ووضعتها على شفتي. وقلت: «صديقة حميمة. أشكر جميع أسلافي أنكِ لستِ مَن فعل ذلك».

لا أعرف ما الذي جعلني أقول ذلك. بدت الكلمات تخرج بمفردها دون تعمد؛ وعندما قيلت، أدركت على نحو مفاجئ مدى ما كنت لأشعر به من رعب إن كانت تافيا هي التي خاننتي. لا يمكنني حتى التفكير في ذلك دون الشعور بعذاب أليم. اندفعت لأضمها بين ذراعي.

بكيت: «تافيا، أعطني وعدًا أنك لن تهجريني أبدًا. لا يمكنني أن أعيش من دونك».

وضعت ذراعيها القويتين الشابتين حول عنقي وتشبث بي. همست: «ليس هذا الجانب من الموت على الإطلاق»، ثم جذبت نفسها بعيدًا عني، ورأيت أنها كانت تبكي.

يا لها من صديقة! كنت أعرف أنني لن أستطيع أن أحب امرأة مرة أخرى، لكنني كنت مهتمًا بإمكانية الاحتفاظ بصداقة تافيا إلى الأبد.

قلت: «لن نفترق ثانية أبدًا، تافيا. إذا كان أسلافنا كرماء معنا، وسمحوا لنا بالعودة إلى هيليوم، سوف تجددين بيت والدي بمثابة بيتك ووالدتي بمثابة والدتك».

جففت عينيها، ونظرت نحوي بتعبير حزين غريب لم أفهمه، ثم

ابتسمت من خلال دموعها - تلك الابتسامة الصغيرة الغريبة والساخرة التي رأيته من قبل ولم أعد أفهمها أكثر مما أفهم عشرات من حالاتها المزاجية وتعبيراتها التي جعلتها تختلف كثيرًا عن سائر الفتيات، كما أعتقد أنها أسهمت في انجذابي نحوها. لا تظهر صفاتها المميزة على السطح - بل هناك أعماق واتجاهات خفية لا يمكن فهمها بسهولة. ففي بعض الأحيان عندما أتوقع منها أن تبكي، أجدها تضحك؛ وعندما أعتقد أنها سعيدة، أجدها تبكي؛ لكنها لم تبك أبدًا مثلما تبكي النساء الأخريات - لم تبك أبدًا بشكل هستيري؛ ذلك أن تافيا لم تفقد أبدًا سيطرتها على نفسها، وإنما تبكي بهدوء من كل قلبها وليس بأعصاب مشدودة، وقد تتفجر ابتسامة خلال دموعها في النهاية.

أعتقد أن تافيا كانت أروع فتاة عرفتني على الإطلاق. ومع زيادة معرفتي بها ورؤيتي لها، أدركت أنها برغم تمسكها بمحاولة التكرار كرجل، فقد كانت بالفعل أجمل فتاة رأيته على الإطلاق. لم يكن جمالها مثل جمال سانوما تورا؛ لكنها وهي تنظر إلى وجهي الآن، تبادر إلى ذهني إدراك فجأة -ولسبب لا أعرفه- أن جمال تافيا يتجاوز كثيرًا جمال سانوما تورا، وذلك بسبب جمال الروح الذي يشرق خلال عينيها، ويغير ملامحها بالكامل.

كان تول أكستار وفتيًا بوعده، وألقى أسلحتنا من خلال الكوة السفلية في جهاما. وخلال التقاطنا للأسلحة، استمعنا إلى صوت مراوح الطائرة يتناقص بسرعة خلال مغادرتها. كنا بمفردنا، نتحرك سيرًا على الأقدام في بلد غريب ودون شك غير مضياف.

قلت: «يوجور! لم أسمع بها من قبل. هل سمعت عنها، تافيا؟».

قالت: «نعم. إنها أحد الأقاليم النائية في جاهاار. كانت في يوم ما بلدًا زراعيًا يتمتع بالثراء والازدهار، لكنها سقطت تحت لعنة طموحات تول أكستار المجنونة حول القوى العاملة، فزاد عدد سكانها بنسبة هائلة إلى حد أن أصبحت معه يوجور غير قادرة على إعاشة شعبها. ثم بدأ أكل لحوم البشر. بدأ، على نحو يمكن تبريره، بأكل المسؤولين الذين أرسلهم تول أكستار لتنفيذ قراراته القاسية. أرسل جيشًا لإخضاع الإقليم، لكن أعداد الناس كانت غفيرة إلى درجة أنهم هزموا الجيش وأكلوا المحاربين. وفي ذلك الوقت، كان الخراب قد نال من مزارعهم. لم يكن لديهم أي بذور، كما أصبحوا يتذوقون اللحم البشري. أما من كانوا يرغبون في فلاحه الأرض، فقد هاجمتهم عصابات الرجال المتجولين والتهمتهم. وظلوا لمائة عام يقتاتون على بعضهم بعضًا، بحيث لم تعد يوجور الآن مقاطعة مكتظة بالسكان وإنما أرضًا قاحلة تسكنها عصابات متجولة تأكل بعضها البعض».

ارتبخت من سردها. وأصبح واضحًا أن علينا الفرار من هذا المكان اللعين بأسرع ما يمكن. سألت تافيا إن كانت تعرف موقع يوجور، وأخبرتني أنها تقع جنوب شرق جاهاار على بعد يصل إلى حوالي ألف هاد، وتبعد بحوالي ألفي هاد جنوب غرب زاناتور.

رأيت أنه من العبث محاولة الوصول إلى هيليوم من هنا. فهي رحلة قد تستغرق سنوات سيرًا على الأقدام، إن أمكن إنجازها على الإطلاق. وأقرب مدينة ودية يمكننا التوجه إليها هي جاثول، وتقع حسب تقديري

على بُعد حوالي سبعة آلاف هاد شمالاً. بدت إمكانية الوصول إلى جاثول بعيدة المنال، لكنها أملنا الوحيد. وهكذا، اتجهنا نحو الشمال وشرعنا في رحلتنا الطويلة اليائسة نحو المدينة التي شهدت مولد أمي.

كان البلد المحيط بنا متدرجاً، تتناثر خلاله تلال منخفضة؛ بينما رأيت على بُعد في اتجاه الشمال الخطوط العريضة لتلال أعلى في مواجهة الأفق. كانت الأرض عارية تماماً إلا من الأعشاب الضارة، بما يشهد على المعركة الشنيعة التي يخوضها شعبها التعيس من أجل البقاء. لا توجد زواحف، ولا حشرات ولا طيور- فقد تم التهامهم جميعاً خلال قرن البؤس هذا الذي ساد على أراضيها.

ومع سيرنا المتناقل خلال هذه النفايات المقفرة الكثيبة، حاولنا الحفاظ على روحنا المعنوية بأفضل ما نستطيع؛ ولأكثر من مائة مرة كانت لديّ أسباب للشكر؛ لأن تافيا هي رفيقتي وليس غيرها.

ماذا كنت لأفعل في مثل الظروف إن كنت مثقلاً بعبء سانوما تورا؟ أشك أنها كانت لتسير ١٢ هاد، بينما تتمايل تافيا إلى جوارِي وهي مفعمة بنعمة الصحة والقوة. يتطلب تحمل هذه المسيرة رجلاً جيداً، لكن تافيا لم تتخلف أبداً؛ كما لا تظهر عليها علامات الإرهاق أسرع مني.

قلت: «نحن نكمل بعضنا البعض جيداً، تافيا».

قالت بهدوء: «لقد فكرت في ذلك منذ فترة طويلة».

واصلنا طريقنا حتى الغسق تقريباً دون أن نرى علامة على أي شيء

حي، وهنأنا أنفسنا على حسن حظنا عندما نظرت تافيا إلى الوراء، كما يفعل أحدنا كل فترة.

لمست ذراعي وأومأت نحو الخلف، وقالت ببساطة: «إنهم قادمون!».

نظرة إلى الوراء، ورأيت ثلاثة أشكال تسير على دربنا. كانوا على مسافة بعيدة جدًا لم تتح لي أن أتمكن من تحديد أنهم بشر. من الواضح أنهم شاهدونا، وأخذوا يهرولون نحونا.

سألني تافيا: «ماذا نفعل؟ هل نقف ونقاتل، أم نحاول التملص منهم حتى هبوط الليل؟».

قلت: «لا هذا ولا ذاك. سوف نراوغهم الآن دون أن نجهد أنفسنا». تساءلت: «كيف؟».

«من خلال عبقرية اختراع فور تاك، وتركيبية التخفي التي سرقتها منه».

صاحت تافيا: «رائع! لقد نسيت عباءتك. مع العباءة، لن نجد صعوبة في التملص من جميع المخاطر خلال المسافة بيننا وبين جاثول».

فتحت جيب حقيتي وأدخلت يدي لسحب العباءة. لكنها اختفت! كما اختفت أيضًا القنينة التي تحتوي على ما تبقى من التركيبة. نظرت إلى تافيا، ولا بد أنها قرأت الحقيقة في تعبيرات وجهي. سألتني: «هل فقدتها؟».

أجبت: «كلا، لقد سُْرِقت مني».

اقتربت ثانية ووضعت يدها على ذراعي في تعاطف، وكنت أعرف أنها كانت تفكر في ما أفكر فيه؛ أن سانوما تورا هي التي سرقتها. ترددت قبل أن أقول: «وأنا الذي عرضت سلامتك للخطر، تافيا، لإنقاذ امرأة مثلها».

قالت: «لا تتعجل في الحكم عليها. نحن لا نعرف كيف تم إغراؤها، أو ما التهديدات التي استخدمت لحرفها عن طريق الشرف. ربما هي ليست قوية مثلنا».

قلت: «فلنكفَّ عن الحديث عنها. إنه إحساس بشع، تافيا، أن تشعري بتحول الحب إلى كراهية».

ضغطت على ذراعي، وقالت: «الزمن يشفي من جميع الآلام، وسوف تجد في يوم ما امرأة جديرة بك، إن كانت توجد مثل هذه المرأة».

نظرت إلى وجهها. فكرت في عبارتها: «إن كانت توجد مثل هذه المرأة»، غير أنها قاطعت تأملاتي بسؤال.

سألتني: «هل نقاتل أم نهرب، هادرون الهاستوري؟».

قلت: «أنا أفضل القتال والموت، لكنني يجب أن أفكر فيك، تافيا».

قالت: «إذن سوف نبقي ونحارب؛ ولكن، هادرون، يجب ألا تموت». لم أغفل عن نبرة لوم في صوتها، وشعرت بالخجل من نفسي لئسباني أنني أدين لصداقتها بالكثير.

فقلت: «أنا آسف، تافيا، لا يمكن أن أرغب في الموت وأنتِ على قيد الحياة».

قالت: «هذا أفضل. كيف نحارب؟ هل أقف على يمينك أم على يسارك؟».

قلت لها: «سوف تقفين خلفي، تافيا. عندما تحمل يدي سيفًا، لن تحتاجي إلى دفاع آخر».

قالت: «منذ فترة طويلة، بعد أن التقينا للمرة الأولى، قلت لي إننا يجب أن نصبح رفاق سلاح. وهذا يعني أن نقاتل معًا، كتحفًا بكتف، أو ظهرًا بظهر. هذه كلماتك، تان هادرون الهاستوري».

ابتسمتُ. وعلى الرغم من شعوري بأن قتالي بمفردي أفضل من قتالي وامرأة إلى جانبي، فقد كنت معجبًا بشجاعته. قلت: «جيد جدًا؛ قاتلي على يميني، وبالتالي تكوينين بين سيفين».

اقتربت المخلوقات الثلاثة على مسارنا، وتبينت الآن نوعهم. رأيت أمامي أشخاصًا متوحشين، بشعر متشابك أشعث، وأجسام قذرة، ووجوه حقيرة. ينطلق من أعينهم ضوء وحشي، وتكشف شفاههم المزمجرة عن أنياب صفراء، وتتسم هيئتهم بالانحناء؛ ما أعطاهم مظهر الحيوانات البرية أكثر من مظهر الرجال.

كانوا مسلحين بسيوف يحملونها في أيديهم، بلا عتاد أو غمد. توقفوا على مسافة قصيرة منا وهم ينظرون إلينا في جوع؛ فمما لا شك فيه أنهم جوعى، حيث توحى بطونهم المترهلة أنها فارغة غالبًا، ثم

تمتلئ عندما يعثرون على قدر كافٍ من اللحم. يأمل هؤلاء الثلاثة في ملء بطونهم هذه الليلة؛ وهو ما رأيته بوضوح في أعينهم. تهامسوا معاً بصوت خفيض لبضع دقائق، ثم تفرقوا للهجوم علينا من نقاط مختلفة في وقت واحد.

همست: «سوف نقل المعركة إليهم، تافيا. عندما يتخذون مواقعهم حولنا، سأطلق كلمتي، وعندها سوف أندفع نحو الشخص الذي يقف أمامي وأحاول قتله قبل أن يتمكن الآخرون من الهجوم علينا. يجب أن تبقي على مقربة مني، حتى لا يتمكنوا من عزلك».

فقلت: «كتفًا بكتف حتى النهاية».



الفصل (١٥)

معركة جاهار

ألقيت نظرة خاطفة من فوق كتفي، رأيت أن الاثنين اللذين يتحركان خلفنا لا يزالان بعيدين عنا أكثر من ذلك الذي يقف في مواجهتنا. ومع إدراكي أن عدم توقعهم لتصرفنا سوف يعزز فرص النجاح، فقد أطلقت كلمتي.

همست: «الآن، تافيا»، وقفزنا معًا إلى الأمام في خط مستقيم نحو الرجل المتوحش العاري الذي يواجهنا.

كان واضحًا أنه لم يتوقع هذا التصرف، كما كان من الواضح أيضًا أنه وحش بطيء البديهة؛ لأنه عندما شاهدنا قادمين، تدلى فكه السفلي وظل واقفًا في انتظارنا؛ بينما إذا كان يتمتع بأي قدر من الذكاء، لكان تراجع ليمنح زملاءه الوقت اللازم للهجوم علينا من الخلف.

تقاطعت سيوفنا، وسمعت هديرًا وحشيًا من الخلف يماثل الهدير الذي يصدره حيوان وحشي. رأيت من زاوية عيني تافيا تنظر إلى الوراء. وقبل أن أدرك ما تنوي القيام به، وجدتها تنطلق إلى الأمام وتغمد سيفها

في جسم رجل أمامي وهو يندفع نحوي بسلاحه. والآن، ركضنا معًا وواجهنا الاثنين الآخرين اللذين كانا يسرعان نحونا. ويمكنني أن أؤكد لك أنني شعرت بارتياح لا حدود له عندما أدركت أن الاحتمالات لم تعد ضدنا بدرجة كبيرة.

عندما اشتبك معنا الرجلان، كان يعوقني في البداية ضرورة إبقاء عيني دائمًا على تافيا، لكن ذلك لم يستمر لفترة طويلة.

أدركت بعد لحظة أن يدًا خبيرة تسيطر ببراعة على هذا السيف. كان سيفها يتحرك جيئةً وذهابًا في جسم هذا المتوحش الأخرق، وكنت أعرف أن هذه اليد الصغيرة التي تمسك بمقبض السيف سوف تنهي حياته، وخمنت أنه أحس بذلك. وعندئذ ركزت انتباهي على خصمي.

لم يكونا أفضل مبارزين قابلتهما، لكنهما ليسا مبارزين سيئين. بيد أن دفاعهما كان يتفوق على هجومهما، ويرجع ذلك في اعتقادي إلى شيئين: الجبن الطبيعي، وأنهم يصطادون عادة في مجموعات يتجاوز عددها بكثير أعداد الطرائد. وبالتالي كان المطلوب هو مجرد دفاع جيد؛ لأن ضربة الموت ربما تأتي دائمًا من الخلف، من زميل الشخص الذي يشتبك مع الطريدة من الأمام.

لم يحدث من قبل أن رأيت امرأة تقاتل، وربما تصورت أنني سأشعر بالغم إن قاتلت امرأة بجانبني؛ لكنني شعرت بتشويق غريب يرجع جزئيًا إلى الفخر، وجزئيًا إلى شيء آخر لم أتمكن من تحليله.

أعتقد أن الزميل الذي يواجه تافيا لم يدرك في البداية أنها امرأة، لكنه سرعان ما أدرك ذلك؛ لأن عتاد برسوم الضئيل لا يخفي الكثير، وبالتأكيد

لا يخفي معالم جسم تافيا الأنثوي. وربما بالتالي كانت هزيمته مفاجأة، أو ربما عندما اكتشف أنها امرأة أصبحت ثقته مفرطة. على أي حال، أغمدت تافيا سيفها في قلبه قبل أن أجهز على خصمي بلحظة.

لا يمكنني القول أننا سعدنا كثيرًا بانتصارنا. شعر كلانا بالشفقة تجاه تلك المخلوقات المسكينة، التي انحدرت إلى هذه الحالة الفظيعة نتيجة طغيان تول أكستار القاسي؛ وإنما كنا في موقف إما حياتهم وإما حياتنا، ونحن سعداء أنها لم تكن حياتنا.

ألقيت نظرة سريعة حولنا، على سبيل الاحتياط، عندما سقط آخر خصومنا. وكان هذا من حسن الحظ؛ لأنني لمحت فورًا ثلاثة مخلوقات رابضة فوق قمة تلة منخفضة ليست على مسافة بعيدة.

قلت: «لم تنتهِ بعد، تافيا. انظري!»، وأشارت في اتجاه الثلاثة.

فقلت: «ربما لا يرغبون في تقاسم مصير زملائهم، فهم لا يقتربون».

قلت: «يمكنهم أن ينعموا بالسلام إن أرادوا، بقدر ما يتعلق الأمر بي. هيا، فلنذهب. إذا تبعونا، لدينا وقت كافٍ للنظر في أمرهم».

مشينا في اتجاه الشمال، وكنا ننظر خلفنا بين الفينة والأخرى. شاهدنا الآن هؤلاء الثلاثة ينهضون وينزلون من التل ويتجهون نحو جثث زملائهم القتلى. وعندئذ رأينا أنهم نساء، وغير مُسلحات.

عندما أدركن أننا نرحل وليست لدينا نية لمهاجمتهن، أخذن يطلقن صيحات غريبة بصوت عالٍ ويركضن بجنون نحو الجثث.

قالت تافيا بأسى: «يا له من وضع يثير الشفقة. حتى هذه المخلوقات المتدهورة المسكينة تمتلك مشاعر بشرية. يشعرون أيضاً بالحزن على فقدان الأحباء».

قلت: «نعم. كائنات مسكينة، أشعر نحوهن بالأسى».

وخشية أن يحاولن، في جنون حزنهن، الانتقام لأقرانهم الذين سقطوا، واصلنا مراقبتهن عن كثب، ولذا شهدنا تمة النزاع المروعة. وكنت أتمنى ألا نشهدها.

عندما وصلت النساء الثلاث إلى الجثث، ألقين أنفسهن عليها؛ ولكن ليس بالبكاء والرثاء - وإنما لالتهامهم.

شعرنا بالغثيان، فاستدردنا، ومشينا سريعاً في اتجاه الشمال لفترة طويلة إلى أن هبط الظلام.

شعرنا بأن خطر الهجوم يقل خلال الليل، نظراً لعدم وجود حيوانات متوحشة في هذا البلد الذي ليس لديه ما يقدمه لدعم حياتهم؛ كما كان من المعقول أيضاً أن نفترض أن الصيادين يفضلون الخروج نهاراً وليس ليلاً؛ لأنهم في الليل أقل قدرة على إيجاد الطرائد أو متابعتها.

اقترحت على تافيا أن نأخذ قسطاً من الراحة لفترة قصيرة، ثم نواصل لما تبقى الليل ونعثر على مكان للاختباء في النهار ونظل فيه إلى هبوط الليل ثانية، فقد كنت على يقين أن هذه الخطة تتيح لنا أفضل استغلال للوقت وتقلل معاناتنا من الإرهاق عن طريق مواصلة رحلتنا خلال ساعات الظلام الباردة، كما تقلل في الوقت نفسه بدرجة كبير من

خطر اكتشافنا والهجوم علينا من أي سكان عدائين يقطنون في المنطقة الواقعة بيننا وبين جاثول.

وافقت تافيا، وبالتالي أخذنا فترة راحة قصيرة، مع التناوب في النوم والمراقبة.

واصلنا مسيرتنا بعد ذلك، وأنا على يقين أننا قطعنا مسافة كبيرة قبل الفجر، على الرغم من أن التلال المرتفعة في اتجاه الشمال لا تزال تبدو بعيدة بمثل ما كانت في اليوم السابق.

شرعنا الآن في البحث عن مكان مريح للاختباء لقضاء ساعات النهار. لم يُعانِ كلانا بأي قدر من الجوع أو العطش، بمثل ما كان يمكن أن يشعر به القدماء في مثل هذه الظروف؛ إذ مع التناقص التدريجي للمياه والخضراوات على سطح المريخ خلال عصور لا تُعد ولا تُحصى، وخلال عملية تطور بطيئة، أصبحت جميع مخلوقات الكوكب قادرة على البقاء لفترات طويلة دون طعام أو شراب. كما تعلمنا أيضًا التحكم في عقولنا بحيث لا نفكر في الطعام أو الشراب إلى أن نتمكن من الحصول عليهما، وهو ما ساعدنا إلى حد كبير بلا شك في السيطرة على شهوتنا إلى الطعام.

بعد فترة طويلة من البحث، عثرنا على واد عميق وضيق يبدو أكثر مكان ملائم للاختباء. وما إن دخلناه، حتى لمحت عينين تنظران نحونا من قمة أحد التلال التي تحيط بالوادي. وعندما أمعنت النظر، انسحب الرأس الذي يحمل تلك العينين إلى ما وراء القمة.

أخبرت تافيا بما رأيته ثم قلت: «هذا ينهي إمكانية استخدام هذا

المكان. علينا أن نتحرك ونبحث عن ملجأ جديد».

خرجنا من نهاية الوادي العلوية وألقيت نظرة أخرى إلى الخلف، فرأيت مخلوقاً ينظر نحونا ويحاول إخفاء نفسه منا. أخذت ألقى بنظري إلى الوراء خلال سيرنا وكنت أراه أحياناً- إنه أحد رجال الصيد في يوجور. كان يطاردنا كما يطارد الوحش البري فريسته. أشعرتني هذه الفكرة بالتقرز. لم أكن لأشعر بذلك لو كان مقاتلاً يطاردنا لقتلنا، لكن فكرة أنه يتسلل في أعقابنا لأنه يرغب في التهامنا كانت بغیضة- بل مرعبة.

مضت الساعات والمخلوق لا يزال يتبعنا. لا شك أنه يخشى من الهجوم علينا لأننا نفوقه عدداً، أو ربما يعتقد أننا سوف نفترق أو نرقد للنوم أو نقوم بأحد الأشياء العديدة التي يقوم بها المسافرون وتتيح له الفرصة التي ينتظرها. لكنه لا بد وأنه فقد الأمل بعد فترة؛ فلم يعد يسعى إلى إخفاء نفسه منا، ثم صعد إلى تلة منخفضة ووقف هناك وظله في مواجهة السماء وألقى برأسه إلى الوراء وهو يصدر صرخة حادة غريبة جعلت شعري القصير عند رقبتني يقف. إنها صيحة الصيد لدى الوحش البري عندما يستدعي المجموعة إلى القتل.

شعرت بتافيا ترتجف وتزداد التصاقاً بي، فوضعت ذراعي حولها في بادرة للحماية ومشينا في صمت لمدة طويلة.

أعاد المخلوق إطلاق صيحته الغريبة مرتين، إلى أن سمعنا أخيراً الرد عليها من أمامنا وعلى يميننا.

اضطربنا إلى القتال مرة أخرى، وإنما في مواجهة مخلوقين فقط

هذه المرة. واصلنا طريقنا ثانية مع شعور بالاكتئاب لم أستطع أن أتخلص منه - اكتئاب من اليأس المطلق لوضعنا.

توقفت عند قمة تل أعلى من التل الذي عبرناه. تنمو هنا بعض الحشائش الطويلة. قلت: «لنبقَ هنا، تافيا، حيث يمكننا المراقبة. فلنراقب لفترة. ننام، ثم نتحرك مع حلول الليل».

أقلقني أنها تبدو متعبة، لكنني أعتقد أنها كانت تعاني من إجهاد عصبي نتيجة المطاردة الأبدية أكثر من التعب الجسماني. لقد تأثرت أنا نفسي من المطاردة، وأعرف أن تأثيرها على فتاة شابة أكثر منه على مقاتل مُدرَّب. رقدت بالقرب مني، كأنما لتشعر بمزيد من الأمان، وسرعان ما راحت في النوم بينما توليت أنا المراقبة.

تمكنت من هذه البقعة العالية أن أرى مساحة كبيرة من البلد، ولم يمض وقت طويل قبل أن ألمح رجالاً يتجولون مثل حيوانات البانث عند الصيد. وكان من الواضح أن بعضهم يطارد البعض الآخر. رأيت على الأقل نصف دزينة في وقت واحد. ورأيت أحدهم يمسك بفريسته ويقفز عليها من الخلف. كانت المسافة بيني وبينهم كبيرة جداً ولم تتح لي تمييز التفاصيل بدقة، لكنني أتصور أن المطارد أغمد سيفه في ظهر فريسته، ثم انقض مثل بانث الصيد عليها ليلتهمها. لا أعرف إن كان انتهى منها، لكنه كان لا يزال يأكل عندما هبط الظلام.

نامت تافيا فترة طويلة، ولامتني عندما استيقظت لأنني تركتها تنام كل هذه الفترة، وأصرت على ضرورة أن أنام.

علمتني الضرورة أن أكتفي بقليل من النوم عندما لا تسمح الظروف

بتوفير الوقت، مع التعويض عن ذلك في وقت لاحق. كما تعلمت أيضًا أن يقتصر نومي على المدة التي أحدها، وها أنا الآن أستيقظ فور انقضاء الوقت الذي خصصته للنوم لنواصل طريقنا نحو جاثول البعيدة. تحركنا هذه الليلة، مثل الليلة السابقة، دون مضايقات عبر أراضي يوجور المروعة، وشاهدنا مع بزوغ الصباح التلال العالية ترتفع بالقرب منا.

قلت: «ربما تمثل هذه التلال الحدود الشمالية ليوجور».

أجابت تافيا: «أعتقد ذلك».

قلت: «إنها تقع الآن على مسافة قصيرة منا؛ لنواصل سيرنا إلى أن نتجاوزها. لا يمكنني نسيان هذه الأراضي اللعينة خلفي سريعًا».

قالت تافيا: «ولا أنا. أشعر بالغثيان عندما أفكر في ما رأيته».

عبرنا واديًا ضيقًا، وكنا على وشك الدخول إلى التلال عندما سمعنا خلفنا صيحة الصيد البغيضة. استدرت، ورأيت رجلًا بمفرده يتحرك عبر الوادي نحونا. كان يعرف أنني رأيته، لكنه واصل تحركه وكان يقف أحيانًا ليطلق صيحته الغريبة. سمع إجابة تأتي من الشرق، ثم إجابات أخرى من اتجاهات مختلفة. سارعنا بتسلق التلال المنخفضة وصولًا إلى القمة العالية، وعندما نظرنا خلفنا رأينا رجال الصيد يتقاربون نحونا من جميع الجهات. لم نشهد من قبل هذا العدد الكبير منهم في وقت واحد.

قلت: «ربما يمكننا التملص منهم إذا صعدنا إلى الجبال».

هزت تافيا رأسها وقالت: «حققنا على الأقل معركة جيدة، هادرون».

رأيت عزيمةها مثبطة، ولا يمكنني أن أتعجب؛ على أنها نظرت نحوي بعد لحظة وابتسمت لي بإشراق وهي تصيح: «ما زلنا نعيش، هادرون الهاستوري!».

قلت لتذكيرها: «ما زلنا نعيش، ولدينا سيوفنا».

صعدوا وراءنا ونحن نتسلق، وأرى الآن آخرين قادمين عبر التلال من اليمين واليسار. انحرفنا حول القمة المنخفضة التي كنت آمل أن نعبر خلالها إلى القمة، فقد دخلها الصيادون من أعلى وأخذوا يهبطون نحونا. تلوح أمامنا مباشرة الآن ذروة عالية، الأعلى في المجموعة بقدر ما يمكنني الرؤية. وعندها فقط، أعلى جانبها الحاد، لا يوجد صيادون يحولون دون مواصلة طريقنا.

كلما صعدنا يزداد انحدار جانبي الجبل إلى أن أصبح الصعود شاقًا، بل عسيرًا ومحفوفًا بالمخاطر في بعض الأحيان. مع ذلك ما من بديل، فواصلنا الصعود نحو القمة وخلفنا يتدفق صيادو يوجور. ليسوا في عجلة من أمرهم، مما جعلني متأكدًا من معرفتهم أنهم حاصرونا. بحثت عن مكان يمكننا أن نقف عنده، لكنني لم أجد. وأخيرًا وصلنا إلى القمة، مساحة دائرية مستوية، ربما يبلغ قطرها مائة قدم.

ولما كان مطاردونا على مسافة قليلة أسفلنا، مشيت بسرعة حول الجزء الخارجي من القمة المستديرة أعلى الذروة. ينخفض مجمل وجهها الشمالي بالكامل من القمة لبضع مئات من الأقدام، بما يحول

بالتأكيد دون تراجعنا. وعند جميع النقاط الأخرى، يصعد الصيادون. بدا وضعنا ميؤوسًا منه؛ بلا أي أمل، ومع ذلك رفضت الاعتراف بالهزيمة. تتناثر على القمة صخور طليقة. ألقيت صخرة على أقرب أكل للحوم البشر. أصابته في رأسه، ودفعته إلى أسفل جانب الجبل، وأخذ في طريقه اثنين من زملائه معه. قامت تافيا بنفس الشيء، وبدأنا معًا نقصفهم بالصخور. على أن ما سجلناه من إصابات خاطئة كان أكثر من الإصابات الصحيحة. كان عددهم كبيرًا، وكانوا جياغًا وشرسين بحيث لم نتمكن من وقف تقدمهم. وكانت أعدادهم الكبيرة هذه تُذكرني بالحشرات التي تصعد زاحفة- حشرات ضخمة وبشعة، سرعان ما تصل إلينا وتلتهمنا.

ومع زيادة اقترابهم، أطلقوا صيحة جديدة لم أسمعها من قبل. صيحة تختلف عن دعوة الصيد، لكنها فظيعة بالقدر نفسه. قالت تافيا: «هذه صيحة الحرب».

استمر تدفق الحشد الغفير متسلقًا بإصرار إلى أعلى نحونا. امتشقنا سيوفنا؛ فهذه معركتنا الأخيرة. زاد اقتراب تافيا مني، ولأول مرة أشعر بها ترتعش.

قالت: «لا تدعهم يأخذوني. ليس الموت هو ما أخشاه». كنت أعرف ما تعنيه، وأخذتها بين ذراعي، وقلت: «لا يمكن أن أفعل ذلك، تافيا، لا يمكن».

أجابت بصوت حازم: «يجب ألا تفعل. إذا كنت تهتم بي حتى

كصديقة، لا تسمح لهذه الوحوش أن تأخذني وأنا على قيد الحياة». أعرف أنني شعرت باختناق بحيث لم أستطع الرد، لكنني كنت أعرف أنها على حق وسحبت خنجري. «وداعًا، هادرون- هادرون!».

كان صدرها مكشوفًا لتلقي خنجري، وكان وجهها مقلوبًا تجاهي. لا يزال وجهًا شجاعًا لا يظهر عليه الخوف، يا إله كم هي جميلة. انحيت بتهور، مندفعًا بقوة لم أتمكن من التحكم فيها، وضغطت بشفتي على شفيتها. وبأعين نصف مغلقة، ضغطت شفيتها بقوة على شفتي.

«أوووه، إيسوس!»، تنهدت وهي تبعد شفيتها، ثم صاحت: «لقد أتوا! اضرب الآن، هادرون، واضرب بعمق!».

كانت المخلوقات عند القمة تقريبًا. أرجحت يدي إلى أعلى بحيث يمكنني دفن خنجري النحيل بعمق في صدرها الجميل. ولدهشتي، اصطدمت يدي بشيء صلب فوقي. ألقيت نظرة إلى أعلى. لا يوجد شيء؛ على أن شيئًا ما دفعني لأتحسس أعلاي ثانية لحل هذا اللغز الغريب، حتى في تلك اللحظة المأساوية الرهيبة.

تحسست أعلاي مرة أخرى. باسم إيسوس، يوجد شيء هناك! مرت أصابعي فوق سطح أملس - سطح مألوف.

لا يمكن أن تكون، لكنني أعلم أنها يجب أن تكون، جهاما. لم أسأل أي أسئلة عن نفسي أو عن المصير في تلك اللحظة. كان صيادو يوجور

على وشك الهجوم علينا عندما لمست أصابعي إحدى حلقات المرساة في مقدمة جهاما. حملت تافيا فوق رأسي.

وصحت: «إنها جهاما. عليك الصعود على سطحها».

اقتنصت الفتاة العزيزة بأسرع ما يمكن الفرصة غير المتوقعة وتصرفت كأى مقاتل مُدرَّب؛ لم تتوقف لتسأل، لكنها أرجحت نفسها إلى أعلى، إلى سطح السفينة، برشاقة بطل رياضي. وعندما أمسكتُ حلقة المرساة وسحبت نفسي إلى أعلى، رقدت تافيا في وضع مسطح على بطنها ومدت يدها إلى أن وصلت إليَّ وساعدتني؛ ولم تكن القوة في هذا الإطار النحيل غير مكافئة للمهمة.

وصل قادة الحشد قبيلة إلى القمة. توقفوا للحظات في حالة ارتباك عندما شاهدونا نتسلق الهواء الرقيق، ونقف على ما بدا فوق رؤوسهم مباشرة. لكن الجوع كان يحثهم، فقفزوا في محاولة للوصول إلينا بصعودهم فوق ظهور وأكتاف بعضهم بعضًا للإمساك بنا وجرنا إلى أسفل.

نجح اثنان في الوصول إلى سطح السفينة، حيث كنت أقاتلهم بمفردي، بينما فتحت تافيا إحدى الكوات وقفزت إلى لوحات التحكم. وصل مخلوق آخر بوجه كريه إلى سطح السفينة عند الجانب الآخر، واكتشفت وجوده بمحض الصدفة قبل أن يخترق سيفه ظهري. بدأت جهاما ترتفع بالفعل وأنا أستدير للاشتباك معه. كانت المساحة المتاحة للقتال صغيرة، لكنني ميزتي هي أنني أعرف مدى سطح السفينة تحت أقدامي، في حين لا يستطيع خصمي أن يرى أي شيء سوى هواء

رقيق. أعتقد أن هذا أشعره أيضًا بالخوف. وعندما اندفعت نحوه، خطا إلى الخلف، إلى الفضاء، ثم هوى إلى أسفل نحو الأرض وهو يطلق صرخة رعب.

لقد أنقذنا، ولكن كيف باسم جميع أسلافنا تصادف أن توجد جهاما في هذه البقعة.

ربما كان تول أكستار على متنها! ملأتني هذه الفكرة بالقلق على سلامة تافيا. قفزت وسيفي جاهز في يدي خلال كوة المقصورة، ولم أجد سوى تافيا.

حاولنا التوصل إلى بعض تفسيرات لهذه المعجزة التي أنقذتنا، لكن جميع التخمينات لم تصل بنا إلى أي شيء يمكن أن يبعث على الرضى إطلاقاً.

قالت تافيا: «كانت السفينة هنا عندما كنا بحاجة إليها؛ وهذه الحقيقة يجب أن تُرضينا».

قلت: «أعتقد ذلك، على الأقل في الوقت الحاضر. ويمكننا الآن أن ندير مقدمة السفينة مرة أخرى نحو هيليوم».

قطعنا مسافة قصيرة وراء الجبال، ثم شاهدت سفينة على بُعد، ثم سفن أخرى، وأدركت أننا تقترب من أسطول كبير يتحرك نحو الشرق. ومع اقترابنا، تبينت هياكل مطلية بالأزرق المروع لجاهاار، وعرفت أنه أسطول تول أكستار الهائل.

رأينا بعد ذلك سفناً تقترب من الشرق، وعرفت أنه أسطول هيليوم.

لا يمكن أن يكون أي شيء آخر؛ لكني يجب أن أتأكد. أسرع في اتجاه أقرب سفن هذا الأسطول الآخر وشاهدت لافتات ورايات هيليوم ترعرع فوق الأجزاء العلوية من السفينة وشارة المعركة الخاصة بأمر الحرب مرسومة على مقدمتها. وتأتي خلفها سفن أخرى - أسطول نبيل يتحرك في اتجاه موت محتوم.

كانت سفينة جاهازية تتحرك في اتجاه سفينة الحرب الرئيسة، فانطلقت لاعتراضها ووضعت أحد بنادقي في وضع الاستعداد.

اضطرت للاقتراب من هدفي - السفينة الجاهزية - نظراً لأن مدى فعالية بندقية أشعة التفكيك محدود للغاية.

كان كل شيء على متن سفينة هيليوم الحربية جاهزاً للعمل، وأعرف لماذا لم يُطلقوا النار من أي بندقية. لم يحدث إطلاقاً أن تفاخر جون كارتر، أمير الحرب في برسوم، أنه بدأ بالحرب. يجب أن يبدأ العدو بالطلقة الأولى. إذا تمكنت من الوصول إليهم في الوقت المناسب، سوف يدرك العواقب المميتة لهذا الرمز النبيل والشهم؛ ويمكن لسفن هيليوم، بأسلحتها طويلة المدى، أن تبعد أسطول جاهاز بأكمله قبل أن تتعرض لنطاق مرمى البنادق القاتلة. لكن ترتيبات القدر كانت مختلفة، وأفضل ما يمكنني القيام به الآن هو الوصول إلى السفينة الجاهزية قبل فوات الأوان.

كانت تافيا أمام لوحات التحكم، ونحن نسرع نحو السفينة الجاهزية الزرقاء. كنت أقف عند البندقية الأمامية. يجب أن نصل خلال لحظات داخل النطاق، ثم رأيت سفينة هيليوم الحربية الكبيرة

تنهار في الجو. سقطت أجزاؤها الخشبية ببطء نحو الأرض، واندفع ألف محارب نحو موت قاسٍ فوق أرضٍ جرداء أسفلهم.

توقفت على الفور تقريبًا باقي سفن هيليوم. لقد شاهدوا الكارثة التي ألمت بأول سفينة في الصف، وأدرك قائد الأسطول أن قوة جديدة لا يعرفون عنها شيئًا تتهددهم.

شجّع هذا النجاح الأول سفن تول أكستار، وبدأت تتحرك الآن بسرعة للهجوم. كانت السفينة التي دمرت السفينة الحربية الكبيرة في الصدارة، لكنها الآن داخل نطاق مرماي.

ولمعرفتي أن طلاء الحماية الأزرق يقي السفينة الجاهارية نفسها ضد أشعة التفكيك، حشوت البندقية بنوع آخر من القذائف وحركت فوهة البندقية بحيث تشعل النار على طول السفينة، ثم ضغطت على الزر. ذاب الرجال على سطح السفينة في الهواء فورًا- لم يبقَ سوى عتادهم ومعادنهم وأسلحتهم.

وجهت تافيا إلى تسيير جهاما إلى الجانب، وفتحت الكوة العلوية وقفزت إلى سطح السفينة الجاهارية، وفي لحظة رفعت إشارة الاستسلام أعلاها. يمكن للمرء أن يتصور الذعر على متن السفن الجاهارية القريبة عندما شاهدت تلك الإشارة ترفرف من الصاري الأمامي للسفينة؛ إذ لم تكن هناك أي سفينة قريبة بما يكفي لتشهد ما حدث بالفعل على متنها.

عُدت إلى مقصورة جهاما، وفتحت الكوة وتوجهت على الفور إلى المنظار. تمكنت الآن أن أميز في الجزء خلفي من أول صف لسفن

جاهار الشارة الملكية فوق سفينة حربية كبيرة، فعرفت أن تول أكستار هناك، لكنه في وضع آمن. كنت أود أن تكون سفينته هي التالية، لكن الأسطول كان يتحرك قدمًا نحو سفن هيليوم ولم أجرؤ على إضاعة الوقت.

فتحت سفن هيليوم الآن نيرانها، وأخذت القذائف تنفجر حول السفن القيادية في أسطول جاهار - قذائف موقوتة جيدًا، بحيث يمكن ضبطها لتنفجر في أي وقت وصولًا إلى أقصى مدى البندقية التي أطلقتها. يتطلب الأمر استخدام المدفعية اللطيفة لمزامنة التوقيت مع الهدف.

بعد إصابة سفن أسطول جاهار، واحدة تلو الأخرى، قامت باقي السفن بإعداد بنادقها. أخفقت، مؤقتًا على الأقل، بنادق أشعة التفكيك؛ لكنني أعرف أنها كانت لتنجح إذا تمكنت سفينة واحدة من اختراق صفوف سفن هيليوم، حيث يمكنها بين السفن الحربية الكبيرة تدمير دزينة منها في الهواء في غضون بضع دقائق.

كانت مدفعية جاهار فقيرة؛ تنفجر قذائفها عادة في الهواء قبل أن تصل إلى الهدف، لكنها تحسنت مع استمرار المعركة. ومع ذلك، كنت أعرف أن جاهار لا يمكن أن تأمل أبدًا في هزيمة هيليوم بأسلحة هيليوم. لقد أصيبت سفينة حربية كبيرة بجانب في أسطول تول أكستار ثلاث مرات على التوالي. رأيتها تسقط من المؤخرة وعرفت أنها انتهت، ثم رأيت قائدًا يندفع إلى المقدمة لمواجهة سقوطه الطويل الأخير. وكنت أعرف رجالًا شجعان في أسطول تول أكستار، فضلًا عن

أسطول هيليوم، لكن تول أكستار لم يكن منهم، حيث رأيت عن بُعد سفينته الرئيسة تسرع نحو جاهاار.

وعلى الرغم من جُبن الجيداك، اندفع الأسطول الكبير للهجوم. إذا كانت لديهم الشجاعة، لا يزال يمكنهم الفوز؛ فعدد سفنهم يفوق عدد سفن هيليوم بنسبة عشرة إلى واحد. وبقدر ما يمكن أن تصل العين، رأيتهم يسرعون من الشمال ومن الجنوب ومن الغرب في اتجاه ساحة المعركة.

أخذت سفن هيليوم تزداد اقترابًا من سفن جاهاار. كان أمير الحرب يلعب مباشرة دون أن يقع في أيدي العدو. ففي ظل تفوق الرماية وعشرين سفينة حربية يحميها طلاء جاهاار الأزرق، يمكن أن تمحو هيليوم أسطول تول أكستار الكبير؛ كنت على ثقة في ذلك، ومع هذه الفكرة جاءني الإهام. يمكن تحقيق ذلك، ولا يمكن أن يفعلها سوى تان هادرون الهاستوري.

كانت القذائف تتساقط حولنا. هزت قوة الانفجارات جهاما إلى أن تقلبت كسفينة قديمة في بحر قديم. اقتربنا مرارًا وتكرارًا بخطورة من خط نيران بنادق أشعة التفكيك الجاهارية. شعرت أنني يجب ألا أخطر بتافيا على هذا النحو، ومع ذلك يجب تنفيذ الخطة التي وضعتها.

من الغريب كيف يتغير الرجال، ولأسباب تبدو تافهة. كنت أعتقد طوال حياتي أنني على استعداد لأي تضحية من أجل هيليوم، لكنني أعرف الآن أنني لن أضحي بشعرة واحدة من هذا الرأس الأشعث من أجل برسوم كلها. إنها الصداقة، كما قلت لنفسي.

توجهت إلى لوحات التحكم وأدرت مقدمة جهاما نحو إحدى سفن هيليوم، كان تقف خارج خط النار مؤقتًا. ومع اقترابنا إلى جانبها، تركت لوحات التحكم مرة أخرى لتافيا، وفتحت الكوة الأمامية وانطلقت إلى سطح السفينة جهاما، ورفعت يدي فوق رأسي في إشارة للاستسلام في حال اعتبروني جاهارياً.

ماذا تصوروا عندما شاهدوني على ما يبدو عائماً بشكل عمودي في الهواء الرقيق؟ ظهر الاندهاش واضحاً على تعبيرات وجوه أولئك الأقرب لي، عندما لمست جهاما جانب السفينة الحربية.

حافظوا على تغطيتي عندما صعدت على متن السفينة، تاركاً تافيا للمناورة في جهاما.

وقبل أن أعلن عن نفسي، تعرّف عليّ ضابط شاب من الأوماك الذي أنتمي إليه. قفز الضابط صائحاً من المفاجأة، وألقى ذراعيه حولي. صاح: «هادرون الهاستوري! هل أشاهد بعثك من الموت؛ لكن لا، أنت حقيقي، أنت على قيد الحياة ولست طيفاً من العالم الآخر».

قلت: «أنا على قيد الحياة الآن، لكننا جميعاً لن نستمر أحياء ما لم أتحدث مع قائدك. أين هو؟».

«أنا هنا»، قال صوت خلفي. استدرت ورأيت الأودوار العجوز الذي كان صديقاً عظيماً لوالدي، وقد تعرّف عليّ مباشرة؛ ولكن، لا يوجد وقت حتى للتحية.

«يجب تحذير الأسطول أن سفن جاهار مسلحة بينادق أشعة التفكيك التي يمكنها إذابة جميع السفن، كما رأيت أول سفينة تتحلل.

على أن هذه البنادق ليست فعالة إلا على مدى قصير».

«يجب الحفاظ على مسافة هاد واحد الأقل منها، وتصبح في أمان نسبياً. والآن، إذا أعطيتني ثلاثة رجال ووجهت نيران أسطولك بعيداً عن سفن جاهار في جنوب صفوف، سوف أتمكن من إحضار عشرين سفينة لك في غضون ساعة - السفن المحمية بلون جاهار الأزرق، التي قد تواجهك ببنادقها ذات الأشعة التفكيكية».

يعرفني الأودوار جيداً، ولذا وافق على مسؤوليته الخاصة على ما طلبته منه.

رافقتي ثلاثة من البادوار من نفس رتبتي. أحضرت تافيا إلى السفينة الحربية، وسلمتها إلى الأودوار العجوز لحمايتها، على الرغم من اعتراضها الشديد على الانفصال عني.

قالت: «لقد خضنا الكثير معاً، هادرون الهاستوري، دعنا نستمر معاً حتى النهاية».

كانت قد اقتربت مني وتحدثت بصوت منخفض حتى لا نسمعنا أحد. وكانت تنظر نحوي بعينين متوسلتين.

قلت: «لا يمكنني تعريضك للخطر أكثر من ذلك، تافيا».

سألتني: «هل تعتقد أن الخطر الكبير لا يزال قائماً؟».

قلت: «سنكون في خطر، بالطبع؛ إنها الحرب، ولا يستطيع أحد أن يخمن ما يمكن أن يحدث. على أي حال، لا تقلقي. سوف أعود سالمًا».

قالت: «إِذَنْ أَنْتَ تَخْشَى أَنْ أَكُونَ عَائِقًا فِي الطَّرِيقِ، وَهَنَّاكَ مَنْ يُمْكِنُهُ الْقِيَامُ بِالْعَمَلِ أَفْضَلَ مِنِّي».

قلت: «كَلَّا بِالطَّبِيعِ. أَنَا لَا أَفْكَرُ سِوَى فِي سَلَامَتِكَ».

قالت: «إِذَا فَقَدْتِكَ، لَنْ أَعِيشَ. أَقْسَمُ بِذَلِكَ. فَإِذَا كُنْتَ تَثِقُ فِي قُدْرَتِي عَلَى الْعَمَلِ مِثْلَ الرِّجَالِ، اسْمَحْ لِي أَنْ أَذْهَبَ مَعَكَ بَدَلًا مِنْ أَحَدٍ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ».

ترددت. قالت: «أَوْه، هَادِرُونَ الْهَاسْتُورِي، أَرْجُوكَ لَا تَتْرَكْنِي هُنَا مِنْ دُونِكَ».

لَمْ أَسْتَطِعْ مَقَاوِمَتَهَا. قُلْتُ: «حَسَنًا، تَعَالَى مَعِي. أَفْضَلَ أَنْ تَأْتِيَ مَعِيَ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ آخَرَ». وَهَكَذَا حَلَّتْ تَافِيَا مَحَلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْبَادَوَارِ فِي جِهَامَا، مِمَّا أَثَارَ غَضَبَ الضَّابِطِ.

قَبْلَ دُخُولِي إِلَى جِهَامَا، التَفْتُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْأَوْدُورِ الْعَجُوزِ، وَقُلْتُ: «إِذَا نَجَحْنَا، سَوْفَ يَتَحَرَّكُ ببطء عدد من سفن تول أكستار الحربية نحو خط هيليوم وهي ترفع إشارات الاستسلام. وستكون طواقمها قد دُمرت، وبالتالي يجب أن تكون طواقمنا جاهزة لتصعد على متنها وتديرها».

كَانَ كُلُّ مَنْ عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ الْحَرَبِيَّةِ شَدِيدَ الْإِهْتِمَامِ بِالسَّفِينَةِ جِهَامَا، بِطَبِيعَةِ الْحَالِ؛ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ كُلَّ مَا كَانَ يُمْكِنُهُمْ رُؤْيَتُهُ هُوَ كَوَّةٌ مَفْتُوحَةٌ وَعَيْنُ الْمَنْظَارِ. اصْطَفَى الضَّابِطُ وَالرِّجَالُ عَلَى الدَّرَابِزِينَ وَنَحْنُ نَصْعَدُ عَلَى مَتْنِ سَفِينَتِنَا غَيْرِ الْمَرْتِيَّةِ. وَعِنْدَمَا أَغْلَقْتُ الْكُوَّةَ، ارْتَفَعَ

فوقي هتاف بصوت عالٍ.

أثبت أول أعمالي حاجتي إلى تافيا، حيث حددت مكانها عند البرج الخلفي لتتولى مسؤولية البندقية هناك، بينما تولى بادوار لوحات التحكم وأدار مقدمة السفينة نحو أسطول جاهار.

كنت أقف في موقع يتيح لي مشاهدة المشهد المتغير على الزجاج الأرضي تحت المنظار. وعندما تمايلت سفينة حربية كبيرة ببطء في الصورة المصغرة أمامي، أصدرت توجيهات إلى البادوار بالتحرك في مسار مستقيم بالنسبة لها. بيد أنني رأيت بعد لحظة سفينة حربية أخرى تتحرك بجانبها. وكان هذا أفضل، وغيرنا مسارنا لنمر بينهما.

كانت السفينتان تتحركان بشجاعة في اتجاه أسطول هيليوم، وتطلقان الآن بنادقهم الكبيرة مع الاحتفاظ ببنادق أشعة التفكيك لنطاق أقرب. يا لمشهدهما الرائع، ومع ذلك يا لعجزهما. إن جهاما الصغيرة غير المرئية، بينادقها الصغيرة، تشكل لهما خطراً أكبر من أسطول هيليوم كله. تتحرك السفينتان دون معرفة بالمصير الحتمي الذي ينتظرهما.

قلت لتافيا: «اكتسحي السفينة اليمنى من الجذع إلى المؤخرة. سوف آخذ هذا الزميل إلى مرفئنا»، ثم قلت للبادوار المسؤول عن لوحات التحكم: «نصف السرعة!».

تجاوزنا مقدمة السفينتين ببطء. لمست زر بندقيتي، ورأيت من فتحه الرؤية الصغيرة ذوبان الطاقم في مسار تلك الأشعة الفظيعة، خلال مرور السفينتين. كنا قريبين جداً، إلى حد أنني استطعت رؤية تعبيرات الذعر والرعب على وجوه بعض المحاربين وهم يشاهدون

زملاءهم يختفون أمام أعينهم، ثم سيأتي دورهم ويتتهون في طرفه عين،
وأسلحتهم ومعادنهم تقعقع على سطح السفينة.

وعنما هبطنا خلفهم، كان عملنا قد أكتمل. قلت للبادوار أن يدير
جهاما بحيث تصبح بجانب إحدى السفينتين، ثم أسرع في الانتقال
إليها ورفعت إشارة الاستسلام. سقطت السفينة مع الريح عند موت
الضابط المسؤول عن لوحات التحكم، لكني سرعان ما ارتفعت بها
ثانية وضبطها على نصف السرعة، ووجهت مقدمتها نحو سفن هيليوم،
ثم أغلقت لوحات التحكم وغادرتها.

عدت إلى جهاما وانتقلنا بسرعة إلى السفينة الأخرى، التي تحركت
ببطء أيضًا خلال لحظات قليلة نحو أسطول أمير الحرب وإشارة
الاستسلام ترفرف فوقها.

كانت الضربة سريعة، بحيث استغرقت السفن الجاهارية القريبة
بعض الوقت لإدراك حدوث شيء خاطئ. ربما كانوا غير قادر على
تصديق أعينهم عندما رأوا اثنين من السفن الحربية الكبيرة تستسلم قبل
أن تصيبها طلقة واحدة. ويبدو حاليًا أن قائد طراد خفيف يقن خطورة
الوضع، على الرغم من أنه لم يفهمه تمامًا. كنا نتحرك بالفعل في
اتجاه سفينة حربية أخرى، عندما رأيت الطراد يسرع نحو أحد غنائمنا
مباشرة. كنت أعرف أنه لن يصل أبدًا إلى أسطول هيليوم إذا تركناه
يصعد على متن تلك الغنيمة، وهو الشيء الذي يجب أن أمنعه بأي
ثمن. إن مساره سوف يجلبه عبر مقدمتنا، وعند مروره أصيبه بالبندقية
الأمامية.

رأيت من المستحيل أن تتجاوز جهاما هذا الطراد السريع، الذي يتحرك بأقصى سرعة، ولذا اضطررنا أن نسمح له بالمضي في طريقه. كنت أخشى في البداية أن يصطدم بأقرب سفينة غنمناها وإذا صدمها مباشرة بمعدل سيره، سيكون قد قطع نصف الطريق إلى هيكل السفينة الحربية. ولحسن الحظ، لم يصطدم بالسفينة الكبيرة، وتوجه مسرعاً إلى وسط أسطول هيليوم.

وعلى الفور أصبح هدفاً لمائة مدفع، حيث انطلق نحوه وابل من القذائف، ومن المؤكد حدوث عشرات الضربات في وقت واحد؛ لأن الطراد اختفى ببساطة - أصبح كتلة من حطام طائر.

نظرت إلى الوراء ورأيت الخراب الذي أحدثته المدافع الهيليومية الكبيرة على سفن العدو على يساري. ورأيت أيضاً ثلاث سفن حربية كبيرة تذهب إلى نهايتها، بينما انجرفت عاجزة مع الرياح ما لا يقل عن أربع سفن أخرى. على أن هناك سفناً أخرى في ذلك الأسطول القوي لا تزال تعمل. وبقدر ما يمكنني أن أرى، كانت قادمة من الشمال ومن الجنوب ومن الغرب. يبدو أنها بلا نهاية. وأخيراً أدركت أن معجزة فقط هي ما يمكن أن تمنح النصر لهيليوم.

كان أسطولنا منتظراً بناء على اقتراحي، ويركز نيران مدافعه الكبيرة على سفن جاهاار الأقرب، مع استمرار سعيه للحفاظ على البقاء خارج نطاق تلك البنادق القاتلة.

عدنا إلى العمل ثانية مرة أخرى - العمل الكئيب الذي خصصه لنا إله المعركة. استسلمت لنا عشرون سفينة حربية بأسطحها الخالية،

واحدة تلو الأخرى. كما تمكنت خلال العمل من إحصاء عدد أكبر من السفن التي دمرتها مدافع أمير الحرب.

اضطررنا خلال متابعة عملنا إلى تدمير ما لا يقل عن نصف دزينة من الطائرات الصغيرة، مثل طائرات الاستطلاع والطرادات الفضائية الخفيفة؛ وهي الآن تتحرك عشوائيًا بين السفن الباقية من أسطول جاهار، وتحمل الذعر والرعب إلى قلوب محاربي تول أكستار، فلا بد أن جميع السفن القريبة قد أدركت الآن انطلاق قوة جديدة غريبة نحوها من سفن هيليوم.

ما زلنا نعمل حتى الآن وراء الصف الأول الجاهاري، ولم يعد بمقدورنا أن نرى سفن هيليوم، على الرغم من أن انفجار القذائف يشهد على أنها لا تزال هناك.

أدركت من خبرتي السابقة ضرورة حماية سفن جاهار التي استولينا عليها، حتى لا نسمح لهم باستعادتها، ولذا توجهت إلى الخلف واتخذت موقعًا يتيح لي مراقبة أكبر عدد ممكن منها. وكان جيدًا أن فعلت ذلك، فقد وجدنا من الضروري تدمير طواقم ثلاثة سفن أخرى قبل أن نصل إلى خط المعركة لدى أسطول هيليوم.

هنا، انتهوا من تسكين أطقم ما يزيد على عشر من السفن الحربية الجاهارية التي استولينا عليها؛ ومع ارتفاع لافتات وأعلام هيليوم فوقها، بدأت تتحرك وتتجه إلى العمل ضد السفن الجاهارية الشقيقة.

عندئذ، انهارت روح جاهار. وأعتقد أن هذا كان كثيرًا جدًا بالنسبة لهم، فما من شك أن معظمهم يعتقد أن هذه السفن توجهت طوعًا إلى

العدو بجميع ضباطها وأطقمها؛ إذ لا يمكن أن يعرف سوى عدد قليل بتدمير الضباط والأطقم.

لقد هجرهم الجيداك منذ فترة طويلة، وتوجهت عشرون من أكبر سفنهم إلى العدو. وهي الآن، تحت حماية لون جاهار الأزرق ومع أفضل الرماة في بر سوم، تتحرك من خلالهم وتنشر الموت والدمار على كل الجهات.

استسلمت طواغية العشرات من سفن تول أكستار، وعندئذ تفرقت السفن الأخرى؛ توجه عدد قليل منهم نحو جاهار، ومن هنا عرفت أنهم يعتقدون أن سقوط المدينة حتمي.

لم يبذل أمير الحرب أي جهد لمطاردة الطائرات التي فرت؛ بل وضع سفن العدو التي استولينا عليها، وبلغت أكثر من ثلاثين سفينة، حول أسطول هيليوم لحمايته من بنادق أشعة التفكيك لدى العدو في حالة تجدد الهجوم، ثم تحركنا ببطء إلى جاهار.



الفصل (١٦)

اليأس

بعد انتهاء المعركة مباشرة، أرسل أمير الحرب كي أتوجه لمقابلته. صعدت بعد لحظات قليلة ومعي تافيا على متن سفينة القيادة.

تقدم أمير الحرب بنفسه لمقابلتنا. وقال: «كنت أعرف أن ابن هاد أورتور سوف يعطي صورة جيدة عن نفسه. بالكاد ما يمكن أن تسد هيليوم دينها بالامتنان لك اليوم. أنت كنت في جاهار؛ وما فعلته اليوم يقنعني بذلك. هل يمكننا أن نقرب من المدينة بأمان للاستيلاء عليها؟».

أجبت: «كلا»، ثم شرحت بإيجاز القوة الجبارة التي جمعها تول أكستار والتسليح الذي يتوقع استخدامه لإخضاع العالم. وأضفت: «لكن هناك طريقة».

سألني: «وما هي؟».

«أن ترسل إحدى سفن جاهار التي استولينا عليها، مع رفع علم الهدنة فوقها. وأعتقد أن تول أكستار سوف يستسلم. إنه جبان. وهرب من الرعب عندما كانت المعركة لا تزال في بدايتها».

«وهل سيحترم علم الهدنة؟».

قلت: «إذا كان العلم على متن إحدى سفنه، ومحميًا بطلاء جاهار الأزرق، أعتقد أنه سيحترمه. وفي الوقت نفسه، سوف أرافق السفينة في جهاما غير المرئية. أعرف كيف يمكنني إيجاد مدخل إلى القصر. لقد اختطفت تول أكستار مرة، وربما أتمكن مصادفة من اختطافه مرة أخرى. وإذا أصبح بين يديك، يمكنك إملاء الشروط على النبلاء؛ فهم جميعًا يخشون قوة الجمهور الجائع الهائلة التي لا يمنعها الآن سوى الرعب الغريزي الذي يشعرون به تجاه الجيداك».

انتظرنا أن يأتي الطراد الجاهاري حاملاً علم الهدنة إلى جانب سفينتنا، وفي هذه الأثناء أخبرني جون كارتر أسباب تأخير الحملة ضد جاهار لشهور عديدة.

لقد اغتيل كبير خدام قصر تور هاتان، الذي عهدت إليه بتوصيل الرسالة إلى جون كارتر، والتي كانت لتؤدي فوراً إلى الهبوط فوق جاهار؛ وقد اغتيل وهو في طريقة إلى قصر أمير الحرب. ولذلك لم تثر أي شكوك تجاه تول أكستار، وجابت سفن هيليوم فوق برسوم لشهور بحثاً دون جدوى عن سانوما تورا.

ولم يكن إلا مصادفة أن عرف العبد كال تافان أن سفن هيليوم لم تُرسل إلى جاهار، حيث سمع محادثتي مع كبير الخدم. ونظرًا لأن السيد لا يستمع إلى عبده ولا يثق فيه، لا سيما تور هاتان المتعجرف من بين جميع الرجال، فقد توجه كال تافان في نهاية المطاف إلى أمير الحرب وأبلغه بقصته.

قال جون كارتر: «ولخدماته، منحته حريته. وقد عرفت من سلوكه أنه ابن أحد النبلاء في بلده الأصلي، على الرغم من أنه لم يخبرني بذلك، فعينته للعمل على متن الأسطول. واتضح أنه رجل ممتاز، ومؤخراً رقيته إلى دوار. ونظراً لولادته في تجانات وعمله في كوبول، كان أكثر إلماماً بهذا الجزء من برسوم من أي رجل آخر في هيليوم. ولذلك، عهدت إليه بمهمة الضابط الملاحي للأسطول وهو الآن على متن سفينة القيادة».

قلت: «لقد سنحت لي الفرصة لملاحظة الرجل بعد اختطاف سانوما توراً مباشرة، وكنت معجباً به. وأنا سعيد لأنه نال حريته ونال تفضيل أمير الحرب».

يقف الآن الطراد الذي يحمل علم الهدنة إلى جانب سفينة القيادة. أبلغ الضابط القيادي أمير الحرب بوصوله، وبعد أن تلقى تعليماته، عُدت ومعني تافيا إلى جهاما. قررنا المضي في هذا الجزء من الخطة بمفردنا، إذ أصبح من الضروري اختطاف تول أكستار مرة أخرى. كما كان أُملي أيضاً أن أجِد فاو وسانوما توراً. وإذا وجدتهما، ستزدحم مقصورة جهاما دون حتى إضافة البادوارين. كانا غير راغبين في ترك جهاما؛ لأنني أعتقد أنهما خاضا أعظم خبرات حياتهما خلال الوقت القصير الذي أمضياه على متنها، لكنني حصلت لهما على إذنٍ من أمير الحرب بمرافقة الطراد إلى جاهار.

أصبحنا وحدنا، أنا وتافيا، مرة أخرى. قلت: «ربما هذه آخر رحلة لنا على متن جهاما».

أجابت: «أعتقد أنني أتوق إلى الراحة».

سألتها: «هل أنت متعبة؟».

«كنت متعبة أكثر مما أتصور، إلى أن شعرت بالأمن والسلامة وأسطول هيليوم الكبير حولي. أعتقد أنني متعبة من وجودي دائماً في خطر».

قلت: «كان يجب ألا تأتين معي الآن. لا يزال أماننا الوقت الكافي لإعادتك إلى سفينة القيادة».

ابتسمت. وقالت: «أنت تعرف أفضل من ذلك، هادرون».

أعرف أفضل. كنت أعرف أنها لن تتركني. بقينا صامتين لفترة، وجههما تنزلق جواً خلف الطراد بقليل. عندما نظرت إلى وجه تافيا، وجدته يعكس تعباً كبيراً وظهرت بعض خطوط الحزن القليلة التي لم أراها من قبل. تحدثت ثانية بنبرة باهتة، تختلف عن طريققتها المعتادة.

قلت: «أعتقد أن سانوما تورا سوف تسعد بالعودة معك هذه المرة».

قلت: «لا أعرف. ولا يوجد فارق بالنسبة لي سواء أرادت أن تأتي أو لم ترد. إنه واجبي أن أجلبها».

أومأت. وقالت: «ربما كان هذا أفضل؛ فوالدها شديد الشراء ومن النبلاء».

لم أفهم ما أهمية ذلك؛ ولأنني لم أعد مهتماً على نحو خاص بسانوما تورا أو والدها، فلم أواصل الحديث. كنت أعرف أن من واجبي إعادة سانوما تورا إلى هيليوم إن أمكن، وهذا كان الشيء الوحيد الذي يشغلني في الموضوع.

كنا على مرمى بصر جاهار قبل أن نواجه أي سفن حربية، ثم جاء طراد لمقابلة طرادنا الذي يحمل علم الهدنة. تبادل قادة الطرادين بضع كلمات، ثم استدار الطراد الجاهاري وقاد الطريق نحو قصر تول أكستار. كان يتحرك ببطء. تقدمت إلى الأمام، وخططي جاهزة بالفعل، وجهاما لا تحتاج إلى مرافقة لأنها خفية. طرت مباشرة إلى ذلك الجناح من القصر الذي يضم مساكن النساء، ودرت حوله ببطء ومنظاري على نفس خط النوافذ.

دنا بالقرب من نهاية الجناح، حيث تقع القاعة الكبرى التي يعقد فيها تول أكستار مجلسه مع نسائه، وهنا أصبح المنظار في مواجهة نوافذ شقة رائعة. أوقفت السفينة أمامها، كما حدث من قبل عند بعض النوافذ الأخرى التي رغبت في فحصها. وبينما كانت حركة المنظار البطيئة تعكس على اللوح الزجاجي فوق الأرض أمامي أجزاء مختلفة من غرفة كبيرة، رأيت امرأتين تعرفت عليهما فوراً: إحدهما سانوما تورا والأخرى فاو. وكانت سانوما تورا ترتدي أغشية رائعة الزخارف، أغشية جيدة. لقد حققت المرأة التي أحببتها هدفها، على أن ذلك لم يصيبني بأي شعور بالغيرة. بحثت في الجزء المتبقي من الشقة ولم أجد أي شخص آخر، فجلبت سطح السفينة جهاما بالقرب من عتبة النافذة، ثم فتحت الكوة وقفزت إلى الغرفة.

نهضت سانوما توما من الأريكة التي تجلس عليها عندما رأيتني، وانقبضت في رعب. اعتقدت أنها على وشك الصراخ طلباً للمساعدة، لكنني أمرتها أن تصمت. وفي اللحظة نفسها، انطلقت فاو إلى الأمام

وأمسكت بذراع سانوما تورا وأغلقت فيها براحة يدها. وبعد لحظة كنت بجانبها.

قلت لسانوما تورا: «لقد انهزم أسطول جاها ر أمام سفن هيليوم، وقد جئت لإعادتك إلى بلدك».

كانت ترتجف إلى حد أنها لم تستطع الرد. لم أشهد أبدًا من قبل مثل هذا الرعب البائس، الناجم دون شك عن ضميرها الميت.

قالت فاو: «أنا سعيدة لمحيثك، هادرون الهاستوري، لأنني أعرف أنك ستأخذني أيضًا».

قلت: «بالطبع. جهاما تقع خارج هذه النافذة مباشرة. هيا! وسرعان ما نكون جميعًا آمنين على متن سفينة القيادة، سفينة أمير الحرب».

سمعت خلال حديثي ضوضاء غريبة تبدو قادمة عن بُعد، ترتفع وتنخفض، والآن تتزايد مقتربة. لم أتمكن من تفسيرها؛ وربما لم أحاول، فلا يمكنني في أحسن الأحوال إلا أن أهتم قليلاً، بعد أن عثرت على المرأتين اللتين كنت أبحث عنهما. سوف أتولى إدخالهما إلى جهاما، ثم أحاول تحديد موقع تول أكستار.

في تلك اللحظة اندفع الباب مفتوحًا وهرع رجل إلى الغرفة. كان تول أكستار. كان شديد الشحوب ويتنفس بصعوبة. توقف عندما رأيته وتراجع، وتصورت أنه سوف يستدير ويهرب، لكنه نظر إلى الورا خائفًا من خلال الباب المفتوح ثم التفت نحوي مرتجفًا.

بكي بصوت مرعوب: «إنهم قادمون! سوف يمزقونني إربًا».

سألته: «مَنْ هُمْ؟».

فقال: «الناس. لقد فتحوا البوابات بالقوة وسوف يأتون، ألا تسمعهم؟».

هذه إذن كانت الضوضاء التي جذبت انتباهي - جحافل الجياع من جاها ر تبحث عن الرجل المتسبب في بؤسهم.

قلت: «جهاما خارج هذه النافذة. إذا أتيت على متنها كأسير حرب، سوف آخذك إلى أمير الحرب في بر سوم».

قال تول أكستار متحجبا: «سوف يقتلني أيضا».

قلت مؤكدا: «يجب أن يقتلك».

وقف ينظر نحوي للحظة، ورأيت في عينيه وتعبيرات وجهه انعكاسا لفكرة في ذهنه. انفجرت أساريه، وبدأ آملا ثم قال: «سوف آتي، ولكن دعني أولا أحضر شيئا واحدا لأخذه معي. إنه في تلك الخزانة هناك».

قلت: «عليك أن تسرع».

أسرع نحو الخزانة، التي كانت طويلة تمتد من الأرض إلى السقف تقريبا، واختفى من أمامنا عندما فتح بابها.

سمعت خلال انتظاري تحطم الأسلحة في الطوابق الأدنى، وصيحات وصرخات ولعنات الرجال، واعتبرت أن حرس القصر يمسك بالغوغاء، مؤقتا على الأقل. نفذ صبري، فقلت: «أسرع، تول أكستار»، لكنني لم أتلق أي رد. ناديت عليه ثانية، ولم أتلق أي رد أيضا؛ فتوجهت إلى الخزانة ولم أجد تول أكستار وراء الباب.

ضمت الخزانة العديد من الأدراج ذات أحجام مختلفة، لكنني لم أجد درجًا كبيرًا بما يكفي لإخفاء رجل، ولا أي مكان يمكن أن يمر خلاله إلى شقة أخرى. بحثت في الغرفة على عجل، ولم أجد تول أكستار في أي مكان. وتصادف أن لمحت سانوما تورا. من الواضح أنها تحاول جذب انتباهي، لكن رعبها حال دون قدرتها على الحديث. كانت تشير بأصابع مرتجفة نحو النافذة. نظرت في هذا الاتجاه، لكنني لم أجد شيئًا.

هرعت إلى جانبها وسألتها: «ما الأمر؟ ماذا تحاولين قوله، سانوما تورا؟».

نجحت في أن تقول: «لقد ذهب! ذهب!».

سألتها: «مَن الذي ذهب؟».

«تول أكستار».

قلت بإصرار: «أين؟ ماذا تقصدين؟».

«الكوة في جهاما - رأيتها تُفتح وتُغلق».

«هذا مستحيل. نحن نقف هنا ...» ثم تبادرت إلى ذهني فكرة،

أصابتنني بحالة من الذهول. نظرت إلى سانوما تورا وهمست: «عباءة التخفي؟».

أومأت.

عبرت الغرفة في قفزة واحدة إلى النافذة، وتحسست سطح السفينة جهاما. لم أجده. السفينة ذهبت، أخذها تول أكستار وتافيا معه.

استدرت وعبرت الغرفة إلى سانوما تورا. قلت لها صائحا: «أنت امرأة لعينة! أنا نيتك وغرورك وخيانتك قد عرضت للخطر سلامة شخص لا تصلح حتى للمس آثار أقدامه». أردت أن أطبق بأصابعي حول على ذلك العنق المثالي، وأن أرى عذاب الموت على هذا الوجه الجميل؛ لكنني ابتعدت عنها وسقطت يداي إلى جانبي، لأنني رجل - نبيل من هيليوم - ونساء هيليوم مقدسات، حتى أولئك مثل سانوما تورا. تصاعدت من أسفل أصوات تجدد القتال. إذا اقتحم الغوغاء الغرفة، سنضيع جميعا. لا يوجد سوى أمل واحد للسلامة المؤقتة، وهو البرج النحيل أعلى مساكن النساء.

قلت بخشونة: «اتبعوني». دخلنا الممر الرئيس، وألقيت نظرة خاطفة داخل القاعة الكبيرة التي يعقد فيها تول أكستار جلساته. امتلأت القاعة بنساء مرعوبات؛ فهن يعرفن جيدا ماذا سيكون مصير نساء الجيداك على أيدي غوغاء غاضبين. أشفقت عليهن، لكنني لا أستطيع إنقاذهن. سأكون محظوظا في الواقع إن تمكنت من إنقاذ الفتاتين اللتين معي.

عبرنا الممر ثم صعدنا السلم الحلزوني وصولا إلى المخزن. دخلناه، وأخذت احتياطاتي بإغلاق ترباس الباب، ثم صعدت السلم نحو الباب المسحور في قمة البرج والمرأتان تبعانني. عندما فتحت الباب ونظرت حولي، كدت أن أصبح فرحا بصوت عالٍ؛ إذ كان الطراد الذي يرفع علم الهدنة يحلق منخفضا فوق سطح القصر. لم أخش من خطر اكتشافنا من جانب محاربي جاهار؛ لأنني أعرف مدى انشغالهم

الآن في أسفل - أولئك الذين لم يفروا للنجاة بحياتهم - ولذا انطلقت إلى قمة البرج وهمت لتحية الطراد بصوت يمكنهم سماعه جيداً فوق عويل الغوغاء. جاء رد التحية من على سطح الطراد، الذي هبط على الفور إلى مستوى سطح البرج. بمعاونة الطاقم، ساعدت فاو وسانوما تورا للصعود على متنها.

جاء الضابط قائد الطراد إلى جانبي، وقال: «مهمتنا هنا غير مجدية. وصلتنا أخبار الآن أن القصر سقط أمام هجمة حشد من المواطنين الغاضبين. واستولى النبلاء على كل طائرة تمكنوا من وضع أيديهم عليها، وفروا. لا يوجد أحد يمكننا التفاوض معه على السلام. ولا أحد يعرف ماذا حدث لتول أكستار».

قلت له: «أنا أعرف»، ثم رويت ما حدث في شقة الجدارة. فقال: «يجب أن نطارده. علينا اللحاق به وإعادةه إلى أمير الحرب». سألت: «أين سنبحث؟ قد تقع جهاما على مسافة عشرة سوفاد منا ولا نراها. سوف أبحث عنه؛ لا تخف أبداً، وسوف أجده في يوم ما، أما الآن فما من جدوى محاولة العثور على جهاما. علينا العودة إلى سفينة القيادة، سفينة أمير الحرب».

لا أعرف مدى إدراك جون كارتر للخسارة التي لحقت بي، لكنني أعتقد أنه كان مدركاً لها؛ لأنه منحني جميع موارد هيليوم للبحث عن تافيا.

شكرته، لكنني طلبت فقط سفينة سريعة؛ سفينة يمكنني خلالها

تكريس ما تبقى من حياتي في ما تصورت أنه بحث عقيم عن تافيا؛ فكيف لي أن أعرف المكان الذي قد يختاره تول أكستار في برسوم الواسعة للاختباء. وهو يعرف دون شك العديد من المواقع البعيدة في إمبراطوريته، حيث يمكنه العيش في أمان لما تبقى من حياته في برسوم. قد يذهب إلى أحد هذه الأماكن، ولن يراه أحد خلال عبوره على متن جهاما الخفية؛ لن توجد أدنى فكرة يمكنني تتبعه خلالها، وسيأخذ تافيا معه وستصبح عبدته. ارتجفت من هذه الفكرة، وغرقت أظافري في راحة يدي.

أصدر أمير الحرب أمره بإحضار واحدة من أحدث وأسرع طائرات هيليوم إلى جانب سفينة القيادة. كانت طائرة أنيقة تسع مقصورتها بسهولة أربعة أو خمسة أفراد بالراحة. وأمر بنقل الإمدادات والمياه من مخازنه إليها، علاوة على نبذ من بتارث وجرار العسل الشهيرة من دوسار.

أما عن سانوما تورا وفاو، فقد أرسلهما أمير الحرب مباشرة إلى قمرة؛ لأن سطح سفينة حربية في الخدمة ليس مكاناً للنساء. كنت على وشك الخروج عندما جاء رسول يخبرني أن سانوما تورا تود أن تراني. أجبت: «وأنا لا أريد رؤيتها».

قال الرسول: «رفيقتها توسلت أيضًا أن تأتي».

هنا اختلف الأمر. لقد نسيت فاو. لكنها إذا رغبت أن تراني، فسوف أذهب. ولذا توجهت على الفور إلى القمرة التي تشغلها الفتاتان. وما إن دخلت، حتى تقدمت سانوما تورا نحوي، وجثت على ركبتها أمامي.

بكت قائلة: «ارفق بي، هادرون الهاستوري. كنت شريرة، لكن غروري وليس قلبي هو مَنْ أخطأ. لا تذهب. عُدْ إلى هيليوم وسأكرس حياتي لسعادتك. يتمتع والدي، تور هاتان، بالشراء. وزوج ابنته الوحيدة يمكنه أن يعيش مترفاً إلى الأبد».

أخشى أن شفتي التوت تعبيراً عن السخرية التي امتلأ بها قلبي. يا لتفاهة روحها! حتى في ذلها وندمها لا ترى جمالاً وسعادة أكبر من الثروة والجاه. تتصور أنها تغيرت، لكنني أعرف أن سانوما تورا لا يمكن أن تغير أبداً.

بكت: «سامحني، تان هادرون. عُدْ لي، لأنني أحبك. أعرف الآن أنني أحبك».

قلت: «حبك جاء متأخراً، سانوما تورا».

تساءلت: «هل تحب امرأة أخرى؟».

أجبت: «نعم».

سألتني: «جيدارة من البلدان الغربية التي مررت بها؟».

أجبتها: «بل فتاة أمة».

اتسعت عيناها متشككة. لم تتصور أنني أفضل فتاة أمة على ابنه تور هاتان. قالت: «هذا مستحيل».

قلت مؤكداً: «هذا صحيح؛ يُفضل تان هادرون الهاستوري فتاة أمة صغيرة على سانوما تورا ابنه تور هاتان»، ثم أدت لها ظهري وواجهت فاو. قلت لها: «وداعاً، صديقتي العزيزة. أعتقد دون شك أننا لن نتمكن

من اللقاء ثانية، لكنني سأرتب لك بيتًا جيدًا في هاستور. سأتحادث مع أمير الحرب قبل مغادرتي، وأطلب منه أن يرسلك مباشرة إلى أُمي». وضعت يدها على كتفي، وقالت: «دعني أذهب معك، تان هادرون، فربما تمر بالقرب من جهاما خلال بحثك عن تافيا».

فهمت على الفور ما تعنيه، وعابت نفسي لأنني نسيت ولو مؤقتًا نور آن. فقلت: سوف تأتين معي، فاو؛ وواجبي الأول يقضي بالعودة إلى جهاما وإنقاذ نور آن من فور تاك العجوز البائس».

خرجت من القمرة ومعني فاو، دون إلقاء نظرة أخرى على سانوما تورا. وبعد بضع كلمات وداع مع أمير الحرب، صعدنا على متن سفيتني الجديدة وبدأنا نتحرك نحو الغرب، إلى جهاما، وتلتقط آذاننا كلمات الوداع الودية.

ونظرًا لأن سفيتني لم تكن محمية بتركية فور تاك للتخفي، أو بالطلاء الذي يقاوم أشعة التفكيك الجاهارية، اضطررنا إلى مواصلة المراقبة الشديدة لسفن العدو التي لم أكن أخشاها كثيرًا. فإذا رصدناها في الوقت المناسب، أعرف أن بإمكانني أن أفوقها سرعة وأتجاوزها.

قمت بضبط بوصلة التحكم في الاتجاه على جهاما، وفتحت السرعة. سرعان ما هبط ليل برسوم؛ وكان الصوت الوحيد المسموع هو اندفاع الهواء الرقيق على جانبي سفيتنا، ما أدى إلى غرق خرخرة محرك سفيتنا.

أُتيحت لي أول فرصة للتحادث مع فاو، منذ أن وجدتها ثانية في

مسكن الجدارة في جاهار؛ وكان أول شيء سألتها عنه هو تفسير تخليها عن جهاما بعد أن انتهى تول أكستار من إنزالها على أرض يوجور. قالت: «وقع حادث أصاب تول أكستار بنوبة غضب كبيرة. كنا نتجه إلى جاهار عندما شاهد إحدى سفنه، التي أخذتنا على متنها بمجرد تعرفهم على هوية الجيداك. كان الوقت ليلاً، وخلال الارتباك الذي صاحب صعود السفينة الحربية الجاهارية نسي تول أكستار للحظات جهاما، التي لا بد أنها جنحت بعيداً عن السفينة الكبيرة بعد أن غادرناها. طافوا لفترة بحثاً عنها، لكنهم اضطروا في النهاية إلى التخلي عنها ومواصلة الرحلة نحو جاهار».

معجزة وجود جهاما أعلى القمة، حيث وجدناها من حسن حظنا في الوقت المناسب للهرب من الصيادين في يوجور، لم تعد معجزة الآن. فالرياح السائدة في هذا الجزء من برسوم تهب من الشمال الغربي في هذا الوقت من السنة. فما حدث أن جهاما جنحت مع الريح وتصادف وجودها عند أعلى ذروة في النطاق.

أخبرتني فاو أيضاً عن أسباب اختطاف تول أكستار أصلاً لسانوما تورا من هيليوم. كان لديه في هيليوم منذ فترة عملاء سريون، وأبلغوه أن أفضل طريقة لجذب أسطول هيليوم إلى جاهار هو اختطاف امرأة من إحدى الأسر النبيلة. فأصدر تعليماته لهم باختيار امرأة جميلة، ولذا قرر عملاؤه اختيار ابنة تور هاتان.

سألتها: «ولكن كيف يتوقعون إغراء أسطول هيليوم إلى جاهار، وهم لم يتركوا أي دليل على هوية خاطفي سانوما تورا؟».

أوضحت فاو: «لم يتركوا أي دليل حينذاك؛ لأن تول أكستار لم يكن مستعداً لهجوم من هيليوم، إلا أنه أرسل عملاءه كمجرد تلميح عن مكان وجود سانوما تورا، وعلم جون كارتر خلال مصادر أخرى هوية مختطفها».

قلت: «إذن سار الأمر كما خطط له تول أكستار، باستثناء النهاية». مرت علينا الساعات بفترات متقطعة من الحديث والصمت الطويل الذي شغله كل منا بأفكاره الخاصة. وكانت أفكار فاو دون شك مزيجاً من الأمل والخوف؛ أما أفكاري، فلم تكن مساحة الأمل فيها كبيرة. كانت الاحتمالات السارة الوحيدة أمامي تكمن في إنقاذ نور آن وإعادة شمله مع فاو، ثم أخذهم بعد ذلك إلى أي بلد يرغبون الذهاب إليه، وبعدها أعود إلى المناطق المحيطة بجاهار ومتابعة بحثي اليأس.

بعد فترة صمت طويلة، قالت فاو: «لقد سمعت ما قلته إلى سانوما تورا في قمرة سفينة القيادة، وأسعدني».

قلت لتذكيرها: «أنا تحدثت في عدد من الأمور، فأَي منها تقصدين؟».

فأجابت: «قلت إنك تحب تافيا».

«لم أقل شيئاً من هذا القبيل»، رددت بسرعة، لأنني أكاد أكره هذه الكلمة.

قالت بإصرار: «لكن قلت. قلت إنك تحب فتاة أمة صغيرة، وأنا أعرف أنك تحب تافيا. لقد رأيت ذلك في عينيك».

«أنتِ لم تريَ أي شيء من هذا القبيل. أنتِ تحبين، ولذا تعتقدين أن كل شخص لا بد أنه يحب».

ضحكت. «أنتِ تحبها، وهي تحبك».

قلت بإصرار: «نحن أصدقاء فقط - أصدقاء جيدون جدًا، وعلاوة على ذلك أنا أعرف أن تافيا لا تحبني».

«كيف تعرف؟».

قلت: «فلنكفَّ عن الحديث في هذا الموضوع»؛ وعلى الرغم من أنني لم أتحدث عن الموضوع، فقد كنت أفكر فيه. تذكرت قلبي لسانوما توما أنني أحب فتاة أمة صغيرة، وكنت أعرف أن تافيا في ذهني في ذلك الوقت، لكنني تصورت أنني قلت ذلك لأجرح سانوما تورا وليس لأي غرض آخر. حاولت تحليل مشاعري، لكنني في النهاية تخلّيت عن ذلك باعتباره نوعًا من الحماسة. بالطبع لا أحب تافيا؛ ولا أحب أي شخص؛ الحب ليس لي، سانوما تورا، قتلته داخلي. كما كنت على يقين أيضًا أن تافيا لا تحبني؛ وإذا أحببني، لكانت أظهرت ذلك، وكنت واثقًا بالقدر نفسه أنها لم تُظهر لي أبدًا أي شعور آخر غير أروع زمالة. كنا مجرد ما قالته - رفاق سلاح، ولا شيء آخر.

كان الظلام لا يزال سائدًا عندما رأيت قصر فور تاك الأبيض المضيء يلمع بهدوء تحتنا بمسافة كبيرة في ضوء القمر. وعلى الرغم من أن الوقت كان متأخرًا، فقد رأيت أضواء في بعض الغرف. كنت أمل أن يكون الجميع نيامًا؛ لأن خططي تعتمد على قدرتي على دخول القصر سرًا. أعرف أن فور تاك لا يحتفظ بأي حراسة ليلاً، لشعوره بعدم

ضروري ذلك في تلك البقعة المعزولة.

هبطت بالسفينة في صمت إلى أن استقرت على سطح المبنى الذي هبطنا عليه أنا ونور آن أول مرة، حيث أعرف أنني سأجد ممراً إلى قصر أدناه.

همست: «انتظري هنا، فاو، عند لوحات التحكم. فقد أعود ومعي نور آن في عجلة من أمرنا، ويجب أن تكوني مستعدة».

تفهمت وأومأت رأسها. نزلت بهدوء إلى السطح، واقتربت من الفتحة التي تؤدي إلى الداخل في أسفل.

توقفت أعلى السلم الحلزوني وتحسست بسرعة أسلحتي للتأكد من أن كل سلاح في مكانه. فقد زودني جون كارتر بالأسلحة من جديد. كنت أقف مرة أخرى مرتدياً جلود ومعادن هيليوم، ومعي مجموعة كاملة من الأسلحة كمقاتل من برسوم. كان سيفي الطويل مصنوعاً من أفضل أنواع الصلب؛ لأنه أحد سيوف جون كارتر. وحملت إلى جانبه سيفاً قصيراً وخنجرًا، ويتدلى ثانية على جانبي مسدس الراديوم الثقيل. فككت جراب المسدس، وبدأت أهبط السلم الحلزوني.

ومع اقترابي من أسفل السلم، سمعت صوتاً قادمًا من اتجاه مختبر فور تاك، الذي كان بابه مفتوحاً على الممر في أسفل السلم. تسللت ببطء إلى أسفل، وأغلقت الباب المؤدي إلى المختبر. سمعت رجلين يتحدثان. تمكنت من تمييز صوت فور تاك الرفيع العالي؛ والصوت الآخر لم يكن صوت نور آن، إلا أنه كان مألوفاً بشكل غريب.

سمعت الرجل الثاني يقول: «.... ثروات تفوق أحلامك».
جمع فور تاك: «لا أحتاج إلى ثروات. هاهنا! سوف أمتلك الآن
كل الثروات في العالم».
سمعت الرجل الآخر يقول متوسلاً: «سوف تحتاج إلى مساعدة.
ويمكنني مساعدتك؛ سوف أعطيك كل سفينة في أسطولي الكبير».
توقفت عند هذه العبارة - «كل سفينة في أسطولي الكبير!». هذا
مستحيل، وإنما ...

حاولت فتح الباب بلطف، ولدهشتي تأرجح مفتوحاً وكشف عن
الغرفة من الداخل. كان تول أكستار يقف تحت ضوء ساطع؛ وعلى
مسافة خمسين قدماً منه يقف فور تاك خلف مقعد طويل يوجد فوقه
بندقية أشعة التفكيك موجهة بالكامل نحو تول أكستار.
أين تافيا؟ وأين نور آن؟ ربما يعرف هذا الرجل وحده مكان تافيا،
وفور تاك على وشك تدميره. قفزت إلى الغرفة، مُطلقاً صرخة تحذير.
نظر تول أكستار وفور تاك نحوي بسرعة، واكتست ملامحهما بدهشة
كبيرة.

صرخ المخترع العجوز: «هاااا!.. إِذَنْ فقد عُدت! يا محتال! يا عاق!
يا خائن! لكنك عُدت فقط لكي تموت».

«انتظر»، صحت وأنا أرفع يدي، «دعني أتحدث».

صرخ فور تاك: «صمتاً! سوف تشاهد تول أكستار يموت. كرهت
أن أقتله دون أي يشاهد أحد الموقف - شخص يشهد عذاب موته.

سوف أنتقم منه أولاً، ثم منك».

صحت: «توقف!»، وكانت أصابعه تحوم بالفعل فوق الزر الذي سيلقي بتول أكستار إلى غياهب النسيان، ومعه ربما سر مكان تافيا. سحب مسدسي. قام فور تارك بحركة مفاجئة بيديه واختفى. اختفى كأنما تحول إلى هواء رقيق بأشعة التفكيك، لكنني عرفت ما حدث. عرفت أنه ألقى عباءة للتخفي حول نفسه، فأطلقت النار على آخر موقع كان مرئياً فيه.

وفي نفس اللحظة، فُتحت الأرض تحتي، ووجدت نفسي في ظلام مطلق.

شعرت بنفسي أندفع على طول سطح أملس، أصبح بالتدريج أفقياً؛ وبعد لحظة وجدتني في شقة ذات إضاءة خافتة، وعرفت أنها لا بد توجد في الحُفر أسفل القصر.

تشبثت بمسدسي خلال سقوطي؛ ونهضت الآن على قدمي وأعدته إلى جرابه مرة أخرى. على الأقل لم أكن أعزل.

اكتشفت أن ضوء الشقة الخافت، الذي كان أفضل قليلاً من عدم وجود ضوء على الإطلاق، كان من جهاز تهوية في السقف؛ ولا توجد أي فتحة أخرى في الجدار أو السقف أو الأرضية غير تلك الفتحة العمودية التي قادتني إلى الزنانة. يبلغ قطر جهاز التهوية حوالي قدمين، ويقود مباشرة من وسط السقف إلى سطح المبنى، عدة طوابق أعلى. وبلغ الطرف الأدنى من مدخل الفتحة العمودية حوالي قدمين فوق أطراف

أصابع يدي عند تمديدهم عاليًا فوق رأسي. هذا إذن سبيل للهرب عديم الجدوى، ولكن، للأسف، يا له من وضع مُعذِّب. من الجنون أن ترى ضوء النهار وطريق مفتوح إلى العالم الخارجي فوقك مباشرة، لكنك غير قادر على الوصول إليه. أسعدني ارتفاع الشمس، حيث تلقي نورها السريع على المشهد؛ لأنني سقطت هنا في ظلام مطلق. ولولاها لكانت محتتي أسوأ بكثير مما هي عليه الآن، ويعرف سلفي الأول مدى هذا السوء. ركزت انتباهي الآن على المنزلق الذي سقطت خلاله، ووجدت أن بمقدوري أن أصعد لمسافة صغيرة جدًا؛ لكنه يبدو بعدها صعودًا حادًا وجدران ملساء مصقولة بحيث يتعذر التسلق.

عُدت إلى الحُفر. يجب أن أهرب. والآن، عندما اعتادت عيناى على الضوء الخافت، رأيت أشياء تتناثر على الأرضية، انتزعت أُملي الأخير وملائي بالرعب. تناثرت في كل مكان على ألواح الأحجار أكوام وتلال من العظام البشرية اختارتها بعناية الفئران القارضة. ارتجفت وأنا أفكر في الليل القادم. إلى متى يطول الوقت قبل أن تجد عظامي أيضًا مكانها بين باقي العظام؟

أصابني هذه الفكرة بالذعر، ليس على نفسي وإنما على تافيا. لا يمكن أن أموت. يجب ألا أموت. يجب أن أعيش إلى أن أجدها.

درت على عجل في أنحاء الغرفة بحثًا عن فكرة للأمل، لكنني لم أجد سوى أحجار غير مصقولة يربط بينها أسمنت ناعم.

أسمنت ناعم! وبهذا الإدراك، بزغ أمل جديد. إذا تمكنت من إزالة القليل من هذه الكتل ووضعتها واحدة فوق الأخرى، يمكنني الوصول

بسهولة إلى الفتحة التي تنتهي عند السقف فوق رأسي. سحبت خنجري وبدأت في العمل. أخذت أكشط وأخدش في الأسمنت المحيط بأحد الحجارة في أقرب جدار. بدا العمل بطيئاً، لكنني تمكنت في الواقع من تخفيف الأسمنت حول الحجر في وقت قصير للغاية. كانت مادة الأسمنت سيئة، وتفتت بسهولة. وما إن سحبت الحجر، حتى تلاشت خطتي الأولى على ضوء ما رأيته أمامي. رأيت خلف الفتحة ممراً أسفل سلم حلزوني يؤدي إلى أعلى؛ ومن مكان ما أعلاه، يتسرب ضوء النهار. أعرف أنني إذا تمكنت من إزالة ثلاثة أحجار أخرى قبل أن تُكتشف محاولتي، يمكنني أن أحشر جسمي خلال الفتحة لأصل إلى الممر خلفها. ولك أن تتخيل مدى سرعتي في العمل.

نجحت في إخراج الأحجار واحداً تلو الآخر، وانزلت مبتهجاً خلال الفتحة إلى الممر. يرتفع فوق السلم الحلزوني. لا أعرف إلى أين يؤدي، لكنه يخرجني على الأقل من الحُفرة. صعدت بحذر، ولكن دون أي تردد. يجب أن أحاول الوصول إلى المختبر قبل أن يقتل فور تاك تول أكستار. وسوف أتأكد هذه المرة من المخترع العجوز قبل أن أدخل الغرفة، وتوسلت إلى جميع أسلافي أن أصل في الوقت المناسب.

كانت جميع الأبواب المؤدية من السلم إلى مستويات القصر المختلفة مغلقة، مما أجبرني على الصعود إلى السطح. وتصادف أن الجناح الذي وجدت نفسي فيه كان منفصلاً بشكل أو آخر، بحيث أمكنني أن أرى من الوهلة الأولى عدم وجود أي طريق يمكن أن أصل خلاله إلى أي من الأسطح المجاورة.

مشيت حول حافة المبنى على عجل، باحثاً عن وسيلة للهبوط إلى السطح أدناه. ورأيت شيئاً أدنى بمستوى واحد، لفت انتباهي على الفور. كانت ساق رجل تبرز من نافذة، كأنما يُخرج أحد أطرافه من حافة النافذة. وبعد لحظة رأيت ذراعاً يبرز، وكان أعلى رأس الرجل وكتفاه مرئيين وهو يميل نحو الخارج. رأيت شيئاً يظهر أسفله مباشرة لم يكن موجوداً من قبل. ولمحت في اللحظة نفسها فتاة، ترقد على بُعد أقدام قليلة، ثم رأيت الرجل ينزلق بسرعة على حافة النافذة ويهبط ويختفي؛ وكل ما كان يوجد أدناي هو رصيف الفناء.

بيد أنني أدركت تماماً ما رأيته، في تلك اللحظة القصيرة. لقد رأيت تول أكستار يفتح كوة جهاما. ورأيت تافيا ترقد مقيدة على أرضية السفينة تحت الكوة. رأيت تول أكستار يدخل السفينة ويغلق الكوة فوق رأسه.

استغرق سرد الواقعة فترة طويلة مقارنة بالوقت الذي استغرقه حدوثها في الواقع؛ كما لم أستغرق وقتاً طويلاً للتصرف بمثل طول الوقت الذي استغرقه سردي.

قفزت بمجرد إغلاق الكوة.



الفصل (١٧)

وجدتُ أميرة

ربما لم أكن قد تصورت بالكامل نتيجة تصرفي عندما قفزت إلى الفضاء دون أي شيء مرئي بيني وبين أحجار رصيف الفناء على مسافة أربعين قدمًا أدناي، على أن تصرفي بطبيعة الحال لم يكن بناء على مجرد اندفاع غير عقلائي. فالعقل يعمل في الحالات الطارئة بسرعة لا يمكن تصورها: يتلقى التصورات، ويصل إلى أحكام، ثم إلى استنتاج محدد - كل ذلك في سرعة مذهلة بحيث تتزامن الأفعال الثلاثة. ولا بد أن هذا ما حدث في تلك اللحظة.

أعرف أين يقع الممشى الضيق على سطح جهاما العلوي في المساحة التي تبدو فارغة أسفلي، فقد قفزت في نفس لحظة إغلاق الكوة. وبالطبع أعرف الآن، وكنت أعرف حينذاك، أن تحقيق هذا الإنجاز يتسم بالخطورة والصعوبة حتى وإن كنت قادرًا على رؤية جهاما أدناي؛ على أنني عندما أنظر الآن إلى ما حدث حينذاك، أتأكد أنه لم يكن هناك أي شيء آخر يمكن القيام به. كانت فرصتي الوحيدة

والأخيرة لإنقاذ تافيا من مصير أسوأ من الموت - وربما كانت فرصتي الأخيرة على الإطلاق لرؤيتها مرة أخرى. وكما قفزت حينذاك، يجب أن أقفز ثانية في ظل ظروف مماثلة حتى مع معرفتي أنني سأفقد جهاما؛ فأنا أعرف الآن، كما كنت أعرف حينذاك، أنني أفضل أن أموت على فقدان تافيا- على الرغم من أنني لم أكن أعرف السبب حينذاك، بينما أعرفه الآن.

بيد أنني لم أخطئ الهدف، وهبطت مباشرة على قدمي فوق الممشى الضيق. لا بد أن تول أكستار شعر بتأثير وزني على سطح السفينة العلوي، لأنني شعرت بالسفينة أسفلي تنخفض قليلاً. ما من شك أنه تساءل عما حدث، لكنني لا أعتقد أنه خمن الحقيقة. على أي حال لم يفتح الكوة كما كنت آمل، وإنما لا بد أنه قفز إلى لوحات التحكم على الفور لأن جهاما ارتفعت سريعاً بزاوية حادة، ما أدى إلى صعوبة تشبثي بها؛ لأن سطحها العلوي لم يكن مزوداً بحلقات. بيد أنني نجحت في الصمود عن طريق الإمساك بحافة البرج الأمامية.

وعندما اكتسب تول أكستار ارتفاعاً كافياً واستقامت السفينة على مسارها، فتح صمام السرعة بحيث أخذت الرياح تندفع في وجهي بسرعة مذهلة بدت لحظياً تكاد أن تحملني بعيداً عن موقعي المحفوف بالمخاطر وتدفعني نحو الأرض البعيدة أسفلي. ولحسن الحظ أنني رجل قوي - فربما لم يكن أي شخص آخر ليتمكن من النجاة من تلك المحنة - على أنني كنت عاجزاً تماماً.

كان بإمكان تول أكستار، إذا خمن الحقيقة، أن يفتح الكوة الخلفية

وعندئذ أصبح تحت رحمته. فعلى الرغم من أن مسدسي يتدلى على جانبي، لم أكن لأستطيع أن أستخدم أيًا من يديّ. بيد أن تول أكستار لم يعرف دون شك؛ أو إذا كان يعرف، فقد كان يأمل في أن السرعة المذهلة التي تتحرك بها السفينة من شأنها أن تزيع أي شخص أو أي شيء قد أحس أنه سقط فوقها.

لم أبقَ معلقًا سوى لفترة قصيرة قبل أن أدرك أن قبضتي سوف تضعف في النهاية. يجب أن أفعل أي شيء لتصحيح وضعي. يجب إنقاذ تافيا؛ ولأنني الوحيد الذي يمكنه إنقاذ حياتها، يجب ألا أموت.

بذلت أقصى جهد عضلي لسحب نفسي إلى الأمام إلى أن تمكنت من الاستلقاء وصدري فوق البرج. تحركت ببطء كالدودة، بوصة بعد بوصة، إلى الأمام. كانت أغطية أنبوب المنظار أمامي مباشرة. إذا تمكنت من الوصول إليها بيد واحدة، فقد آمل في الفوز بقدر أكبر من السلامة. كانت الرياح تعصف بي، ساعية إلى إبعادي. سعت إلى قبضة أفضل بساعدي الأيسر حول البرج، ثم مددت يدي اليمنى بسرعة وأغلقت أصابعي حول غطاءه.

وبعد ذلك لم يكن من الصعب مد جزء من عتادي حول الجزء الأمامي من البرج. وجدت الآن أن بإمكانني تحرير إحدى يدي، على أنني لا يمكن أن آمل في تحقيق أي شيء آخر إلى أن تتوقف السفينة.

ماذا يحدث داخل السفينة تحتي؟ هل يمكن أن تظل تافيا آمنة ولو لفترة قصيرة في قبضة تول أكستار؟ أثارت هذه الفكرة غضبي. يجب إيقاف جهاما، ثم جاءني إلهام.

فككت جيب حقيتي من عتادي بيدي الحرة، وسحبت نفسي مزيداً إلى الأمام، وتمكنت من وضع جيب الحقية المفتوح فوق عين المنظار. وعلى الفور أصبح تول أكستار أعمى؛ لم يعد قادراً على رؤية أي شيء. ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يتحقق رد الفعل الذي كنت أتوقعه وأتمناه - تباطأت جهاما، وتوقفت أخيراً.

كنت أرقد جزئياً فوق الكوة الأمامية، وسحبت نفسي الآن بعيداً عنها وبقيت أمامها. تمنيت أن يفتح هذه الكوة الأمامية؛ فهي الأقرب منه. انتظرت، ثم ألقيت نظرة عابرة إلى الأمام ورأيت يفتح المنافذ. يمكنه بهذه الطريقة أن يبحر بالسفينة، ويحول بالتالي دون تنفيذ خطتي. أصابني إحباط، لكنني لن أتخلّى عن الأمل. حاولت بهدوء شديد فتح الكوة الأمامية، لكنها كانت موصدة من الداخل. شققت طريقي سريعاً ووصلت إلى الكوة الخلفية. إذا قام بتشغيل جهاما ثانية الآن وبأقصى سرعة، سوف أضيع حتماً؛ لكنني شعرت أنني مضطر للمجازفة بهذه الفرصة. بدأت جهاما تتحرك ثانية بالفعل، وضعت يدي على غطاء الكوة؛ على أنني لم أكن هذه المرة صامتاً ولا رقيقاً. رفعت الغطاء بقوة، وانفتحت الكوة. لم أتردد للحظة؛ وما إن انطلقت جهاما إلى الأمام ثانية بأقصى سرعة، حتى نزلت خلال الباب المسحور إلى داخل السفينة.

سمع تول أكستار صوت اصطدامي بالسطح، فترك لوحات التحكم واستدار ليواجهني. تعرّف عليّ. أعتقد أنني لم أشهد أبداً من قبل مثل هذا التعبير الذي يمزج بين الدهشة والكراهية والخوف، الذي بدا على ملامحه. كانت تافيا مستلقية عند قدميه بهدوء شديد إلى حد

أنني تصورتها ميتة. وضع تول أكستار يده على مسدسه، وفعلت نفس الشيء. لكنني عشت حياة أطهر من حياة تول أكستار. كان التنسيق بين عقلي وعضلاتي بسرعة أكبر من سرعة ذلك الذي أهدر حياته منغمساً في الملذات.

أطلقت النار مباشرة نحو قلبه الفاسد. واندفع تول أكستار، جيداك وطاغية جاهار، إلى الأمام فوق سطح جهاما السفلي قتيلاً.

انطلقت على الفور إلى تافيا من جانبها وأدرتها. كانت مقيدة ومكمنة، كما كانت -لسبب غير معروف- معصوبة العينين أيضاً؛ إلا أنها لم تكن ميتة. كدت أن أبكي فرحاً عندما أدركت ذلك. لكم تعثرت أصابعي وهي تسرع لتحريرها؛ وخلال بضع ثوانٍ كنت أضمرها بشدة بين ذراعي.

أعرف أن دموعي سقطت على وجهها المقلوب عندما تلامست شفتانا، لكنني لا أخجل من ذلك. وبكت تافيا أيضاً، وتشبثت بي، وشعرت بجسدها العزيز يرتعش. لا بد أنها كانت مرعوبة، على أنني أعرف أنها لم تُظهر ذلك أبداً لتول أكستار. كان رد الفعل -مزيجاً من الراحة والفرح في لحظة كان فيها اليأس أكثر سواداً.

في تلك اللحظة، عندما خفقت قلوبنا معاً، وجذبتني لتقربني منها، أدركت حقيقة كبيرة. كم كنت أحمقَ وغياً! كيف تصورت من قبل أن مشاعري تجاه سانوما تورا كانت حُباً؟ وكيف تصورت أن حبي لتافيا كان شيئاً ضعيفاً كالصداقة؟ قربتها مني.

وهمست: «أميرتي».

لهذه الكلمة في برسوم، عندما يقولها رجل لامرأة، دلالة خاصة لا تتغير؛ إذ لا يتحدث هكذا أي رجل مع امرأة لا يرغب في الزواج منها. بكت تافيا: «كلا، كلا، خذني، وأنا لك؛ لكنني لست سوى فتاة أمة. لا يمكن أن يتزوج تان هادرون الهاستوري من أمة».

إنها، حتى في هذه اللحظة، لا تفكر إلا في سعادتي، ولا تفكر في نفسها على الإطلاق. كم هي مختلفة عن سانوما تورا؟ لقد خاطرت بحياتي للفوز بكتلة قذارة، لكنني عثرت على جوهرة لا تُقدَّر بثمن. نظرت في عينيها؛ هذه الآبار العميقة الجميلة من الحب والتفاهم. قلت: «أحبك، تافيا. قل لي إن من حقي أن أناديك أميرتي». تساءلت: «على الرغم من أنني أمة؟».

قلت: «حتى لو كنت أقل ألف مرة من الأمة». تنهدت واقتربت مني. همست بصوت شديد الانخفاض: «يا قائدي».

هنا تنتهي القصة بقدر ما يعينني الأمر، أنا تان هادرون الهاستوري. فقد شهدت هذه اللحظة أعلى قمة تمنيت تحقيقها على الإطلاق؛ لكن هناك المزيد الذي قد يهم من تابعوا معي حتى الآن المغامرات التي حملتني طوال نصف الطريق حول نصف الكرة الجنوبي من برسوم.

عندما تمكنت أنا وتافيا من الابتعاد عن بعضنا، وهو ما استغرق وقتًا طويلاً، فتحت الكوة السفلية وألقيت جثة تول أكستار ليجد مثواه الأخير على الأرض الجرداء في أسفل. عدنا إلى جهاما، واكتشفنا أن نور آن

قد تمكن في وقت سابق من صباح اليوم من الوصول إلى أحد أسطح القصر، واكتشفت فاو وجوده.

عندما عرف نور أن أنني دخلت القصر قبل الفجر، شعر بالقلق وبدأ يبحث عني. لم يعرف عن مجيء تول أكستار، وتصور أن الجيداك وصل بعد أن ذهب لينام ليلاً؛ ولم يعرف أن تافيا كانت ترقد مقيدة في جهاما بجوار جدار القصر.

على أن بحثه في القصر كشف عن أن فور تاك فور كان مفقوداً. استدعى العبيد وقاموا ببحث دقيق، دون التوصل إلى أي علامة تشير إلى مكان فور تاك.

تبادر إلى ذهني أنني قد أصل إلى معرفة مكان العالم العجوز. قلت لنور آن: «تعالٍ معي؛ ربما يمكنني العثور على فور تاك من أجلك».

ذهبنا إلى المختبر. فقال: «ما من جدوى للبحث هنا، فقد بحثنا اليوم مائة مرة. وتكشف في لمحة سريعة أن المختبر مهجور».

قلت: «انتظر. دعنا لا نتعجل من أمرنا. تعالٍ معي، ربما أتمكن من الكشف عن مكان فور تاك».

هز كتفيه، وتبعني عندما دخلت المختبر الشاسع. مشينا نحو المقعد الطويل الذي توجد فوقه بندقية التفكيك. اصطدم قدمي بشيء غير مرئي خلف المقعد الطويل، شيء توقعت أن أجده هناك. انحنيت، وشعرت بشيء مكوم تحت غطاء من قماش ناعم.

أمسكت أصابعي بالنسيج غير المرئي، وأزحته جانباً. ها هي أماننا

على الأرض جثة فور تاك، وثقب رصاصة في وسط صدره.

صاح نور آن: «باسم إيسوس! مَنْ فعل هذا؟».

أجبتة: «أنا»، ثم أخبرته بما حدث في المختبر في نهاية الليلة الماضية.

نظر حوله في عجل. وقال: «عليك تغطيته بسرعة. يجب ألا يعرف العبيد. سوف يدمرونا. فلنخرج من هنا بسرعة».

سحبت عباءة التخفي على جسم فور تاك فور مرة أخرى. وقلت: «لديّ عمل هنا قبل أن أغادر».

سألني: «ما هو؟».

«ساعدني في جميع قذائف وبنادق أشعة التفكيك في طرف الغرفة».

سألني: «ماذا تريد أن تفعل؟».

قلت: «سوف أنقذ العالم، نور آن».

انحنى ليساعدني. وعندما جمعناها كلها في كومة في أقصى نهاية المختبر، اخترت قذيفة واحدة وعدت إلى البندقية المحمولة على المقعد الطويل، وأدخلت القذيفة في ماسورة البندقية وأغلقتها وأدرت فوهة السلاح نحو تلك الكتلة المخيفة من الموت والكوارث.

وبمجرد ضغطي على الزر، اختفى كل ما تبقى في جهاما من اختراع فور تاك الخطير، باستثناء بندقية واحدة ظلت بلا ذخيرة. وبهذا، اختفى نموذج 'الموت الطائر' واختفى معه سره.

أخبرني نور آن بشكوك العبيد تجاهنا. ونظرًا لعدم وجود أي ضرورة للمخاطرة بأنفسنا، توجهنا إلى السفينة التي منحها لي جون كارتر وسحبنا السفينة جهاما معنا، ثم حددنا مسارنا نحو هيليوم.

تجاوزنا الأسطول قبل أن يصل بقليل إلى المدينتين التوأم: هيليوم الكبرى وهيليوم الصغرى. استقبلونا على سطح سفينة جون كارتر القيادية بالترحيب الحار والتصفيق. وبعد قليل وقع أحد أروع الأحداث وأكثرها إثارة على الإطلاق. كنا نقيم احتفالاً غير رسمي على السطح الأمامي للسفينة الحربية الكبيرة. وكان الضباط والنبلاء يتقدمون للحضور، ونظر العديدون إلى تافيا بإعجاب.

وجاء الآن دور الدوار كال تافان، الذي كان عبداً في قصر تور هاتان. وعندما وقف وجهًا لوجه مع تافيا، رأيت نظرة دهشة في عينيه.

قال بتكرار: «هل اسمك تافيا؟».

قالت: «نعم، واسمك تافان. إنهما متماثلين».

قال: «لا أحتاج إلى أن أسأل من أي بلد أتيت. أنت تافيا من تجانات».

تساءلت: «وكيف لك أن تعرف؟».

أجاب: «لأنك ابنتي. أسمىك والدتك تافيا. أنت تشبهينها. وبهذا وحده كان يجب أن أعرف ابنتي في أي مكان».

أخذها بلطف بين ذراعيه ورأيت الدموع في عينيه، وعينها أيضًا، وهو يضع شفتيه على جبينها ليُقبلها، ثم التفت نحوي.

وقال: «أخبروني أن تان هادرون الهاستوري الشجاع قد اختار أن يتزوج من فتاة أمة؛ لكن هذا غير صحيح. أميرتك في الحقيقة هي أميرة بالفعل - إنها حفيده جد. وكانت ستظل ابنة جد إن بقيت أنا في تجانات».

كم هي ملتوية مسارات الحياة! ويا لغرابة وعدم توقع الاتجاهات التي تأخذنا إليها. لقد بدأت أحد هذه المسارات بقصد الزواج في النهاية من سانوما تورا؛ بينما شرعت سانوما تورا في مسار آخر على أمل الزواج من جيداك. ولم تجد في نهاية مسارها سوى الخزي والعار. وقد وجدت في نهاية مساري أميرة.



